
ابراهيم ايوب
التاريخ
الفاطمي
الأجتماعي
الشركة العالمية للكتاب

التاريخ الفاطمي الاجتماعي

التاريخ الفاطمي الاجتماعي

صف وإخراج وتنفيذ قسم الكمبيوتر في الشركة العالمية للكتاب
الغلاف: ندى أبي زيد

طبع في لبنان

رزق الله أيوب، ابراهيم

التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ابراهيم رزق الله أيوب، الطبعة الأولى

ISBN 1-55206-052-7

دكتور
أبراهيم رزق الله أيوب
استاذ مساعد في التاريخ
الجامعة اللبنانية



الشركة العالمية للكتاب

المحتويات

المحتوى | الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى | الصفحة



مقدمة

بعد أن سَلّمتُ كتابي «التاريخ الفاطمي السياسي» الى المطبعة، رأيت أن أكمّل عملي بكتاب آخر، هو «التاريخ الفاطمي الاجتماعي» لدراسة المجتمع الفاطمي المتعدد العناصر والمذاهب، وبيان أحواله المعيشية، وعاداته وتقاليده في الاحتفالات الدينية والمناسبات والمواكب الفاطمية، وماهية الخدمات التي قدّمتها الخلافة في النواحي الدينية والثقافية والإسكانية والصحية، وتجنّب الكوارث والفيضانات والقضاء على اللصوص والأعمال اللصوصية والفتن والاضطرابات، فتكون الفائدة أكبر والمعرفة أشمل والمعلومات أوفر.

فالمجتمع في مصر الفاطمية، من الخليفة الى الشعب، مروراً بسائر فئاته وطبقاته، يشكل الى حدّ كبير، الصورة الحقيقية التي تنطبع عليها حياته، لأن تحرّي الحقيقة الماضية يهم المرء إذا ربطناها بالحاضر ومنطق الحياة.

وقد درست «التاريخ الفاطمي الاجتماعي» في ستة فصول، ففي الفصل الأول بيّنت أن المجتمع الفاطمي في مصر كان مجتمعًا طائفياً وعنصرياً في آنٍ واحد. فقد انقسم هذا المجتمع طبقياً الى عدة طبقات لم تتكتل وتدعو الى تحسين أوضاعها، إنما كانت التكتلات تتم على الصُعُد الطائفية والعنصرية أحيانًا كثيرة، مما تسبب في صراعات طائفية ومذهبية وعنصرية. بتحريض من السلطة الحاكمة أحيانًا، أو انفعالات عدائية دينية أحيانًا أخرى.

وفي الفصل الثاني، أبرزت الأحوال المعيشية للمجتمع الفاطمي بعد إجراء مقارنة بين: الأجور والرواتب ـ النقود وقيمتها الشرائية ـ أسعار

السلع والمواد الغذائية: وصولاً الى معرفة ما إذا كان هناك من توازن بين دخل الفرد ومتطلبات الحياة الضرورية. كما لفت النظر الى الاجراءات الفاطمية وفعاليتها في هذا الصدد، وبخاصة في بعض الأمور الحساسة من حياة الشعب كالطعام والشراب واللباس والمسكن.

اما في الفصل الثالث، فقد بيّنت فيه مظاهر الثروة والأبهة في هذا المجتمع، وبيان ثروة الخلفاء وأهلهم، وثروة الوزراء ورجال الدولة، وأثر تجمع الثروة، بيد أهل الحكم، في الطعام والشراب واللباس والأثاث والمجوهرات، وسائر الممتلكات، وأخيرًا مظاهر الأبهة في مجالس الفاطميين المختلفة.

وعرّفت في الفصل الرابع بالخدمات والمرافق العامة في أيام الخلافة الفاطمية بمصر، وأهم هذه الخدمات: الخدمات الدينية والثقافية والصحية والسياحية أو الترفيهية من فنادق وخانات وحمّامات، وعمرانية، طرق وجسور، مبرزاً الايجابي منها مع عدم اهمال السلبي إذا وُجد.

وأتيت في الفصل الخامس على دراسة مظاهر الاضطرابات الاجتماعية ولا سيما منها: ارتفاع أو انخفاض منسوب مياه نهر النيل، وأثر الارتفاع أو الانخفاض على حياة المصريين، وما ينتج عن ذلك من أعمال لصوصية، فضلاً عن الامراض والكوارث الطبيعية.

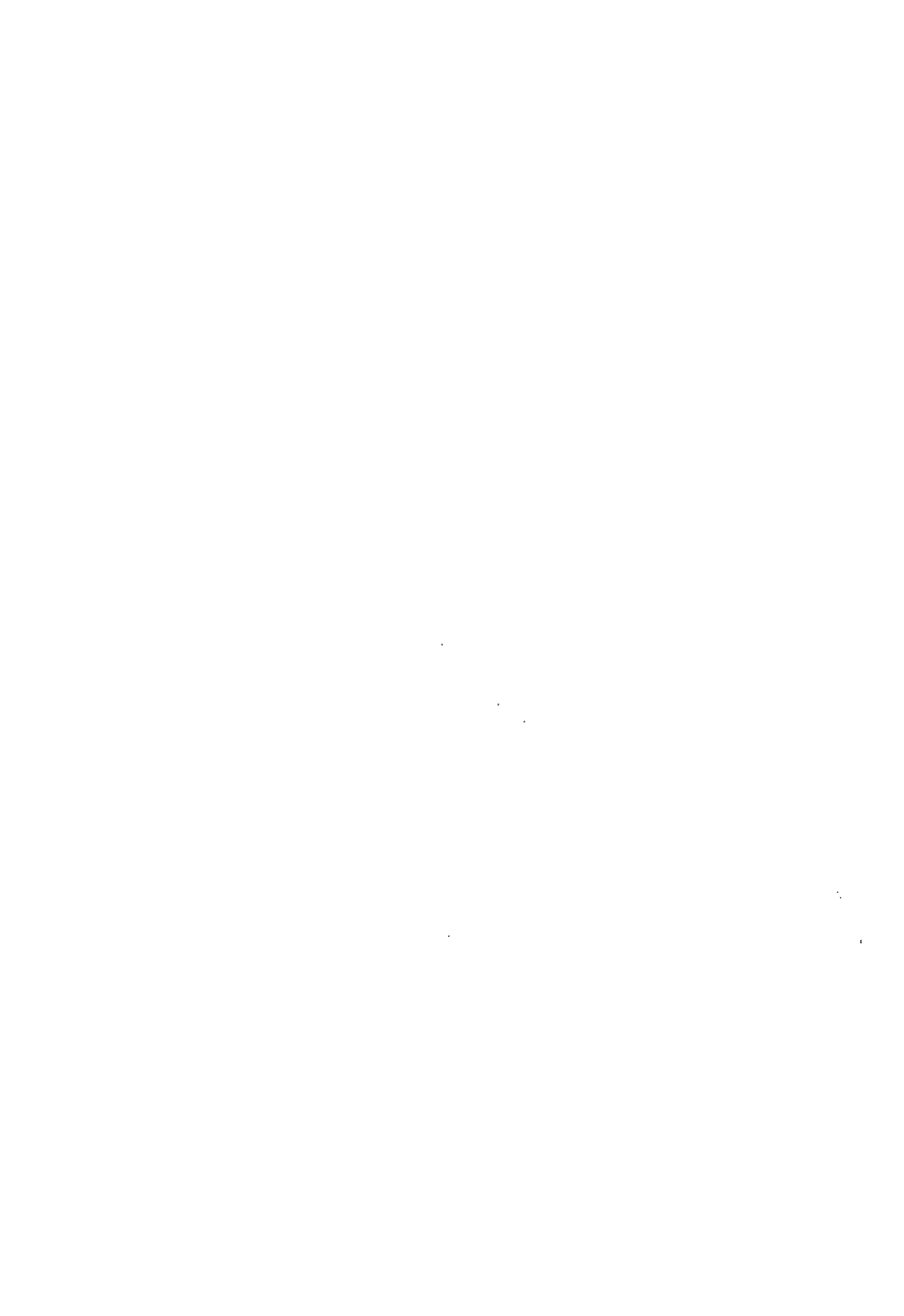
ودرست في الفصل السادس والأخير الحياة اليومية في المجتمع الفاطمي المصري، وبخاصة العادات والتقاليد الحياتية اليومية التي كان يحياها الشعب المصري: عاداته وتقاليده في المناسبات الدينية أو المدفنية، التي تجلت في المشاركة باحتفالات تلك المناسبات عند الجميع على الرغم من اختلاف العرق أو الدين في أحيانٍ كثيرة. وأخيراً التعرّف الى الهوايات والتسالي.

وبعد، أرجو أن أكون قد أصبت فيما قصدت من إبراز تاريخ الخلافة الفاطمية السياسي والاجتماعي، وأشبعت حشرية القارىء العربي الى حب الاطلاع والمعرفة، وذلك بأسلوب علمي مجرد، وبعيد عن روح الأهواء السياسية، والميول الطائفية التي كثيراً ما تأثر بها مؤرخونا فظهرت واضحة في أعمالهم الكتابية وحتى في أقوالهم.

والله ولي التوفيق

الخميس في الرابع من كانون الثاني سنة ١٩٩٦

الدكتور ابراهيم رزق الله ايوب



الفصل الأول

بناء المجتمع في مصر ـ القاهرة

أولاً: الانقسام الطائفي

ثانياً: الانقسام الطبقي

ثالثا: الصراع في المجتمع المصري الفاطمي

رابعاً: دور المرأة في المجتمع الفاطمي

أولاً ـ الانقسام الطائفي:

لما دخل الفاطميون إلى مصر، كان السواد الأعظم من الشعب المصري من أهل السنّة، بينما كانت هناك أقلية من أهل الشيعة، يعود وجودها في مصر إلى الدعاة الذين وجههم الفاطميون من وقت لآخر إليها، للاختلاط بالناس وتعليمهم المذهب الفاطمي، فلم يمض وقت طويل حتى تزايد عدد من اعتنق هذا المذهب، وعمل على نجاحه وانتشاره.

هذا بالإضافة إلى ما قام به الخلفاء أنفسهم، في سبيل نشر الدعوة، من إرسال الكتب إلى الأخشيديين بدعوتهم فيها إلى السير في فلكهم وإظهار العداء للعباسيين. وقد استجاب الأخشيد لهذه الدعوات على أثر ما وصله من أخبار العباسيين بتعيين «محمد بن رائق» والياً على مصر، ومسيره إليها، فأمر الأخشيد بقطع الخطبة للخليفة العباسي، وذكر اسم الخليفة الفاطمي[1].

وكان للأقباط الدور الفعّال والرئيس في تركيبة المجتمع المصري آنذاك. وكذلك الأقلية اليهودية.

وقد فعلت العنصرية فعلها في المجتمع المصري آنذاك، فانقسم إلى ست فئات (جماعات)[2] اعتمدت العنصرية في تكوينها والتفافها بعضها حول بعض وتعاونها في السرّاء والضرّاء وهي:

الفئة الأولى: هي الأساس، ضمت كلّاً من طائفتي السنّة والشيعة المصرية، إلا أن الغلبة كانت للسنّة من حيث الكثرة العددية والسيادة السياسية بفضل مؤازرة الحكم لها، أمّا الشيعة، فكانوا أقلية، ونشطوا سرّاً في نشر عقائدهم بين الناس إلى أن تم الفتح فاشتد

---

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري، ١٢. منشورات مكتبة خياط، بيروت. (لا.تا)

(٢) الفئة: نعني بالفئة جماعة من الناس عاشت في مصر ـ القاهرة أيام الفاطميين، تكتلت في وجه الفئات الأخرى، تارة تعتمد المذهب جامعاً يجمعها وطوراً العنصرية الأصل.

ساعدهم وازداد نفوذهم، وصاروا عوناً للحكم، حتى أنهم انحازوا أحياناً كثيرة إلى جانب الفئة المغربية ضد إخوانهم المصريين متأثرين بالتيار الطائفي، كما سنرى فيما بعد.

الفئة الثانية: وهي، أهل الذمة من النصارى واليهود، وقد حتمت الأوضاع السياسية في البلاد تكتلهما، وفرضت الضغوطات الطائفية، وغذته الاستمرارية في البقاء، رغم ما تعرّض له الذمّيون من ضغوطات طائفية - سياسية - مادية لحمل أفرادها على اعتناق المذهب الاسماعيلي (وهو مذهب الدولة الفاطمية)، بتقديم الهبات والهدايا وتوزيع المناصب العليا على أفرادها حيناً، وبالترهيب والتضييق أحياناً أخرى.

الفئة الثالثة: قامت هذه الفئة من تكتل القبائل المغربية التي رافقت القائد جوهر الصقلي عند فتح البلاد، وتلك التي جاءت مع الخليفة المعز لدين الله. وقد تعالت هذه الفئة على أهل البلاد، وتشاوف أفرادها كثيراً، لأنهم كانوا عصب الدولة الفاطمية، والدماء التي تجري في عروقها، إذ قامت على أكتافهم في المغرب كما في مصر، وبخاصة الكتاميين منهم. فاندفعوا إلى طلب المزيد من التنازلات التي أجبر بعض الخلفاء على تقديمها بفعل الضغوطات التي مارسوها والتقديمات والهدايا التي حصلوا عليها، والمناصب العليا التي وصلوا إليها. فسيطر التنابذ والتحاسد بينهم وبين الفئة المصرية من الطائفة السنّية، لأن الطائفة الشيعية كانت تنحاز إلى جانب المغاربة أحياناً كثيرة، كما أسلفنا أعلاه. وكانت حصيلة العداء بين الفئتين قيام معارك واعتداءات بينهما، لم يَنجُ فيها من غطرسة المغاربة واعتداءاتهم أبناء طائفتهم الشيعية من الفئة المصرية، كما طالت التعديات الفئات الأخرى، وهو ما سنأتي على تفصيله بعد قليل.

الفئة الرابعة: وإن كانت هذه الفئة موجودة على الأراضي المصرية منذ أيام الطولونيين، إلا أنها لم تظهر كفئة لها شأنها وتفرض نفسها على الحكم إلا بعدما بالغ أبو محمد الحسن بن عمّار أحد شيوخ كتامة، عندما تسلم الوساطة (الوزارة) في تكريم المغاربة ومحاباتهم على غيرهم، وإضعاف شأن الأتراك بإبطال الأعطيات لهم. تلك هي فئة الأتراك، التي استطاع زعيمها برجوان أن ينافس ابن عمار على الزعامة، ويعمل للوصول إلى الوساطة عن طريق إقناع الحاكم بأمر الله في الاعتماد على العنصر التركي والتخلص من المغاربة، فكان لبرجوان ما أراد، واضطر ابن عمّار زعيم المغاربة إلى الهرب إزاء هذه التغيرات، وحلّ برجوان محله[1].

الفئة الخامسة: وهي فئة السودان، الذين يعود وجودهم في مصر إلى أيام كافور الأخشيدي، الذي أكثر من استخدام أبناء جلدته. ولما ضاق الخليفة الحاكم بأمر الله بمضايقات الأتراك له، استعان بفئة السودان، للتخلص من الأتراك والتخفيف من شأنهم. فبدؤوا يتكاثرون، وشكلوا نواة تكتل يساند الخليفة الحاكم، منفذين له حريق الفسطاط، حينما لمس استياء المصريين من كثرة التغير في سياسته. وقوي أمرهم، وازدادت شوكتهم حدة على أيام الخليفة الظاهر لدين الله الذي تزوج بامرأة سودانية (سوداء اللون)،

---

(١) ابن منجب الصيرفي، علي: الاشارة إلى مَنْ نالَ الوزارة، ص ٢٧، منشورات المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٢٤م.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة: ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤ و ٥٦، تحقيق أمد روز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

المقريزي، تقي الدين أحمد: اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ٢/ ٢٢، القاهرة ١٣٩٠ ـ ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧١ ـ ١٩٧٣م.

كانت من قبل أمةً (جارية) في بيت أبي سعيد التستري (اليهودي). ثم تفاقم خطرهم في أيام المستنصر بالله، بعدما بلغ عددهم خمسين ألفاً، فوقع الخلاف بينهم وبين الأتراك والذي انتهى بتشتيت الفئة السودانية في أنحاء مختلفة من البلاد.

وعرف المجتمع المصري في العصر الفاطمي فئات، قامت على أساس عنصري، غير تلك التي ذكرنا، كالفئة الأرمنية، وقد استقدم أمير الجيوش بدر الجمالي أفرادها كجنود، عند استدعائه من قبل الخليفة المستنصر بالله لإصلاح الأمور وذلك بعد الضعف الذي أصاب الخلافة الفاطمية من تفاقم خطر الأتراك وحلول الشدة العظمى في البلاد. وقد استطاع بعض أبناء هذه الفئة من الوصول إلى تولي الوزارة، كبهرام الأرمني، الذي قام بدوره باستدعاء عدد من أبناء طائفته إلى مصر فعملوا في الزراعة، إلا انهم لم يبلغوا شأناً كشأن الأتراك أو السودان.

ثانياً ـ الانقسام الطبقي:

وكان المجتمع المصري في عصر الفاطميين منقسماً إلى جماعتين:

- جماعة الخاصة أو أهل الحكم:

من الخليفة وأهله والوزراء وأهلهم وسائر الأمراء والقوّاد والموظفين من قضاة وفقهاء وعلماء، والاساتذة المحنكين والأجناد والخدم والجواري وسائر الملحقين بخدمة القصور والدور.

- وجماعة العامة:

وتشمل هذه سائر أبناء الشعب الذين ينتسبون بالطبع إلى الخاصة مثل التجار والصنّاع والصيارفة والصاغة وأصحاب المهن الحرفية اليدوية، وصغار التجار، أو من يعملون في بيع السلع والمنسوجات، والأقمشة والمواد الغذائية، والاستهلاكية الأخرى، أو من يتعاطون الأعمال الزراعية والعيارين واللصوص.

وكانت تجمع سائر الفئات المتعددة والمختلفة دينياً وعنصرياً، حيث كانت كل منها تعيش مستقلة عن الأخرى في حي أو أحياء خاصة بها، إلا أن هذا لم يمنع من اشتراك هذه الفئة أو تلك في مواصفات عامة ومشتركة، وإن انفردت في خصائص وعادات وتميزت بها، وهو لذلك ينقسم إلى ثلاث طبقات ـ بالمعنى الماركسي.

الطبقة الأولى: وهي على درجات أيضاً، تنحدر تنازلياً من الأعلى إلى الأسفل. فيأتي على رأس هذه الطبقة، الخليفة ـ رأس الدولة ـ الذي سيطر شخصياً على جهاز الحكم سيطرة كاملة، في الدور التاريخي الأول، وكان صاحب السلطتين الدينية والسياسية. وقد أسبغت عليه هالة من القدسية، خفت في الدور التاريخي الثاني بسبب الصراع المستمر بين الخليفة والوزراء على السلطة.

ويأتي بعد الخليفة أهله، الذين يعتبرون من أرفع الناس قدراً وأعظمهم شأناً، يعيشون عبئاً على الدولة دون أن يتحملوا أوزار الحكم وأعباءه، تصرف الرواتب لهم من بيت المال، وتوزع عليهم الرسوم العالية الأخرى من هدايا، وكسوة، ومواد غذائية وخلافه عدا بعض الإقطاعات التي يقطعونها. لذلك كان بعضهم ينصرف إلى حياة اللهو والمجون بمعاقرته الخمر، ومعاشرته النساء[1]، أو الاستماع إلى الغناء وحضور حفلات الرقص، وأحياناً نظم القصائد الشعرية والرد على بعض المنظوم بنقائضه، وكثيراً ما صرف بعض أبناء العائلة الحاكمة أموالاً باهظة في سبيل شراء الجواري من الجنسين، وحتى المغنيات بمبالغ كبيرة وخيالية، وكذلك في شراء هدايا تكريمية كبيرة. وليس أدل على ذلك مما حدث للأمير تميم بن المعز الفاطمي،

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٢٦٥.

الذي اشتريت له جارية، بمبلغ جزيل، من بغداد، وبعدما غنت وطرب الأمير وأصحابه، تمنت عليه أن تغني ما غنته في مجلسه ببغداد، فاضطر إلى إرسالها إلى بغداد لتغني، برفقة رجلين غافلتهما قبل الوصول بقليل وهربت فندم تميم عليها كثيراً[1].

وإذا ما لمس بعض الخلفاء انصراف أحد أبناء العائلة الحاكمة أو بعضهم إلى حياكة الدسائس وتدبير المؤامرات للإطاحة بالخليفة والحلول مكانه، عمد الخليفة القائم بالأمر إلى معاقبة هؤلاء بالقتل والمصادرة، وهذا ما حدث مع الحاكم بأمر الله[2]. ثم انقسمت الإسماعيلية إلى: نزارية، ومستعلية، بسبب الخلاف على تولي الخلافة بين ولدي المستنصر بالله، حيث انتهت بانتصار المستعلي بالله ومقتل أخيه نزار بموافقة الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي[3].

وكذلك قام الحافظ لدين الله بقتل ولده وولي عهده، بعدما استبد الحسن بن الحافظ بالحكم دون أبيه، وأراد الانفراد به وتدبير المؤامرة للإطاحة بوالده بتجييش الجيوش ضده، لكن العسكر، وقد قتل الحسن عدداً كبيراً من أمرائه (اربعين أميراً) خرج عن طاعة الحسن، وعاد الجند ليؤكدوا طاعتهم لوالده الحافظ

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل: البداية والنهاية ١١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤. منشورات مكتبة المعارف ببيروت، ومكتبة النصر بالرياض، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٤٧.

(٣) المصدر السابق: ٣/ ١١ وما بعدها،

أبو المحاسن، جمال الدين: النجوم الزاهرة، ٥/ ١١٢ وما بعدها، طبعة دار الكتب. القاهرة ١٩٢٩م.

طالبين تسليمه إليهم أو قتله، فكان أن قتله والده الحافظ لدين الله بالسم[1].

وأنفقت تغريد زوجة المعز لدين الله أموالاً كثيرة على تشييد مسجد وقصر لها بالقرافة[2]، كذلك لما ماتت الأميرة رشيدة ابنة المعز لدين الله سنة ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م. تركت وراءها خمسة أكياس من الزمرد، ومقادير وافرة من الأحجار الكريمة الاخرى علاوة على ثلاثة آلاف إناء فضي مطعّم[3]، حتى قدّرت ثروتها بمليون وربع مليون من العملة الذهبية.

ويأتي بعد الخليفة وأهله، الوزير وأهله، وذلك بفضل الرواتب العالية التي يتقاضاها الوزراء (خمسة آلاف دينار) في الشهر عدا الكسوة والطعام والخيول والهدايا الأخرى والاقطاعات، وما كان يتقاضاه أولادهم وإخوانهم من رواتب ورسوم عالية[4] فقفزت ببعضهم إلى الصف الأمامي بعد الخليفة، وأحياناً فاقه بالمصادرة لأمواله وأملاكه، والحجر عليه، وهو ما حدث للآمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله مع وزرائهما، الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وأبو علي أحمد بن

(١) ابن الأثير، علي بن أحمد: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧، منشورات دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
ابن خلدون، عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ ٤/ ٧٢. منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧١م.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار أو الخطط ١/ ٤١٥ ـ ٤١٦، نسخة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٧٠هـ. منشورات دار صادر ودار بيروت (لا،تا)
حسن، حسن ابراهيم: الدولة الفاطمية، ٥٣٧ ـ ٥٣٨، منشورات مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤م.

(٣) حسن، زكي محمد: كنوز الفاطميين، ٤٦. القاهرة، سنة ١٩٣٧ م.

(٤) انظر: النظام المالي ـ الرواتب والأجور، الفصل الثاني، من هذا الكتاب.

الأفضل[1]. حتى أن بدر الجمالي وزير المستنصر بالله ترك تركة لأولاده من الاقطاعات، تكفيهم مدى الحياة، وتحميهم غائلة الدهر ولو لم يقوموا بأي عمل[2].

إلا أنه من الواضح أن هؤلاء لم يكونوا على قدر واحد من السلطة والنفوذ، وبالتالي على مستوى واحد من الغنى. وعلى العموم كانت الوزارة مورداً دسماً لمن اشتهاها فقامت للحصول عليها صراعات كثيرة بين الوزراء والولاة والقوّاد العسكريين أضعفت الدولة مادياً وأفقرتها بشرياً خيرة رجالاتها الأقوياء بما ذهبت به تلك الصراعات من الإطاحة برؤوس العديد من الأمراء والقوّاد وغيرهم، ولا سيما في الدور السياسي الثاني من الحكم الفاطمي.

وكان القوّاد والقضاة والكتّاب وأرباب المناصب العالية يشكلون فئة لا يستهان بها من الطبقة العليا، لما يتقاضون من رواتب عالية، وما يوزع عليهم من الأعطيات في المناسبات الخاصة. ويختلف أفراد هذه الفئة في النفوذ والسطوة باختلاف الخلفاء وأدوار الحكم. وقد دبّ التحاسد بين أفرادها، وبالتالي الصراع من أجل الوصول إلى مرتبة الوزراة أو غيرها من الوظائف العليا.

الطبقة الثانية: تعتبر هذه الطبقة من أعلى طبقات المجتمع المصري من غير أهل الحكم (جماعة الخاصة) من حيث الثروة والبحبوحة في العيش مع أنها أقل من الطبقة الأدنى منها عدداً. وهي تنقسم إلى فئتين:

الفئة الأولى: وتضم: الشعراء والحكماء والمغنين والندماء والعلماء والفقهاء،

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١١٠، ٢/ ٢٩٥.

وهم يعيشون من الكسب الذي يحصلون عليه من الطبقة الأولى (أهل الحكم)، ولذلك يصح أن نطلق عليها فئة المتنفعين أو «أهل الكسب»، الذين يتقربون من أهل الحكم عن طريق الشعر مدحاً أو غناء، أو إسداء النصح، وإعطاء المشورة، والمنادمة، أو عن طريق الدين كتفسير الآيات الكريمة، ومدى مطابقة الأحكام للسنّة والقرآن الكريم. وهم والحالة هذه، يعتبرون أيسر حالاً وأوفر حظاً من غيرهم لتقربهم من أهل الحكم. فالخليفة الآمر بأحكام الله، قد خصص بمنظرة المقس أماكن خاصة بالشعراء يلصقون عليها قصائدهم، عند أسفل صورة كل منهم، وفوق الصورة مظروفاً فيه دنانير يأخذ منها الشاعر جعالته[1].

وظهرت رغبة الخلفاء في أكثر من مجال، في مجالسة الأدباء والعلماء، ولا سيما المنجمين للاستماع إلى أبحاثهم، فيقربونهم ويعظمونهم، ويجيزونهم ويفرضون لهم الأعطيات والرواتب. واقتدى بالخلفاء، الوزراء، ومن هؤلاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله، والأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير المستعلي بالله والآمر بأحكام الله، والصالح طلائع بن رزيك وزير الظافر بأمر الله وغيرهم من الأمراء، فأغدقوا الأموال بسخاء على هذه الفئة من الناس، فغدت مصر ـ القاهرة، ملتقى الشعراء والأدباء والفقهاء ـ كما سنرى في الفصل الثالث من هذا القسم ـ ونشطت الحركة العلمية، حتى بات العلم صناعة يرتزق بها فئة من الناس، لا بأس بها، نظماً ومساجلة ونقلاً وترجمة، وصناعة الكتب من كتابة وتجليد وخلافه.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧

الفئة الثانية: تتكوّن الفئة الثانية من التجّار والصاغة والصيارفة، والصنّاع. فقد كانت هذه الفئة بحكم عمل كل منها تتلاعب بمقدرات البلاد، وتهدد الناس بالجوع والموت إذا تلاعبت بالأسعار ارتفاعاً او بالسلع احتكاراً. فما أكثر تجّار الحبوب والطحين وسائر المواد الغذائية على أيام الفاطميين، وكذلك الأقمشة الثمينة والمفروشات الفاخرة الدقيقة الصّنع، وتجّار الجواهر والحلي الثمينة. وتجاه ذلك تدخلت الدولة أكثر من مرة لتمنع الصيارفة من التلاعب بأسعار العملة، وأجبرتهم على التعامل بالأسعار التي كانت تفرضها هي. لكن هذا لم يمنع من أن يجني هؤلاء الصيارفة أموالاً كثيرة من عملهم ولا سيما في أثناء تغيير العملة وإبدالها بعملة أخرى، كما حدث عند إحلال الدينار المعزي محل الدينار الراضي أو إنزال الدراهم الفضيّة إلى الأسواق.

واشتهر المصريون في العهد الفاطمي بما قدموا للعالم من صناعة جيدة. وأثبتت مهارة الصانع المصري جودة البضائع التي فاقت مثيلاتها في العالم المعروف آنذاك دقة وجودة، كصناعة الأقمشة والألبسة المختلفة، في تنيس ودمياط وغيرهما من المدن المصرية، وصناعة السكر والورق والحفر على الخشب وغيرها من الصناعات. فأفرز المجتمع المصري فئة كبيرة من هؤلاء ممّن استطاعوا جمع الأموال الطائلة، حتى تجاوزت ثرواتهم الملايين من الدنانير.

ويروي لنا شاهد عيان نظر الى وضع المجتمع المصري آنذاك بعين الناقد المتبصر لينقل إلينا الصور الدالة على ضخامة ثروة أحد التّجار بقوله: إنه لو أخرج ما عنده من الحبوب لاستطاع ان

يطعم اهل مصر (الفسطاط) على حسابه مدة ست سنين[1].
فتصوّر كم كانت ثروته!!. وكان هناك ابو سعيد سهل بن هارون التستري اليهودي الذي كان على سطح داره ثلاثمائة جرة من الفضة، زرع في كل منها شجرة، فأصبح السطح والحالة هذه كأنه حديقة غرست بمختلف أنواع الأشجار المثمرة[2].

الطبقة الثالثة: نعني فيمن نعنيهم من هذه الطبقة من بقي من الناس: مزارعين وعمّالاً زراعيين، وحرفيين، وصغار الباعة، وخدماً وجواري، وعيّارين، ولصوصاً، وقطّاع طرقٍ وغيرهم.

ولما كانت دراستنا تقتصر على المجتمع في مصر ـ القاهرة فقط، ولما كان مجال العمل الزراعي فيها، أضيق منه في الريف وبقية أنحاء البلاد لقلة المساحة الصالحة للزرع، نقول: بأن فئة المزارعين كانت قليلة، وهي إن وجدت فإن أفرادها كانوا يعملون في بساتين الخلفاء والوزراء والأمراء وأحياناً في مساحات ضيقة على ساحل النيل أمام بيوتهم، ومن لم يجد له عملاً في هذا المجال، فقد أوجد لنفسه مجالاً آخر، في العمل الزراعي، أعني به زراعة الشتول والأغراس، من أزهار وورد وبعض اغراس من أشجار الفاكهة لبيعها من أصحاب الهوايات في تربية الأزهار في حدائقهم او على سطوح أبنيتهم. فقد حدثنا ناصر خسرو[3] أن أحد المزارعين أقام حديقة، فوق سطح بيته، أزهرت وأثمرت، وآخر ربّى عجلاً، على سطح منزله، وكانت هذه الجنائن المعلقة تسقى عن طريق رفع المياه من النيل

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ١٠٦. نقلها الى العربية يحيى الخشاب، منشورات دار الكتاب العربي الجديد، بيروت ١٩٧٠م.

(٢) المصدر السابق: ١٠٩.

(٣) المصدر نفسه: ٩١ و ١٠١.

بالنواعير. وإن لم يذكر لنا المؤرخون مذهب هؤلاء لكن الأرجح ان جل هؤلاء كان من الأقباط النصارى أو ممن تحول منهم الى الإسلام لأنهم سكّان البلاد الأصليون وهم أوسع خبرة في هذا المجال من العناصر والطوائف الطارئة في العهد الفاطمي.

أمّا العمّال الحرفيون، أي أصحاب الصناعات اليدوية، فهم كثر، كالحدادين، والخياطين، والحائكين، والنجارين، والطحانين، والخبازين، والصيادين، والحلاقين، والرفائين... الخ. ويدخل في عداد صغار الباعة، من يبيع المواد الغذائية والمنسوجات والسّلع الصغيرة والملبوسات، واللحوم ... الخ. فيعدّون جميعاً في ما يسمى: بطائفة البقالين والزياتين والجزارين والعطارين والحلوانيين والعجانين والخبازين والفَرانين والسماكين والشّوائين، وباعة الأقمشة والمنسوجات، وباعة الخضر والسقائين.

وإن كان هؤلاء جميعاً من الطبقة الثالثة الفقيرة التي تحصل قوتها اليومي بعرق جبينها، وتكسب ما يدفع عنها الجوع في الأيام العادية. فهي في جميع الأحوال تبقى مالكة لحريتها. وبالرغم من ذلك بقيت حركاتها النضالية فاترة[1]. ويشكل افرادها فئة تعتبر الأرضية الصالحة لمختلف الزراعات الهادفة الى إعمار البلاد. كما يؤدي تقاعسها عن العمل الى إلحاق الضرر والخراب بالبلاد.

وثمة فئة من الطبقة الثالثة وهي: الخدم والجواري والعيارون واللصوص وقطّاع الطرق وغيرهم الذين يعدون من الفئة الدنيا. فبعض هؤلاء كالخدم والجواري من الجنسين سواء أكانوا من الأرقّاء او الخصيان أو الجواري يعملون في قصور الخلفاء

(١) J. et S. La Couture: L'Egypte en mouvement, (Paris, Seuil) 1962, P. 50

يُؤتى بهم من مصادر متعددة وبأثمان مرتفعة أحياناً تبعاً لخصائص معينة يمتاز بها الخصي أو الغلام عن غيره كإتقان صنعة مثلاً. وفي جميع الحالات يبقى هؤلاء ملكاً لمشتريهم يفعل بهم ما يشاء، كسلعة تباع وتُشترى، ليس لهم حق الخيار في ذلك اللهم الاّ من اعتق منهم. ويشير المقريزي الى ان عدد الغلمان بلغ في قصر يعقوب بن كلّس، وزير العزيز بالله، أربعة آلاف (٤٠٠٠)، والحظايا ثمانمائة (٨٠٠)، عدا الجواري[1].

وازداد عدد الغلمان كثيراً في قصور الخلفاء، وخصصت لهم حجر خاصة أُسكنوا فيها، فعرفوا لذلك بالصبيان الحجرية[2] والركابية ... الخ. ويختص هؤلاء بخدمة الخليفة أو الوزير شخصياً أو حماية قصره، ينفق عليهم من ماله الخاص، لذا عرفوا بأسماء مختلفة منها: الآمرية، والحافظية، والجيوشية، والأفضلية، والوزيرية... الخ. وقد تتحول هذه الفرق بعد وفاة الخليفة أو إقالة الوزير الى فرقة من فرق الجند، او قد يعملون في خدمة الدولة لضرورات أمنية، وحوادث مستجدة تقتضي ذلك. لكن الفرق بين هذه الفرق والجند المنتظمين في خدمة الدولة، أن هؤلاء الجنود يتقاضون رواتبهم من بيت المال، وفيهم من يُشترى لهذه الغاية او يستأجر لاحترافه الجندية او اختصاصه بمهارة معينة من المهارات الحربية.

وعلى كل حال، فقد استكثر الفاطميون من استخدام الخصيان

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/٨.

(٢) ابن خلكان شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/٤١٨، تحقيق إحسان عباس، منشورات دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣م.

المصدر السابق: ١/٤٤٣ ـ ٤٤٤

السود او البيض في قصورهم، ولا سيما في قصور النساء، وكانت غالبيتهم من الصقالبة أو من الروم. وارتقى بعض هؤلاء الخدم الخصيان الى مراتب عالية في الدولة، فيانس الصقلي كان خصياً، ارتقى الى مرتبة الولاية، وعظم شأنه حتى راح يتدخل في الشؤون السياسية للدولة. وبرجوان الخادم الخصي، كان هو الآخر وصياً على الحاكم بأمر الله، وتسلم الوساطة (الوزارة) في أيامه سنة ٣٨٧ هـ / ١٩٩٧م. وتلقب بأمير الدولة، وهو أول من لقب بذلك في الدولة الفاطمية[١]. ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان هو الآخر أيضاً خادماً خصياً.

وكان جوهر الصقلي الآخر خادماً غير خصي، ارتقى الى أعلى المراتب وحقق بانتصاراته الباهرة في المغرب نصراً كبيراً للفاطميين مهّد لهم امر اختياره قائداً للجيوش الفاطمية، فبلغ مرتبة لم يبلغها غيره آنذاك وهي: أن ترجل اولاد الخليفة المعز لدين الله، ومشوا بين يديه[٢].

وبلغت الجواري في المجتمع الفاطمي، بعدما كثر استخدامهن، شأناً عظيماً، وكلما كانت الجارية جميلة او مغنية، ارتفع شأنها، واستحوذت رضا الخليفة أو الوزير او الأمير، وبذلت المبالغ الكبيرة للحصول عليها.

وبلغ عدد الجواري في قصر الخليفة العزيز بالله عشرة آلاف جارية (١٠,٠٠٠). ويقول ابن اياس، إنه كان بقصر الحاكم بأمر الله، أربعة آلاف جارية (٤٠٠٠) ما بين بيضاء وسوداء

(١) الانطاكي، يحيى بن سعيد: الذيل...، ص: ١٨٤ ـ ١٨٥، بيروت ١٩٠٩م.
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ٤٤.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

ومولدة[1]. وكان لست الملك أخت الحاكم بأمر الله، أربعة آلاف جارية (٤٠٠٠) منهن الف وخمسمائة (١٥٠٠) من الأبكار والباقي من الثيبات[2]. وكل ذلك بسبب الإقبال على شرائهن، فتميم بن المعز لدين الله، كلف من اشترى له جارية مغنية من العراق، وكانت قد استحوذت على قلبه. وربما صارت إحدى الجواري بعد حين من سيدات القصر الخلافي، وصاحبات الأمر والنهي فيه إذا استولدها سيدها، وهو ما اتفق لوالدة المستنصر بالله[3].

وتبقى فئة أخيرة من الطبقة الثالثة تعرف بـ : العيارين واللصوص وقطّاع الطرق. وهي رأس الفساد وأصل الشرور في البلاد، عاث أفرادها في مصر والقاهرة فساداً فلم يتركوا مكاناً إلا وامتدت اليه ايديهم نهباً وتخريباً، لا سيما إبان الشدة العظمى التي اصابت مصر بدءاً من نهاية الحكم الأخشيدي على مصر مروراً بالحكم الفاطمي، لتبلغ أقصى درجاتها في عهد المستنصر بالله الفاطمي بلاءًا وجفافاً وأمراضاً. فأدت هذه المصائب التي حلت بمصر الى انتشار اللصوص والعيارين وقطّاع الطرق في كل مكان، يعيشون على هواهم، يقطعون الطرق على المارة ويستفردون البعض منهم لسرقة ما يحملون من غذاء او كساء، وربما تعرضوا له بالقتل، وأحياناً كثيرة يسطون على

---

(١) ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور. طبعة بولاق ٥٨/١، سنة ١٣١١-١٣١٢ هـ.

(٢) أبو الفداء، اسماعيل بن علي: المختصر في اخبار البشر، ١٥١/١، مطبعة الحسينية بمصر، الطبعة الأولى.

ابن اياس: بدائع الزهور، ٥٨/١.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢٦٦/٢ وما بعدها.

المحال والمنازل لينهبوا ما بداخلها. ويحدثنا المقريزي[1] عن عمليات خطف للناس وأكل لحوم البشر أثناء الشدة وإعمال العقل في استنباط طرق جديدة ووسائل اكثر مرونة، كخطف الناس من ذكور وإناث بواسطة الكلاليب، وهو ما سنفصله عند حديثنا عن مستوى المعيشة.

ثالثاً ـ الصراع في المجتمع المصري الفاطمي:

ذكرنا سابقاً، أن المجتمع المصري في العهد الفاطمي، تألف من الوجهة الدينية من طوائف متعددة، وعناصر مختلفة أدى اندماجها الى تكوين مجتمع متمايز مادياً ضمن طبقات ثلاث عاشت كل طبقة منها ضمن اطر معينة من العادات والتقاليد والمستوى المعيشي. لكن هذا الفرز الطبقي لم يمنع سائر أفرقاء المجتمع من التقاتل والتحاسد والتنابذ، مدفوعين الى هذا تارة بالطائفية البغيضة وطوراً بالعنصرية الغريبة، وسوف نتحدث عن هذه الصراعات الطائفية والحوادث العنصرية بحسب وقوعها زمنياً.

١) مع الشيعة:

تفاعلت الأمور الطائفية في نفوس المصريين بعدما بدأ الفاطميون في إحداث التغييرات التي تتوافق ورغباتهم الدينية ومصالحهم السياسية مخالفين الأمان الذي أعطاه جوهر الصقلي الى المصريين[2]. ومن هذه التغييرات، اشتراك المغاربة في المناصب الإدارية العليا، بقصد زيادة القبضة الفاطمية على البلاد[3]. ثم كان لظهور المعز لدين الله بعد فترة من مجيئه الى القاهرة الرهبة

---

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد: إغاثة الأمة في كشف الغمة. ص: ٦٠، نشر مؤسسة ناصر، بيروت ١٩٨٠م.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/١٠٣ ـ ١٠٦،

(٣) ماجد، عبد المنعم: ظهور خلافة الفاطميين بمصر، ص: ٢٩١، منشورات دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٨م.

والإجلال. فقد لبس الحرير الأخضر، وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب، زاعماً أنه كان غائباً في السماء، وأن الله رفعه اليه، فامتلأت قلوب العامّة والجهّال منه رعباً وخوفاً، في حين كان محتجباً في قصره، وقد بعث عيونه (الجواسيس) ينقلون اليه اخبار الناس[1]، فاستشاط غضب المصريين (السنّة والنصارى واليهود) على حد سواء، من سياسة الفاطميين التعصبية، بعد أن تحملوا الكثير من جور القوانين التي سنّوها وبخاصة ما كان منها غير متفق مع معتقداتهم الدينية[2].

ويلغ اخيراً سخط الرعايا السنيين من الخلفاء الفاطميين إزاء تلك السياسة التعصبية ان تهكموا على نسبهم، فكتبوا بطاقة وضعوها على المنبر وفيها:

إنا سَمِعنا نسباً مُنكَراً يُتلى على المِنبَرِ في الجامعِ
إنْ كُنتَ فيما تَدّعي صادقاً فاذكر أباً بعد الأب الرابعِ

وصعد العزيز يوماً آخر الى المنبر، فرأى ورقة كتب عليها:

بالظُّلم والجَوْرِ قد رَضينا وليس بالكُفر والحَماقة
إن كُنتَ أعطيتَ عِلْمَ غَيبٍ فَقُلْ لنا كاتِبَ البِطاقة[3]

وقد سبق ان اجتمع، الى المعز لدين الله «جماعة من الأشراف، فسأله محمد بن عبدالله بن أحمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم طباطبا، الى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز لدين الله، سنعقد مجلساً ونسرد عليكم نسبنا. ثم جمع الخليفة الناس في مجلس عام وقال: هل بقي من رؤسائكم أحد؟

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٧٤.
(٢) يحيى بن سعيد: الذيل. . .، ٢٠٦،
ابن ميسر، محمد بن علي: تاريخ مصر، ٢/ ٧٥، نشره هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩١٩م.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٣٧٣،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١١٦.

فقالوا: لم يبق معتبر. فسلّ عند ذلك نصف سيفه وقال: هذا نسبي، ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هي حسبي. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا»[1].

كما عبروا عن سخطهم تجاه تأله الحاكم بأمر الله، ومخاطبة أبناء رعيته قائلين له: يا واحد يا أحد، يا محيي، يا مميت[2]. فكتبوا له بطاقة وضعوها على المنبر وقد جاء فيها:

بالظُّلْمِ والجَوْرِ قد رَضينا ... وليس بالكُفْرِ والحَماقة

إنْ كُنْتَ أُوتِيتَ عِلْمَ غَيبٍ ... بيّن لنا كَاتِبَ البِطَاقة[3]

٢) مع أهل الذمة من الأقباط واليهود:

ساد شعور بالكراهية لأهل الذمة بسبب تحكمهم في شؤون الحكم ونجاحهم في تسيير الإدارة نحو الأفضل، ولا سيما في القضايا المالية. وكانت مكانتهم لا تنفك تتعزز بارتقاء المناصب العليا في الدولة الفاطمية، خاصة أنَّ العزيز بالله بدأ في التخفيف من اعتماده على المغاربة والتقليل من شأنهم علّه بذلك يرضي المصريين، ويبعد السنّة عن الحكم. فعبَّر الناس عن هذه الكراهية وأظهروا تذمرهم تجاه سياسة الدولة بإيصال رقعة الى الخليفة مضمونها:

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ٣/ ٨٢.

(٢) السيوطي، الحافظ جلال الدين: حسن المحاضرة، ٢/ ١٣ ـ ١٤، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية ١٣٦٧هـ/ ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م.
ابن اياس: بدائع الزهور، ١/ ٥٦.

(٣) القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٢، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧م.
السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ١٣،
ابن اياس: بدائع الزهور، ١/ ٥٦.

«يا مولانا، بالذي أعز النَّصارى بعيسى بن نسطورس، واليهود بمنشا ابن الفرار، وأذل المسلمين بك، ألا نظرت في أمري»[1]. وهذا ما أدى الى إلقاء القبض على عيسى بن نسطورس وعلى منشا، وأخذ من الأول ثلاثمائة الف دينار[2] (٣٠٠,٠٠٠ دينار). واستمر وقوف المسلمين ضد اهل الذمة ليحولوا دون تسلمهم الوزارة او ارتقائهم الى بعض الوظائف العليا، وأكثروا من الطلب الى الحاكم بأمر الله لإبعاد أهل الذمة عن الحكم. فرضخ الخليفة لضغط الجماهير المسلمة المصرية وغير المصرية بدافع من التعصب الديني وألقى القبض على الرئيس فهد بن ابراهيم الذي عمل كاتباً لبرجوان عند تقلده الوساطة سنة ٣٨٧ هـ/٩٩٧م، ونائباً عنه إذا غاب، وتلقب بالرئيس[3] ثم قتله.

وتأثر الحاكم بأمر الله بموقف أهل مصر من السنّة الذين ساءهم في البداءة استخدام المغاربة في الوظائف العامّة ولكن ليس بالقدر الذي ساءهم فيه استخدام أهل الذمة، وهذا ما دعاهم إلى الوشاية بابن عبدون إلى الحاكم بأمر الله، الذي سرعان ما ألقى القبض عليه، وأمر بعمل حسابه، ثم ضربت عنقه وقبض ماله في الوقت الذي لم يجف معه حبر كتاب الأمان الذي كان قد أصدره الحاكم بأمر الله له. فنحن لا نستغرب عمل الخليفة هذا بعدما قال عنه ابن العماد الحنبلي «وكان الحاكم سيِّئ الاعتقاد، كثير التنقّل من حال الى حال»[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٤٣،
أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ٢/١٣١،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١١٥ ـ ١١٦،
السيوطي: حسن المحاضرة ٢/٦٣،
ابن اياس: بدائع الزهور، ١/٤٨ ـ ٤٩.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ١/٦٠١، النص يختلف قليلاً وميشا بدلاً من منشا.

(٣) يحيى بن سعيد: الذيل...، ص: ١٨٥،
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٥٦.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣/١٩٣، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. السيوطي: حسن المحاضرة، ١/٦٠٢.

ولم يميز الحاكم بأمر الله في معاملته بين ذمّي نصراني وذمي يهودي، بفعل ضغط الرأي العام السنّي الذي هاجه إبعاده عن الحكم وإشراك المغاربة وأهل الذمة في الحكم بدلاً منه. وكأن الحاكم بأمر الله كان ينتظر الفرصة المواتية للانتقام من أهل الذمة والسير في سياسة التضييق وشدّ الخناق عليهم، فأصدر سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م. قوانين ضد النصارى واليهود تتّصف بالصّرامة. فقد أمرهم بلبس الطيالس وبوضع صلبان على أعناقهم، طول كل صليب منها قدم، وزنته خمسة أرطال (اي عشرة ارطال اليوم)[١]. وأمر اليهود بحمل قرامي الخشب في رقابهم، زنة كل قرمية زنة صليب النصارى. وألا يركبوا (أهل الذمة) الدواب، المحلاة بالسروح، وأن تكون الركاب من خشب، وألا يستخدموا احداً من المسلمين، وألا يركبوا حماراً لمكار مسلم ولا سفينة نوتيّها مسلم، وأن تكون الصلبان في أعناق النصارى إذا دخلوا الحمامات العامّة، والجلاجل في أعناق اليهود ليتميزوا بذلك عن المسلمين[٢].

وأقدم الحاكم بأمر الله على هدم الكنائس، فاستاء النصارى واليهود من هذه المعاملة القاسية، كونهم ابناء هذه البلاد، فاجتمعوا واختاروا مندوبين عنهم لمقابلة الحاكم بأمر الله والاحتجاج على تلك المعاملة. وقابلوه سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م. بينما كان يسير في مقبرة «قباب الطير»، واستأذنوه في الكلام والتعبير عما يجول في نفوسهم من الخوف والحزن والألم . . . . وسألوه كيف يبرر هذه السياسة التي تناقض العهد والميثاق الذي أُعطي

---

(١) وهو ما يساوي ٤,٤٩٢ كلغ؟! بعد حساب وزن الدرهم ٣,١٢٥ غرام.

ـ فالترهنش: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة الدكتور كامل العسلي، (منشورات الجامعة الأردنية) عمان ١٩٧٠ م.، ١٢.

(٢) يحيى بن سعيد: الذيل. . .، ص: ١٨٧،

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤،

ابن اياس: بدائع الزهور، ١/ ٥٠.

لهم، فأمرهم بالانصراف لمقابلته في الليلة التالية في المكان نفسه مع علمائهم، وأكد لهم أنه لن ينالهم منه ضرر إذا تكلموا عما بأنفسهم. أخبرهم الحاكم بأمر الله، بأن هذا السلوك الذي كان في عهد النبي لم يؤت ثماره، وقد مضى عليه أربعة قرون، وقال لهم: فليس لكم عندي الآن الا اختيار واحدة من اثنتين: إما اعتناق الإسلام بعد كل هذا التأخير، وإما العقوبة العاجلة إذا أبيتم الدخول فيه. فلم يجسر المندوبون على الاحتجاج على ما قال الخليفة وانصرفوا عائدين[1]. إلا انه سمح بعد ذلك لمن لم يسلم منهم بالهجرة الى بلاد الإغريق، فهاجر كثير منهم الى الدولة الرومانية الشرقية وإلى النوبة والحبشة. وفي سنة ٤٠٨ هـ /١٠١٧ م. أمر بمنع دخول النصارى واليهود الى حمامات المسلمين، فأفردت لهم حمامات خاصة بالنصارى توضع فوقها الصلبان، وأخرى لليهود تعلوها القرامي تمييزاً عن حمامات المسلمين[2].

وهكذا نرى ان سياسة الفاطميين الدينية تجاه رعاياها كانت تتأثر بمؤثرات خارجية أساسها التعامل مع الدولة الرومية، ومؤثرات داخلية، يرعاها ويؤيدها السنة من المصريين.

٣) مع المغاربة:

بدأ الصراع في وجه المد الشيعي، وأهل الذمة طائفياً، وسرعان ما تحول الى صراع عنصري[3]، تولت دفة الحكم أقوى عناصر القوى التي تكوّن منها المجتمع الفاطمي. فلما تسَلَّم العزيز بالله الخلافة سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦م. اصطنع الأتراك والديلم وجعل منهم القوّاد تشبهاً بالعباسيين وخوفاً

(١) يحيى بن سعيد: الذيل، ص: ١٩٠ ـ ٢٠٧.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٢٩٤،
ابن اياس: بدائع الزهور، ١/ ٥٠.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٩٣.

على نفسه من المغاربة، فحرك هذا شعور المغاربة، ولا سيما الكتاميين. وبدأ التحاسد يفعل فعله فيهم حتى توفي وخلفه ابنه الحاكم بأمر الله، فضجوا محتجين ومطالبين بإبعاد الأتراك وتسليمهم الوساطة. لبى الخليفة الجديد رغبتهم ونزل عند إرادتهم، فقلّد الوساطة (الوزراة) الى أبي محمد الحسن بن عمّار الكتامي الذي استبد في أمور الدولة وقدم المغاربة على سائر الناس، ووزع عليهم العطاء، وحط من قدر الأتراك والديلم، الذي اصطنعهم والده العزيز بالله بحرمانهم من العطاء، وقبض على عيسى بن نسطورس، فقتله ليلاً ورمى على جثته حائطاً، وعذب أصحابه وقتلهم[1]، فانضم على الوساطة. فأغراه الأتراك بإقصاء ابن عمّار، والسعي بذلك لدى الخليفة، ومن جهته قدّم برجوان الأتراك والديلم واستكثرهم في القصر، ثم بيّن للحاكم بأمر الله صوابيّة التخلّص من ابن عمّار. ولما اقتنع الخليفة بما طلب ألقى القبض على ابن عمّار وقتله وقتل كثيراً من المغاربة، فقوى الأتراك.

هذه التناقضات بين الكتاميين والخلفاء الفاطميين من جهة، وبينهم وبين الأتراك والمصريين من جهة ثانية، زاد من اشتعال نار العداء في وجه المغاربة بوجه عام، وقد أذكى هذا العداء، قيام الدولة الزيرية[2] المستقلة في المغرب، وبالتالي استُبعد المغاربة عن المراكز الإدارية الفاطمية، وحلّ محلهم مصريون، من المسلمين، وأهل الذمة، بفضل العامل العنصري الذي جمعهم للوقوف صفاً واحداً في وجه المغاربة وإبعادهم عن الإدارة على الرغم من

(١) ابن سعيد، علي بن موسى: القسم الخاص بمصر، من كتاب «المغرب في حلى المغرب» تحقيق حسين نصار ٢/ ٥٠٥، القاهرة ١٩٧٠م.

(٢) الدولة الزيرية: أسسها يوسف بن زيري الصنهاجي الملقب بـ«بلكين»، الذي اختاره المعز لدين الله لخلافته على المغرب سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م. وقد حكمت أسرة الزيريين أصحاب إفريقية والمغرب الأوسط حتى سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م. باسم الفاطميين، ثم استقلت عن الفاطميين من سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م. ـ ٥٤٣هـ/١١٤٨م. حيث خضعت بلادهم لروجر الثاني ملك صقلية... وقد كانت حاضرتهم مدينة القيروان.

الاختلاف الديني، مما ساعد على ازدياد دور المصريين في الدولة الفاطمية[1].

٤) النزاع بين الأتراك والعبيد:

بدأ شأن العبيد يكبر منذ ان غضب الحاكم بأمر الله على أهل مصر لما عملوا له تمثال امرأة وفي يدها رقعة وأسمعوه فيها كلاماً مكروهاً. فحرّض العبيد والأتراك على إحراق مصر (الفسطاط). ودار قتال مرير في بداية الأمر بين أهلها من جهة وبين العبيد والأتراك من جهة ثانية. ثم انحاز الأتراك والمغاربة الى اهل مصر (الفسطاط) ضد العبيد عندما تحققوا من مساعدة الحاكم بأمر الله للعبيد في افتعال هذا الحريق، وأرسلوا اليه رسالة يقولون فيها:

«نحن عبيدك ومماليكك، وهذا البلد بلدك، وفيه حرمنا وأموالنا وأولادنا وعقارنا، وما علمنا ان اهله جنوا جناية تقتضي سوء المقابلة، وتدعو الى مثل هذه المعاملة فإن كان هناك باطن لا نعرفه، فأخبرنا به، وانتظرنا حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه، وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفاً لرأيك، فأطلقنا في معاملتهم بما يعامل به المفسدون المخالفون»[2].

فأجابهم بأنه ما أراد ذلك، ولعن الفاعل له والآمر به.

ولما وصلت أخبار رسالة الحاكم بأمر الله السرية الى العبيد، يحرضهم فيها ويعدهم بالمساعدة، إلى مسامع الجند الأتراك والمغاربة، أرسلوا اليه الرسالة التالية:

«قد عرفنا غرضك، وهو إهلاك هذه البلدة وأهلها، وهلاكنا معهم، وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لفتك الحريم وذهاب المهج،

---

(١) ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها بمصر، ص: ٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨١ ـ ١٨٢.

ولئن لم تكفهم لنحرقن القاهرة ولنستنصرّن العرب وغيرهم»[1].

وعلى الرغم من مساعدة الحاكم بأمر الله للعبيد سراً، فقد استطاع المصريون بمعاونة الأتراك والمغاربة من الانتصار عليهم وتشريدهم بعد قتل العديد منهم، ولكن بعدما ذهب من أبناء مصر (الفسطاط)، والكثير من حوائجهم وبيوتهم طعماً لألسنة النيران، ورزقاً سائباً أمام اللصوص، والمستفيدين من المصائب والكوارث[2].

وسرعان ما استعاد العبيد نفوذهم في عهد المستنصر بالله، الذي كانت أمه امة سوداء استكثرت من العبيد في جنود ابنها، أبناء جلدتها، وبسطت لهم في الرزق وأمطرتهم بالنعم، حتى صار العبد بمصر يحكم حكم الولاة[3]. وبلغوا ألف عبد (١٠٠٠) اسود، في الوقت الذي أكثر الخليفة من استخدام الأتراك، فأصبح الجند الفاطمي على حد قول جرجي زيدان[4]: «طائفتين كبيرتين، تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ». وطلبت والدة المستنصر بالله الى الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ان يغري العبيد بالأتراك، ويوقع بينهم. فخاف سوء العاقبة، ولم يوافقها عليه. فلم تزل تعمل ضده حتى صرف من الوزارة. وواتتها الفرصة في زمن أبي الفرج عبدالله البابلي الذي امرته بتنفيذ رغبتها بإغراء العبيد بالأتراك، فاستجاب إلى طلبها، وشرع حالاً فيه[5].

وتأججت نيران التنازع بين الأتراك والعبيد على أثر مقتل احد الأتراك على ايدي العبيد، بعدما جرد سيفه على بعض عبيد الشراء أثناء نزهة للخليفة المستنصر بالله، فاجتمع عليه العبيد وقتلوه. فغضب جماعة الأتراك،

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٢٦٧.

(٤) زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، ٤/ ٢٥٣ (لا،تا)

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٢٦٧.

واجتمعوا بأسرهم ودخلوا على الخليفة وقالوا: إن كان هذا الذي قتل منّا عن رضاك، فالسمع والطاعة، وإن كان قتله عن غير رضا أمير المؤمنين، فلا صبر لنا على ذلك». وأنكر المستنصر بالله أن قتله برضاه او أوامره. فخرج الأتراك متوعدين يريدون محاربتهم، مما اشعل الحرب بينهما، فهزم العبيد فيها بعدما قتل من الفريقين كثيراً، وقويت شوكة الأتراك.

وتناهى الى مسامعهم بأن والدة الخليفة، كانت تساعد العبيد بالأموال والسلاح لتعينهم على محاربة الأتراك، فاستعظموا ذلك عليها وأعلموا بعضهم بعضاً ثم تجمعوا وساروا لمواجهة المستنصر بالله، حيث اسمعوه كلاماً قاسياً، نفى بعده ان يكون لديه من ذلك خبر. وتجدد بعدها القتال بين الفريقين لينتهي هذه المرة بانهزام العبيد الى الصعيد وتشتتهم[1].

رجع بالأتراك يومئذٍ مقدمهم ناصر الدولة أبو علي الحسن بن حمدان إلى القاهرة وقد عظم شأنه وعلا قدره، بينما تجمعت فلول المنهزمين من جديد في بلاد الصعيد حتى بلغوا نحواً من خمسين الف مقاتل بين فارس وراجل. وكانت والدة المستنصر بالله لا تزال تعد العدة للقضاء على الأتراك بمن تبقى من جماعتها وأمرتهم أن يقتحموا الأتراك على حين غفلة. واضطر مقدم الأتراك إزاء مفاجأة العبيد بالهجوم عليهم الفرار الى ظاهر القاهرة حيث لحق به أعوانه واستعدوا لمحاربة خصومهم. فدارت بينهما الحرب واستمرت عدة أيام انتصر فيها ناصر الدولة أبو علي الحسن بن حمدان في القاهرة ومصر (الفسطاط)، وهرب العبيد إلى الاسكندرية فلحق بهم، ولما شعروا بالخطر وقد أحدق بهم طلبوا الأمان[2].

لم ترض مقدم الأتراك هذه الحلول، وعنّ له، أن يقضي على أعدائه خوفاً من إعادة تجمعهم، فسار لمقاتلتهم بجيش كبير من الأتراك تمكن أعداؤه في البداءة من الانتصار عليه وتكبيده خسائر فادحة في الأرواح

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ و ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

والعتاد، إلا انه عاد وجمع فلول جيشه، وتأهب لمحاربتهم (بعد تعويض الخسائر عليه من قبل الخليفة)، ثم سار لقتالهم من جديد، فكان له النصر، وانهزم العبيد، بعدما قتل منهم الكثير، بحيث لم ينج إلا القليل، وانتهى أمرهم، وعظم أمر ناصر الدولة بن حمدان، واستبدّ بالأمور، وطالب الخليفة بالأموال، ولم يرجع عن المطالبة بها إلا بعدما تأكد له الحالة الميئوس منها التي وصل إليها الخليفة. ثم ألقى القبض على والدة المستنصر بالله، وصادر أموالها، في الوقت الذي ترك الخليفة فيه جميع اهله، وسائر أقاربه وأولاده وحواشيه متفرقين في المغرب والعراق، وبقي وحيداً يترقب الأمور[١]، حتى اضطر أخيراً الى الاستنجاد بأمير الجيوش بدر الجمالي من سوريا، الذي اشترط على الخليفة أن يستقدم معه جنداً من الأرمن، وألا يبقي من عسكر مصر أحداً، فأجابه الى ما طلب[٢]. وصار من حينها معظم الجيش من الأرمن.

٥) تجدّد الصراع مع اليهود:

عاد اليهود واستولوا على السلطة في عهد المستنصر بالله، بتدبير من أبي سعيد سهل بن هارون التستري وأخيه ابي ثمر ابراهيم اليهوديين. ولكن كيف تمَّ ذلك والمسلمون لهم بالمرصاد؟. ممّا لا شك فيه ان أبا سعيد التستري[٣] كان تاجراً، باع في جملة ما باع الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، جارية سوداء تحظاها الظاهر لدين الله هذا، فولدت له المستنصر بالله. فلما

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٣٨٢.

(٣) تستر: مدينة مشهورة بخوزستان، يمر بها نهر تستر الذي أقيم عليه سد عظيم منذ القديم. يعمل بها ثياب وعمائم. مشهورة بالأقمشة التسترية، وبسورها الذي يقال إنه بُني بعد الطوفان.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، (دار صادر ـ دار بيروت)، (لا.ت.)، ٢/٢٩ ـ ٣١.

صار الأخير خليفة قدّمت أمه، أبا سعيد عند ولدها، حافظة له جميله، وجعلته من جملة خاصتها. فعظم أمره، وعلا شأنه حتى صار ناظراً في جميع أمور الدولة، وله الحل والربط.

وشاءت الظروف أن يزور ابو ثمر ابراهيم أبا علي الحسن بن علي الانباري وزير المستنصر بالله، فعومل معاملة سيئة من قبل غلام الوزير. فثارت ثائرته، وأعلم أخاه أبا سعيد سهل بن هارون التستري بما حصل له عند الوزير. فأقنع ابو سعيد الخليفة بتغيير رأيه في الانباري لهذا السبب وأشار عليه أن يستوزر بدلاً عنه أبا منصور صدقة بن يوسف الفلاحي، وكان هذا يهودياً قد أسلم. فاستوزره المستنصر بالله بعد وزارة ابي القاسم علي بن احمد الجرجرائي(١). وقُبض على ابن الانباري، وصودرت أمواله، ووضع في خزانة البنود الى أن توفي فدفن بها(٢). وصار الفلاحي لا يعمل إلا ما يرسمه له أبو سعيد(٣).

امتعضت أكثرية الطوائف بمصر من تصرف ابي سعيد سهل بن هارون التستري، وتدخله في جميع أمور الدولة، وتعزيز مكانة اليهود بوصول أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي الى الوزارة، وثارت ثائرتهم، واتخذوا من وفاة الخادم عزيز الدولة ريحان(٤) بعد مرض، ذريعة لقتل ابي سعيد، وذلك لتفضيله المغاربة واستمالتهم إليه وزيادته في عطائهم، وإنقاص عطاء الأتراك

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المصدر السابق: اتعاظ الحنفا ٢/ ١٩٦ والمواعظ والاعتبار ١/ ٤٢٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ١٩١

(٤) عزيز الدولة ريحان أحد الأساتذة المحنكين، كلّف القضاء على عرب بني قرّة في منطقة البحيرة بعدما ضايقوا الأهلين وعاثوا في البلاد فساداً، فخرج إليهم ريحان على رأس قوة تمكن بها من الانتصار عليهم وإبعادهم عن تلك النواحي. فضاق منه حسداً، أبو ابراهيم التستري، وصادف أن مات ريحان بمرض فاتهمه الأتراك بسمه.

المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٩٥.

حسداً وخوفاً من انتصار زعيمهم عزيز الدولة ريحان على قبيلة بني قرّة، واتهموا ابا سعيد أنه سمّه. فأجمع الأتراك ومن لفّ لفهم على قتله، فتمكنوا منه بينما كان راكباً من داره على عادته يريد القصر، في الثالث من جمادى الأولى سنة ٤٣٩ هـ /١٠٤٧م. في موكب عظيم، وقبل وصول الموكب من القصر، اعترضه ثلاثة من الأتراك وضربوه حتى مات، ثم قطعوه قطعاً، ومزقوا أعضاءه تمزيقاً، ثم جمعوا ما قدروا على جمعه من أعضائه، وحرقوها بالنار، وألقوا عليها بعد ذلك من التراب حتى صار به تلاً مرتفعاً. . . . أما أهله فقد اشتروا ما قدروا على تحصيله مما بقي من جثته بالمال[1].

غضبت والدة المستنصر بالله لقتله وأغضبت ابنها، فأمر بإحضار من قتله. الا أن الأتراك الذين وقفوا من وراء القتلة الثلاثة، اجتمعوا في الميدان، وقالوا: نحن قتلناه. فلم يجد الخليفة بداً تجاه هذا الموقف من الإغضاء، وأرسل اليهم، خادم القصر الذي وقف بباب السراي وقال: «إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين ام لا؟ . . . فصاحوا صيحة واحدة: نحن عبيد مطيعون، ولكننا أذنبنا». فقال الخادم: «يأمركم السلطان بأن تعودوا»، فعادوا في الحال[2].

وكان لهذا اليهودي ابن وأخ. فكتب أخوه وهو من الأثرياء، لما ملكه الفزع، رسالة للخليفة يقول فيها: إني أقدم للخزانة مائتي ألف دينار مغربي حالاً. فما كان من الخليفة إلا أن عرض الرسالة على الناس، ومزقت على الملأ، وقال: «كونوا آمنين، وعودوا إلى بيوتكم، فليس لأحد شأن بكم، ولسنا بحاجة لمال أحد. .»[3].

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ١٠٨،

المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ١٠٨.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ١٠٩.

٦) تجدّد الصراع مع الأرمن:

ذكرنا أن أمير الجيوش بدر الجمالي اشترط على الخليفة المستنصر بالله عندما استنصره على ناصر الدولة أبي علي الحسن بن حمدان وجماعته، أن يحضر معه جنده من الأرمن وألا يبقى بمصر غيرهم، فقبل الخليفة. وبذلك دخل الأرمن إلى البلاد المصرية وشكلوا الفرقة الأقوى في جند الجمالي، بعدما قتل الكثير من أهل البلاد، ولا سيما الأمراء الذي امتدت أيديهم إلى ممتلكات الخلافة سرقة، وإلى الفلاحين والمزارعين ابتزازاً[١].

ولما تَسَلَّم بهرام الأرمني الوزارة في عهد خلافة الحافظ لدين الله، سأل هو الآخر الخليفة، أن يأذن له بإحضار إخوته وأقاربه وأهله الأرمن من أرمينيا. فسمح له وبدؤوا يتوافدون إلى مصر، حتى بلغوا ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير[٢]، واشتغل قسم كبير منهم في الفلاحة وقسم في التجارة، فجمعوا ثروة كبيرة، جعلتهم موضع حسد المسلمين كافة لا سيما بعد إقدام الأرمن على بناء الكنائس والأديرة[٣]، وممارسة الشعائر الدينية بكل حرية. فزاد غضب المسلمين، وكثرت السعايات للنيل من الأرمن خوفاً من طغيان المسيحية على الإسلام على أيديهم كما اعتقدوا، وهذا ما لم يعهده المسلمون السنّة الذين وقفوا في وجه إخوانهم في الإسلام، المغاربة والأتراك. فكيف يعقل أن يقفوا مكتوفي الأيدي ومقطوعي الألسنة أمام هذا المدّ المسيحي الغريب عن بلادهم؟

رفع المسلمون، بعد إجماع الكلمة، شكاواهم، إلى الحافظ لدين الله، من بهرام الأرمني وأهله وأصحابه، مدعين أن الأرمن ببنائهم الكنائس والأديرة

(١) زيدان: التمدن الإسلامي، ٤/ ٢٣٥.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٥٩.

(٣) المصدر السابق: والصفحة نفسها.

قد انتهكوا العهود، وخالفوا المواثيق[1] منبهين الخليفة إلى تعسف أخي بهرام المعروف بالباساك في ولاية قوص وما لاقاه أهلها على يده من جور وظلم واستباحة الأموال. ولما لم يتجاوب الخليفة معهم، وينفذ رغباتهم بإبعاد بهرام وجماعته، بعث الأمراء المسلمون إلى أبي الفتح رضوان بن الولخشي، والي الغربية، يستحثونه على المسير إليهم، وتخليصهم مما هم فيه من كرب وبلاء[2].

وكان رضوان ككل الأمراء وكل الولاة الطامحين بالوزارة، ما إن علم بذلك حتى لبى النداء، وجيّش نحواً من ثلاثين ألف رجل وسار بهم إلى القاهرة، وبخدعة منه، لإثارة حساسية الناس الدينية، أمر برفع المصاحف على رؤوس الرماح، فكان له ما أراد من وراء ذلك، إذ انضمت إليه أكثرية جيش بهرام (من غير الأرمن). ساعتذلك أعلم بهرام الخليفة بأن رفع المصاحف على رؤوس الرماح خدعة من رضوان يريد بها قسمة جيش بهرام. لكن الخليفة طلب من وزيره الانتقال إلى ولاية قوص بالوجه القبلي والإقامة مع أخيه، ريثما تنجلي الأمور ويرى الخليفة ماذا يفعل.

ويبدو أن الوقوف في وجه طغيان الأرمن لم يقف عند حدود مصر - القاهرة وتَسَلُّم الوزارة، بل شمل النزاع وقوف أهل ولاية قوص، إلى جانب أهل مصر (القسطاط) ضد الباساك وقتلهم إياه قبل وصول بهرام بيومين، في جماعة من أهله وجنده. وعندما رأى أخاه مقتولاً ثأر له بترك جنوده ينهبون المدينة بعدما قتلوا الكثير من أهلها، ثم رحل إلى الموضع

---

(١) المواثيق التي أصدرها الحاكم بأمر الله والتي تقضي بمنع بناء الكنائس الجديدة وحتى ترميم ما يصيبه الخلل في القديمة إلى جانب شروط أخرى كثيرة ضايق بها أهل الذمة من النصارى واليهود. وقد أتينا على ذكر البعض منها في موضع آخر من هذا الفصل.
انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٦٥، و ٢/ ٨١.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ١/ ٨٠،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/١٥٩ - ١٦٠.

المعروف بـ «الأديرة البيض» بأسوان. لكن رضوان بعدما تقلّد الوزارة أرسل أخاه ناصر الدين إبراهيم بن الولخشي على رأس قوة كبيرة لمحاربته، لكن الحرب لم تدر بين الفريقين لاتفاقهما على بقاء بهرام في تلك الجهات، وتسريح جنده ليعودوا إلى القاهرة ومنها يبعدون إلى بلادهم. وفي الوقت نفسه أمر رضوان بمصادرة أملاك أعوان بهرام الأرمني في القاهرة، وقتل الكثير منهم[(١)] لما كان يضمر من حقد على بهرام، وبسبب العداء الديني، بين المسلمين والأرمن، الذي حمل رضوان لواءه. لكن أعمال رضوان لم ترض الخليفة الحافظ لدين الله، لما كان يحمل في قلبه من مودة وشعور بالعطف والمحبة لبهرام، فأرسل إليه سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٩م. يدعوه للسكن عنده في قصره محاطاً بالإكرام والتقدير في الوقت الذي كان يعمل فيه سراً على إثارة الجند ضد الوزير رضوان بن الولخشي إلى أن اضطره إلى الفرار من أمام الأمير أبي الفضل بن مصال الذي طارده وألقى القبض عليه، فوضعه الخليفة في الحبس حيث هرب منه سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧م. عبر فجوة استطاع أن يفتحها في جدار السجن، ولكن ليقع في قبضة العبيد السودان ويقتل بعد قليل من السنة نفسها[(٢)].

وكان بهرام قد أرسل إلى الخليفة كتاباً يلتمس فيه أن يرسل له أبناء طائفته ويعلن ولاءه للخليفة، ويذكر رغبته في الاعتزال في دير من الأديرة والانقطاع إلى العبادة[(٣)]. فكان جواب الخليفة على كتاب بهرام: بأن طلبه في إرسال أهل طائفته لهو أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله، ولو جاز أن يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه. ثم يقول له: والآن فلن يخلو حالك

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٣٥٦،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/١٦٥.

(٢) ابن خلدون: العبر...، ٤/٧٣،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/٢٨١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٨/٢٦٠ ـ ٢٦٢.

من أحد قسمين: إما أن تكون على القضية التي ما زلت تذكر رغبتك فيها وإيثارك لها، من التخلي عن الدنيا ولزوم أحد الأديرة، والانقطاع إلى العبادة. فإن كنت مقيماً على ذلك، فتخير ضيعة من أي الضياع شئت يكون فيها دير تقيم فيه وتنقطع إليه، فتعيّن الضيعة ليجعلها أمير المؤمنين تشريفاً لك مؤبداً. ثم ينذره بحرب شاملة مقدسة يشنُّها عليه جميع المسلمين وكل من يقول بالشهادتين... إن هو رفض العرضين السالفين[1] لكنه فيما بعد أعيد إلى القصر حتى أكمل بقية حياته حيث دفن وسط مراسم دينية عظيمة حضرها الخليفة بنفسه.

٧) تجدّد الصراع بين الأتراك والعبيد:

حاول الخلفاء كلما شعروا بضعفهم تجاه تمرد أحد الوزراء للانفراد بالحكم، استعادة نفوذهم بالاعتماد على العبيد (السودان) لإضعاف قوة الأتراك الذين يلجأ إليهم الوزراء بعدما أصبحوا القوة الضاربة الوحيدة تقريباً للدولة الفاطمية في أدوارها المختلفة، وكان العبيد يقفون دائماً إلى جانب الخلفاء، ينفذون أوامرهم.

لذلك لما ضاق الحافظ لدين الله ذرعاً، من تصرفات رضوان بن الولخشي الاستقلالية، استدعى أحد مقدمي السودان سرّاً، وقال له: اقتلوا هذا الخارجي عليناوعليكم، فأنتم تعلمون إحساننا إليه وإساءته إلينا. مما دفع بالعبيد والأتراك إلى الاقتتال من جديد. فركب رضوان بن الولخشي على رأس جماعته من الأتراك للتصدي للعبيد لكنهم عاجلوه بالضرب، فأصابوا منه مقتلاً وتفرقت جماعته[2].

وبرهن العبيد عن موآزرتهم للخلفاء مرة جديدة، عندما أوعز، العاضد لدين الله، بعد خوفه من صلاح الدين لما تمّ له الأمر واستولى على السلطة،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٨/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

إلى مقدم السودان مؤتمن الخلافة، بقتال الترك والغز، والتف حول مؤتمن الخلافة بقية فئات العسكر المصري، ثائرين على صلاح الدين وجماعته، فتمكنوا منهم في البداية وقتلوا جماعة كبيرة، لكن صلاح الدين شدّد من عزيمة الاتراك والغز وقاتل إلى جانبهم فدارت الدائرة على العبيد وقتل مؤتمن الخلافة الخادم وجماعة كبيرة منهم[1] وخلت الساحة للأتراك والغز.

٨) الصراع بين الخلفاء والوزراء:

لحقت بالمجتمع المصري في أيام الفاطميين أضرار كثيرة من جرّاء النزاع بين الخلفاء والوزراء، واستيلاء الوزراء على السلطة وحجرهم على الخلفاء أحياناً[2] من جهة، والنزاع بين الأمراء والولاة أو القوّاد للوصول إلى السلطة العليا من جهة ثانية، والخطر الصليبي الذي أحدق بحلبة الصراع على الساحة المصرية في عهد العاضد لدين الله، وهدّد البلاد تهديداً خطيراً ومباشراً من جهة ثالثة. فأفقدت هذه النزاعات المجتمع خيرة أبنائه وأقواهم، وذهبت بثروة البلاد بسبب المصادرات والتلف والنهب لفلتان الأمن وفقدان الأقوات وانتشار الأمراض إلى جانب الجفاف وقلة الزراعات وما رافق ذلك من احتكار للمواد الغذائية كافة واشتعال الحرائق في أيام الحاكم بأمر الله، والعاضد لدين الله على يد وزيره شاور بن مجير السعدي[3]. فكانت النتيجة إصابة البلاد بعجز اقتصادي وبشري كبيرين إلى جانب روح العداء والبغضاء التي تفشت بين فئات المجتمع وطوائفه المختلفة.

فما هو دور المجتمع الفاطمي بمصر ـ القاهرة على الصعيد الطبقي إزاء

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٥٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤،
السيوطي: حسن المحاضرة، ١/ ٦٠٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٩٩.

الصراعات التي قامت في البلاد؟ لقد انحصَر دور الطبقة الأولى أو طبقة أهل الحكم في المحافظة على سلطة الخلفاء أولاً ثم انتقال هذه السلطة إلى الوزراء وإحكام الخناق على الخلفاء، وفي كلتا الحالتين الإبقاء على الدور القيادي والطليعي بيَد ابناء هذه الطبقة، لتسلمهم المراكز الرئيسة السياسية والإدارية في الدولة، والاستئثار بالإقطاعات الكبيرة. وقد عرفت أكثر من مرة عناصر جديدة وصلت إلى السلطة وهي من طبقة أدنى.

وبينما كان من المفروض أن يلعب التّجار (وهم من الطبقة الثانية) أصحاب الثروات الكبيرة، دوراً قيادياً وسياسياً أو اجتماعياً بارزاً، نراهم لا يفكرون إلا في استنباط الطرق والوسائل التي عن طريقها يجمعون الأموال، لا فرق إن كانت مستقيمة أو ملتوية. وأخفوا حقيقة ثرواتهم لخوفهم من المصادرة، تاركين ذلك لأصحاب الوظائف العامّة، في القضاء أو الفقه وما شاكل للإفصاح عما يجيش في قلوبهم أحياناً كثيرة، والوقوف في وجه السلطة وحتى الخلفاء. فقصة الشيخ أبي الطاهر والخليفة المعز لدين الله، الذي سأله الخليفة، هل حقاً قلت: إنه لو كان لدى المصريين عشرة أسهم، فليضربوا الروم بتسعة ويضربونا بالعاشر؟ فقال الشيخ لا! لم أقل هذا! ثم قال الشيخ، لقد قلت: إنه لو كان لدى المصريين عشرة أسهم، فليضربوكم بتسعة أسهم لأنكم غيرتم في الدين وادعيتم ما ليس فيكم، وليضربوا الروم بالعاشر[1].

أما الطبقة الثالثة والفقيرة التي كانت تضم المزارعين وصغار التجّار والعمّال والصنّاع والخدم والغلمان والجواري. فعلى الرغم من كثرتهم العددية، لم يكن لهم دور مؤثر في المجتمع يغيّر موازين القوى الحاكمة، إنما كانوا أداة طيعة للحكام يستخدمونهم في الأعمال التي تعود على أصحاب النفوذ والمنافع بالخير العميم، دون أن يكون لهم أي رأي في

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٥٥.

الاختيار أو الرفض. وقد استغل أصحاب السلطة والنفوذ جهل هذه الطبقة الفقيرة من أجل الوصول إلى الحكم، وليس لتحسين أوضاع المجتمع على الأقل من الناحية المعيشية.

وعانى هذا المجتمع من قرارات أصدرها الخلفاء، اتصفت بالقسوة إلى جانب سخافتها الجوهرية. وقد اشتهر عن الحاكم بأمر الله سرعة التغيير في قراراته(١). ومن هذه القرارات: قرار منع التجول، والإقامة الجبرية التي فرضت على الحسين بن جوهر القائد والقاضي عبد العزيز بن النعمان في داريهما(٢). كما أصدر قراراً بمنع التجول ليلاً لضرورات أمنية رآها. مقررات كهذه تفرض اليوم في الدول العصرية، إثر حدوث انقلاب عسكري وسياسي، أو عند حدوث الفتن التي تهدّد أمن الدولة، وهذه لم يكن لها مثيل في أيام الحاكم بأمر الله. وإن هذا القرار لم يكن الأول من نوعه في الدولة الإسلامية، فقد سبق إلى مثل هذه الخطوة زياد بن أبيه في العراق، إذ قال في خطبته البتراء: «فإياي ودلج الليل فإني لا أُوتى بمدلج إلا سفكت دمه...». وقد أُتي برجل ظهر أنه خالف قرار منع التجوّل، فاعتذر بأنه لم يعلم به لتغيبه بالصحراء في طلب ناقة له ضلت، فقال زياد: «والله لا أظنك إلا صادقاً ولكن في قتلك صلاحاً للأمة...» وأمر بقتله(٣).

وأصدر الحاكم بأمر الله قراراً أمر فيه الرعية ـ بعد ادعائه الألوهية ـ إذا ذكره الخطيب على المنبر بأن يقف المصلون وقوفاً على الأقدام صفوفاً إعظاماً لذكره واحتراماً لاسمه في جميع البلاد الخاضعة له. وكان أهل مصر على

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٣.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٨٥.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٧٧، هامش رقم ١.

الخصوص إذا قاموا خروا ساجدين، حتى أنه يسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع[1]. وفتح سجل وقع عليه ستة عشر ألف شخص من سكّان القاهرة، اعترافاً بألوهيته[2]. ثم نهى الناس عن تقبيل الأرض بين يديه وعنّ الدعاء والصلاة له في الخطب والمكاتبات وأن يجعل عوض ذلك: السلام على أمير المؤمنين[3].

وأصدر الحاكم بأمر الله قراراً، يعدّ من أفضل القرارات التي كانت في صالح المجتمع المصري الفاطمي، ألغى بموجبه الألقاب، وقرىء في الجامع العتيق، جاء فيه:

«معاشر المسلمين ممن يسمع هذا النداء

إن الله وله الكبرياء أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة. فمن أقدم على مخاطبة لغير الحضرةِ المقدسة بسيدناومولانا فقد أحل أمير المؤمنين دمه، فليبلغ الشاهد الغائب إن شاء الله»[4].

وطلع الحاكم بأمر الله ببدعة جديدة غريبة من نوعها، وهي أنه ألزم الناس بإغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلاً. وقد بقي هذا القرار ساري المفعول، امتثل له الناس مدة من الزمن. إلا أنه قد خرق، وتحقق من الخرق الخليفة بنفسه بينما كان يركب حماراً يدور به في الأسواق ليلاً ونهاراً، عندما قادته الصدفة في إحدى الجولات ليجتاز بشيخ يعمل في محل للنجارة في أثناء النهار، فوقف عنده وقال: ألم ننهكم عن هذا؟! فقال

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ١/ ٦٠١ - ٦٠٢،
ابن العماد الحنبلي عبد الحي: شذرات الذهب، ٣/ ١٩٥.

(٢) M. J. Marcel: "L'Egypte depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination francaise", Paris, Firmin Didot, 1877, P. 104.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٢٩٤.

(٤) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٦٠،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٩٠.

الشيخ النجّار، يا سيدي أما كانوا يسهرون لما كانوا يشتغلون بالنهار؟ فهذا من جملة السهر. فتبسم الخليفة وتركه. ومنها عاد عن قراره بإغلاق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً، فعاد الناس إلى سيرتهم الأولى في العمل نهاراً والاستراحة ليلاً. وكأني بالحاكم بأمر الله أراد أن يغيّر سنّة الحياة التي سار عليها الناس منذ القديم، أضف إلى ذلك أن العمل ليلاً يلزمه إضاءة كاملة، والإنارة التي كانت متوفرة في أيامه لم تكن كافية لتعوض عن نور الشمس في النهار، خاصة أن بعض الأعمال من الدقة بحيث يتطلب العمل فيها إضاءة قوية غير متوفرة في العصر الفاطمي، فتأمل!.

رابعاً ـ دور المرأة في المجتمع الفاطمي:

كانت المرأة في المجتمع الفاطمي منسية تقريباً، وحريتها مفقودة، لا سيما بعد تلك القرارات التي أصدرها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. وأحست بأن عواطف زوجها وغيرته عليها قلّت بعدما توزعت بين عدة نساء، إزاء تكاثر الجواري، وشيوع التسري، وألوان التهتك، والإكثار من حفلات الغناء والسمر والخمر في السرّ والعلانية حتى من قبل الخلفاء أنفسهم كالظاهر لإعزاز دين الله والآمر بأحكام الله!

١) أوامر الحاكم بأمر الله الى النساء

لهذه الأسباب، احتقرت المرأة، وضيقوا الخناق عليها، واتهموها بكل موبقة حتى أن الحاكم بأمر الله اتهم شقيقته «ست الملك» بأنها تدخل الرجال إلى مخدعها وتمكنهم من نفسها، وقيل بأنه أرسل القوابل[١] (جمع قابلة) للتأكد من براءتها. ولما سمع يوماً ضجيجاً للنساء بحمام الذهب، أمر، أن

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠٥،
ابن خلدون: العبر. . .، ٤/ ٦١،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١١٥،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨٥.

يسد باب الحمام بالحجر، على مَنْ بداخله حتى متن جميعاً. كما غرّق خلقاً منهنّ في النيل بعد الاطلاع على فسقهن[1]. لهذا يعتبر الحاكم بأمر الله من أكثر الخلفاء الفاطميين الذين عاملوا المرأة معاملة قاسية، فأصدر عدة أوامر منع بموجبها المرأة من:

أ - الخروج من بيتها ليلاً ونهاراً:

واستثنى من ذلك النساء المتظلمات إلى مجلس الحكم، والخارجات إلى الحج، والإماء (جمع أمة وهي الجارية) اللواتي يبعن في سوق الرقيق، والعجائز الضعاف اللواتي ينقلن الماء من المصانع[2]، والنسوة اللاتي يجتمعن إلى أقاربهن دون الغرباء في زفاف على شريطة أن يبقين متسترات ليلاً والرجوع على حالهن وآلتهنّ ومن وقتهنّ، ومثل ذلك في المآتم. والنسوة الواردات إلى مصرفي البر والبحر، والعجائز الغسالات، والأرامل اللاتي يبعن الغزل والأكسية، والضعاف من أهل المسكنة، والمسألة. والإماء المزينات، والقابلات (مفردها قابلة أيضاً) بعد معرفة الحاجة التي من أجلها تطلبن الإذن بالتجول حتى يسمح إليهنّ[3].

ب - الجلوس أمام البيت أو البصبصة من الطاقات:

ومنعت المرأة من الجلوس أمام بيتها على الشوارع أو الطرقات، وحتى التطلع من الطاقات والنوافذ، أو الصعود إلى السطوح[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٦،
ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٣٥٢.

(٢) المصانع: مفردها مصنعة، وهي الحوض الذي يجمع فيه ماء المطر.

(٣) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٦٤.

(٤) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٦،
ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٦٤،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١١٠.

ج - الدخول إلى الحمامات:

حظرت أوامر الحاكم بأمر الله على المرأة دخول الحمامات العامة (حتى المخصصة للنساء)، وقد أمر بقتل خلق كبير من النساء لمخالفتهن ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن[1].

د - السفور:

وحظر عليهن كشف وجوههن وراء الجنائز وحتى البكاء والعويل، وخروج النائحات بالطبل والزمر على الميت، وزيارة المقابر في الأعياد والمناسبات[2].

وحتى تطبق أوامره القاسية بحق النساء، فقد أمر الأساكفة بعدم عمل الأخفاف[3] المتخذة لهن، فأقمن على ذلك سبع سنين وسبعة أشهر تقريباً[4]. كما بث في مصر - القاهرة العجائز يستعلمن أحوال النساء لمن يعشقن، أو يعشقهن بأسمائهن وأسماء من يتعرض لهنّ، فمن وجدت منهنّ كذلك قتلها وأخفاها. وكأنه ظن الريبة ببعض جاسوساته العجائز وزيادة في الاطمئنان إلى تطبيق أوامره. لجأ إلى التأكد بنفسه من عدم مخالفتها بإكثاره من التجول ليلاً ونهاراً في المدينة[5] حتى ضاق الحال واشتد

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٦،
ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٣٥٢،
السيوطي: حسن المحاضرة، ١/ ٦٠٢.

(٢) متز، آدم: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢/ ٢٣٣، نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو زيد، بيروت ١٩٦٧م.

(٣) الأخفاف أو الخفاف ومفردها: الخف وهو الحذاء الذي يلبس.

(٤) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٥٣،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢، ١٢٠،
السيوطي: حسن المحاضرة ١/ ٦٠٢،
متز: الحضارة الإسلامية، ٢/ ١٧٦.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٣٥٢.

على النساء الفاسقات والفاسقين. فلم يتمكن أحد منهن من الوصول إلى أحد إلا نادراً، فسلكن ضروباً من الاحتيال، فمثلاً ادعت إحدى الفاسقات بأن أخاها الوحيد ينازع سكرات الموت، ووقفت بطريق القاضي، مالك بن سعيد الفارقي، تناشده بالله، أن يوصلها إليه، فرقّ قلبه وأمر برجلين أوصلاها إليه. فوصلت إلى دار الرجل الذي يهواها وتهواه. ولما طالب الزوج المخدوع بامرأته، وقدعرف قصتها مع القاضي من جارتها، وقال إنها، ليس لها إخوة. ألقي القبض على المرأة والرجل وهما نائمان في إزار واحد وقد ثملا من السكر، وصدرت بحقهما العقوبة، فأحرقت المرأة وقتل الرجل[1]. تدل هذه الرواية على فساد المجتمع المصري في عهد الحاكم بأمر الله، وعلى أن الإكثار من التشدّد عند فجور النساء وفسقهن، قد يذهب بهن إلى اختراع الحيل.

ووصل التهتك في العصر الفاطمي بالنساء إلى حد اقتنائهن الجواري في القصور والتفنن في أساليب الفحشاء، فاتخذت الجارية خصياً لها كالزوج، كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر[2]. ووصل الأمر بالنساء الشريفات إلى الامتناع عن الزواج لعدم اقتناعهن بوجود الزوج الكفوء، أو لأسباب أخرى، فأكثرن من اقتناء الجواري والخصيان في قصورهن، وتكاثر في هذه الحالة الفساد حتى اتهم الحاكم بأمر الله كما رأينا، شقيقته «ست الملك»، والتي تملك أربعة آلاف جارية (٤٠٠٠) منها ألف وخمسمائة عذراء (١٥٠٠)، بارتكاب الفحشاء.

وقد ادى الامتناع عن الزواج بالإضافة إلى حرمان النساء الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً، أن شكت بعض النسوة، ممن ليس لهن معيل أو قيّم يقوم بأمرهن، لابتياع ما يحتجن إليه في منازلهن من المواد الغذائية والألبسة

---

(١) مشرفة، عطية مصطفى: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ص: ٣٤، منشورات دار الفكر العربي بمصر، الطبعة الثانية (لا،تا).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٨٨.

وخلافه، فأمر الخليفة حينذاك الناس بأن يحملوا كل ما يباع في الأسواق إلى الدروب، ويبيعوه الى النساء في بيوتهن، من خلال فتحة في الباب أو الحائط، فيعرض البائع على المرأة بضاعته في مغرفة (شبه الملعقة) بساعد طويل يمده إليها وفيه ما تريد شراءه، وهي تقف وراء الباب أو الحائط. فإذا رضيت وأعجبها، وضعت الثمن في المغرفة، وأخذت ما فيها فلا يراها البائع(١).

وقد سار الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله على خطة والده في بعض الأمور التي تخص المرأة، ومن ذلك أنه جمع عدداً من الجواري يعدّ بالآلاف وسدّ عليهن الأبواب حتى متن، ثم أضرم النار فيهن(٢).

كانت هذه نظرة الحاكم بأمر الله إلى المرأة. وكانت نظرة الخلفاء الآخرين مختلفة اختلافاً كلياً، إذ اعتبروها أم الأولاد التي حبتها الطبيعة بهذه الخاصة، فطلبوا من رعاياهم تكريمها والوقوف بجانبها والأخذ بيدها. خاطب المعز لدين الله جماعة من شيوخ كتامة داعياً إياهم إلى الاكتفاء بزوجة واحدة قائلاً لهن: «وأقبلوا بعد الأعمال على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن، والرغبة فيهن، فينغص عيشكم، وتعود المضرة عليكم، وتنهكوا أبدانكم، وتذهب قوتكم، وتضعف نحائركم، فحسب الرجل الواحد الواحدة»(٣).

ولما توفيت زوجة العزيز بالله وأم أولاده وزوجته، حزن عليها حزناً

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠٥،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٧٧.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ١٥٣،
O'Leary: A short history of the Fatimid Khalifate, P. 173.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٩٥ - ٩٦،
والمواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٢،
متز: الحضارة الإسلامية، ٢/ ١٧٩.

شديداً، فأجاز للغاسلة بما قيمته ستة آلاف دينار (٦٠٠٠) ودفع للفقراء ألفي دينار (٢٠٠٠)، وللقرّاء على قبرها ثلاثة آلاف دينار (٣٠٠٠)، وللشعراء الذين رثوها حوالى ألفي دينار (٢٠٠٠)[١]، وخاف الحاكم بأمر الله نفسَهُ على والدته، إذا أصابه مكروه، فأعطاها مفتاح خزانة له تشتمل على خمسمائة ألف دينار[٢] (٥٠٠,٠٠٠).

واستطاعت بعض نساء الخلفاء الفاطميين وبناتهم جمع ثروة كبيرة رغم الحجر عليهن فأنفقت تغريد زوجة المعز لدين الله، أموالاً كثيرة على بناء مسجد لها بالقرافة جاء آية في الزخارف والنقوش والسقوف الملونة، كما بنت قصراً لها في القرافة أيضاً[٣]. ولو لم تكن «ست الملك» شقيقة الحاكم بأمر الله تملك ثروة كبيرة، لما أهدت شقيقها الحاكم بأمر الله هدايا ثمينة جداً، من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهباً، ومن ضمنها مركب واحد مرصع، ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر، وبستان من الفضة مزروع بأنواع الشجر[٤].

وقد تكسب المرأة زوجها عند الزواج منها قوة فوق قوته، وهذا ما حصل لناصر الدولة بن حمدان، عندما لجأ إلى الاسكندرية، فمضى إلى حي من العرب، وتزوج منهم وقوي بهم لمناصرتهم له، فعاد وحاصر القاهرة إلى أن رضي المستنصر بالله تسليمه مقاليد الأمور، والانفراد بها[٥]. كما سعى بعض الوزراء من أرباب السيوف، كبدر الجمالي إلى تزويج ابنته، «ست

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) المصدر السابق: ٢/١١٦،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٨٧ و ١٩٣ ـ ١٩٤.
وفيه ثلاثمائة ألف دينار بدلاً من خمسمائة ألف دينار.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٤١٥ و ٤٨٦.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٥،
زيدان: التمدن الإسلامي، ٥/١٣٢.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥(١٥٠٣.

الملك» من المستعلي بالله ابن الخليفة المستنصر بالله، والذي أصبح الخليفة بعد وفاة والده. بينما قام الوزير طلائع بن رزيك بتزويج ابنته من الخليفة العاضد لدين الله.

وعقد القاضي محمد بن النعمان نكاح ولده أبي القاسم عبد العزيز على ابنة القائد أبي الحسن جوهر، فكان العقد في مجلس العزيز بالله ثاني خلفائهم في مصر، ولم يحضره إلا خواصه، وبلغ الصداق ثلاثة آلاف دينار (٣٠٠٠) والكتاب ثوباً مصمتاً[١].

٢) المرأة تفرض وجودها في المجتمع الفاطمي:

وجاء رد المرأة على حكم الرجل عليها من نساء أهل الحكم، لأن المرأة في الطبقات الأخرى العامة، لم يكن لها أي دور طليعي في المجتمع المصري، إلا ما اعتادت عليه من العمل البيتي، ومساعدة زوجها في بعض الأعمال الزراعية، وإن كان لبعض نساء الطبقة العامة شأن، فهذا بحكم عملهن كمغنيات، أو راقصات أو حظايا وما شابه ذلك. وهذا الشأن آني، سرعان ما يزول بزوال الظروف التي أوجدته.

أ - المرأة تتدخل في شؤون الحكم:

اعترضت أخت الحاكم بأمر الله على بعض أوامره التي لم تعجبها، فحرضت أخاها ضد ابن النجوى والي دمشق الذي كان قد أساء السيرة ووصل إليها الخبر. فكتب إلى وحيد والي الرملة يقول:

ساعة وقوفك على هذا الكتاب، اقبض على محمود بن محمد (بن النجوى)، لا حمد الله أمره، وسيره مع من يوصله من ثقاتك إلى الباب العزيز إن شاء الله.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٤٢٠.

ولكن أخت الحاكم بأمر الله اعترضت على هذا الأمر قائلة: إن بطن الأرض خير من إحضاره، فزاد الخليفة في الكتاب المرسل إلى والي الرملة: «بل اضرب عنقه، وتنفذ رأسه»[1].

ب - المرأة تأخذ البيعة لمن تحب، وتبعد عن الخلافة من تغضب عليه:

واستطاعت «ست الملك» شقيقة الخليفة الحاكم بأمر الله إبعاد ابن عمها عبد الرحيم بن الياس الذي كان قد اختاره شقيقها ليخلفه، وأخذت البيعة للظاهر لإعزاز دين الله، ابن شقيقها، وألبسته تاج جده العزيز بالله، بعدما اطمأن لها الناس، فبايعوه جميعاً باستثناء غلام تركي كان يعمل ليلاً بين يدي الحاكم، فإنه قال: لا أبايع حتى أعرف خبر مولاي، فقتل للحال[2]. ثم أرسلت في طلب عبد الرحيم بن الياس من دمشق حيث كان قد عينه الحاكم بأمر الله، والياً عليها، وأخذت منه البيعة، والسيف مسلطاً فوق رأسه[3].

ولعبت والدة المستنصر بالله دوراً كبيراً في تعيين الوزراء وإقالتهم بعد مصادرتهم وقتلهم[4]. فاستوزرت أولاً: أبا الفتح الفلاحي، ثم استوحشت منه، فقبض عليه الخليفة ابنها وقتله، ووزّر بعده أبا البركات حسن بن محمد، وعزله بعد مدة، وولى الوزارة أبا محمد البازوري، فقام

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/٣٠٦ ـ ٣٠٧،
ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/١٠ ـ ١١،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١١٦ ـ ١١٧.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٨٢ ـ ١٨٣،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٩٤.

(٤) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/٣٦٠،
ابن خلدون: العبر...، ٤/٦٣،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٣٥٥،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٩٥ ـ ٢٠٣.

بالوزارة إلى أن قتل حيث وزّر بعده أبا عبد الله الحسين بن البابلي[1].

واستجاب الصالح طلائع بن رزيك لاستغاثة نساء القصر، عندما قطعن شعورهنَّ وضمنوها الكتب التي أرسلت إليه في ولايته بـ«منية خصيب» في الصعيد، سائلينه الانتصار لمولاه والخروج على عباس. فجاء على رأس قوة من أجناده وجمع من العرب، وساروا قاصدين القاهرة، وقد لبسوا السواد، فلما قاربوها، انضم إليهم جميع من فيها من الأمراء والأجناد والسودان، وتركوا عباساً وحده، فهرب وَمعَهُ ولده نصر قاتل الخليفة الظافر بأمر الله، وأسامة بن منقذ، والقليل من أتباعهم، قاصدين بلاد الشام. أما طلائع بن رزيك، فقد دخل القاهرة بأعلامه وثيابه السوداء حزناً على الظافر بأمر الله والشعور التي أرسلت إليه على رؤوس الرماح، حيث خُلع عليه الوزراة، واستقامت له الأمور[2].

ج ـ المرأة تتآمر للإطاحة بالخلفاء والوزراء:

لم ترض تصرفات الحاكم بأمر الله شقيقته «ست الملك» وشعرت بالخوف منه، بعدما اتهمها بارتكاب الفاحشة كما ذكرنا سابقاً، لذلك سعت للتخلص منه، قبل أن يقضي عليها. لقد كتبت إلى ابن دواس كبير الأمراء والقوّاد لدى الحاكم بأمر الله، رسالة تقول له فيها: «إني أريد أن ألقاك. إما أن تأتي إليّ متنكّراً. وإما أن أجيء أنا إليك»[3]. واتفقا على قتل أخيها الخليفة، وتعاهدا على إتمام عملية القتل معاً، بعدما أغرته مع كاتبه، بشتى الوعود، وليس أقلها الوعد بتَسَلُّم الوساطة ومضاعفة جاريه

---

(١) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٣٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٤٤،

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٧/ ٢٩٨ وهناك اشارة اتهام لابن دواس بعلاقته بست الملك.

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣/ ١٩٣.

(العطاء) من مال ولباس ومواد غذائية، والإنعام عليه بالاقطاع وخلافه[1].

وتنفيذاً للعملية أحضرت ست الملك (وأحياناً «ست الكل» في المقريزي) عبدين وحلّفتهما على كتمان الأمر، ودفعت إليهما ألف دينار ليقتلوا الحاكم بأمر الله[2]. وسواء أقتله العبدان أم قتله شخص آخر، فالمهم أن «ست الملك» شقيقة الحاكم بأمر الله، دبرت المؤامرة وحبكت خيوطها في حين راقبها ابن دواس أحد قوّاده الكبار.

وحتى تستقيم لها الأمور، وتتفرد بالحكم، وخوفاً من إشاعة خبر المؤامرة بينها وبين ابن دواس، فقد عملت على التخلص من كل من اطلع على سرها واحداً بعد الآخر، بادئة بابن دواس، وبالطريقة نفسها التي اتبعتها مع شقيقها الحاكم بأمر الله لتبقى بعيدة عن الشبهة، حيث كلفت الخادم نسيم صاحب الستر ليقف بين يدي ابن دواس ويقول للعبيد: يا عبيد. مولاتنا تقول لكم، هذا قاتل مولانا الحاكم بأمر الله، فاقتلوه. فما إن سمعوا ذلك من نسيم الخادم حتى قطعوا بسيوفهم رؤوس ابن دواس والعبدين اللذين نفذا قتل الحاكم بأمر الله[3].

ثم تخلصت من خطير الملك عمار بن محمد، الذي كان يتولى ديوان

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٩٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/٣٠٥،
ابن خلدون: العبر...، ٤/٦١،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١١٥ ـ ١١٧،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٨٥ ـ ١٨٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/٣٠٧،
ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/١٠ ـ ١١،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٢٧ ـ ١٢٨،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٩١ ـ ١٩٢.

الإنشاء، وحلقة الاتصال بين الخلافة والمشارقة والاتراك[1]. وتخلصت بعده من بدر الدولة أبي الفتوح موسى بن الحسن بعدما تولى رئاسة المشارقة عن خطير الملك، وذلك بسجنه ثم قتله[2]. ولم تزل تعمل الحيلة بعد الأخرى، حتى تمكنت من قتل أمير الأمراء، عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الوحيدي، والي حلب بتحريض خادمه «بدر» عليه، لعصيانه، وضرب السكة باسمه[3]. فتوطدت لها الأمور، وأخذت البيعة للظاهر لإعزاز دين الله ابن شقيقها الحاكم بأمر الله. ثم جمعت عامة أهل مصر، وخطبت فيهم واعدة بالمعاملة الحسنة، طالبة إليهم التقدم منها بكل ما يحتاجون إليه في أي وقت، وعدم التأخر في مراجعتها إذا نالهم أذى أو لحق بهم ضرر من عامل أو ناظر ليتم رفعه بما تقتضيه السياسة العادلة، كما سمحت للنساء بالخروج من منازلهن والتصرف في أمورهن بعدما منعن من ذلك منذ سبع سنين وسبعة أشهر. واسترجعت إقطاعات كان شقيقها قد أقطعها، واستعادت جواهر كان قد وهبها[4].

ولما مرضت ويئست من نفسها، أحضرت ابن أخيها الظاهر لإعزاز دين الله، وقالت له: قد علمت ما عاملتك به، وأقله حراسة نفسك من أبيك، فإنه لو تمكن منك لقتلك. وما تركت لك أحداً تخافه... فبكى بين يديها هو ووالدته، وسلمت إليهما مفاتيح الخزائن وأوصتهما بما أرادت، ثم توفيت بعد ثلاثة أيام[5]. وكانت قد أمضت بتدبير شؤون الدولة أربع سنين[6].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/١٢٩.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٢٩ ـ ١٣٠،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٩٤ ـ ١٩٥.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٢٦.

(٥) المصدر السابق: ٢/١١٦ ـ ١١٧،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٩٣ ـ ١٩٤.

(٦) ابن خلدون: العبر...، ٤/٦١.

ولم تنحصر تدخلات النساء في شؤون الخلافة على ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله، والأمة السوداء والدة المستنصر بالله، بل شمل هذا التدخل عمتين للخليفة الفائز بنصر الله، إذ إنتقلت كفالة هذا الخليفة، بحكم توليه الخلافة صغيراً (تولى الخلافة في سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م. وله من العمر خمس سنين) من عمته الكبرى بعد مقتلها على يد الوزير طلائع بن رزيك[١] إلى عمته الصغرى، التي كانت قد استنجدت به شقيقة الخليفة الظافر بأمر الله مع نساء القصر بعد القيام بقتل الخليفة من قبل نصر بن عباس وإقامة ابنه الفائز بنصر الله مكانه. فبذلت الأموال الكثيرة لإفرنج عسقلان بعد مكاتبة، إذا هم أمسكوا بعباس وولده نصر، تاركة لهم جميع ما معهما على أن يبعثوا بهما إلى القاهرة.

إلا أن عباس قاتل الفرنج لما أدركوه وقتل، بينما أسر ابنه نصر، وأرسل في قفص من حديد إلى القاهرة، حيث خرج الناس عند وصوله إليها ليروه. فبالغوا في سبه ولعنه، وبصقوا في وجهه حتى أدخل إلى القصر، فضرب بالسياط، ومثلوا به ثم صلبوه على باب زويله، وبعد مدة أنزلوه ليحرقوه[٢]. ويورد المقريزي خبر قتله[٣] «قتله الجواري نخساً بالمسالّ وصفعاً بالنعال، وقطعوا لحمه، واشتووه وأطعموه إياه حتى مات، ثم أخرج وصلب على باب زويله وأحرق بعد ذلك».

ولما شعرت عمة الفائز بنصر الله، بمضايقة ابي الغارات طلائع بن رزيك لأهل القصر، رتبت له من أغرته بالمال ليقتله: فلما دخل دهليز القصر أثخنه بالسيوف جراحاً، لكنه علم قبل وفاته بأن هذا من تدبيرها فعمل على قتلها، وانتقلت الكفالة إلى العمة الصغرى[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٧٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٤٩٣، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٢٢١.

(٤) ابن خلدون: العبر...، ٤/ ٧٦.

الفصل الثاني

الأحوال المعيشية

أولاً: الأجور والرواتب

ثانياً: النقود وقيمتها الشرائية

ثالثاً: أسعار المواد الغذائية

رابعاً: الأحوال المعيشية

عرفت الحياة المعيشية بمصر الفاطمية تقلبات كثيرة من ارتفاع، وانخفاض، وبحبوحة وشح، وغنى وفقر، وعسر ويسر، بسبب سوء الأوضاع الإدارية والاجتماعية والمالية آنذاك، والتي لعبت دوراً كبيراً في إيجاد فوارق اجتماعية بين أبناء الشعب المصري، فنكبت الطبقة الدنيا بقلة الأقوات وانتشار الأمراض وبوار المواسم الزراعية إلى جانب احتكار الغلات. وتلاعب المحتكرون بالأسعار في غفلة من أصحاب الأمر والنهي لا بل أحياناً في مشاركة الدولة للمحتكرين ومساهمتها في احتكار المواد الغذائية، وبيعها للناس بأغلى الأثمان عند ارتفاع الأسعار مع ندرة البضاعة. كان وما يزال وراء احتكار التجار الجشع والوصول إلى الثروة بسرعة. وكان الخلفاء بدورهم تجاراً بسبب أو بآخر، فقد احتكروا الحبوب وبعض المواد الأخرى للغاية نفسها، وللظهور أمام الناس بمظهر من يشفق ويعطف عليهم عندما يأمرون بإنزال الغلال إلى الأسواق، بينما كانت الغاية في الأساس، الاتّجار وجني الأرباح واستغلال جهل الشعب والتحكم به إلى أبعد مدى ممكن.

ومن العوامل التي كان لها كبير أثر في ظهور الفوارق الاجتماعية بين طبقات المجتمع المصري، فساد الإدارة، وتحكم الوزراء بشؤون الحكم، فانعكست أثارها على الشعب المغلوب على أمره. ومن الأدلة على فساد الإدارة، اضطرار الخليفة المستنصر بالله إلى تلزيم المناصب الإدارية الكبرى، لمن يستطيع دفع الأموال بصرف النظر عن الكفاءة والأهلية لتولي المناصب إثر الشدة التي أصابت البلاد وأفقرتها، حتى جلس الخليفة نفسه على حصير، لا قوت عنده سوى ما كانت تبعث به إليه إحدى السيدات الشريفات الثريات[١].

كما انساق المستنصر بالله وراء الضغوطات التي مارسها عليه بعض

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٦٠ و ٥٧.

المتطفلين الذين نالوا حظوته، فجعلوه يقدم على خطوة تغيير الوزراء بسرعة[1]، مما أضعف قدرة الوزراء على تدبير الأمور لقصر المدة، ولم يؤل مصير البلاد إلى هذه الحالة إلا لأن أصحاب الحظوة، كانوا يبيعون المناصب الوزارية لمن يدفع لهم أكثر، وذلك بموافقة الخليفة ومشاركته، بسبب حاجته إلى المال.

وإذا دفع صاحب المنصب مبلغاً من المال، فإنما يدفعه أملاً في الحصول على أضعافه، فوصل إلى الإدارة أشخاص لا همّ لهم سوى الكسب واستعادة ما دفعوه أضعافاً مضاعفة بزيادة قيمة الضرائب، وفرض الجديد منها، وتحصيلها بالإكراه، وحتى باللجوء إلى المصادرة وأحياناً القتل. واعتمد في الدواوين قبول الزيادات، وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن رسا عليه الضمان سابقاً - رغم ما يكون قد بذل في إصلاح ما يجب إصلاحه - ورفع يده عنها وتسليمها إلى باذلي الزيادة من غير كلفة وَتعَبَ. لكن في أواخر أيام الدولة الفاطمية أدرك المأمون البطائحي وزير الآمر بأحكام الله حقيقة الأمر، فأصدر منشوره الشهير بإلغاء ما كان يعتمد، والإبقاء على ضمان الضامن، وعدم قبول زيادة عليه، ما دام مؤدياً لإقساط ضمانه، ولما يلزمه من ذلك مبدياً، وللحق متبعاً[2].

واستشرى الفساد في الدور الثاني من تاريخ الدولة الفاطمية السياسي، فعمد الوزير طلائع بن رزيك، بعدما أصبح السيد المطلق في القاهرة، وتقلد جميع الأمور، إلى بيع الولايات للأمراء، جاعلاً لكل ولاية سعراً محدداً، ومدة معينة (ستة أشهر)[3] طمعاً في جمع ثروة كبيرة تمكنه من تحقيق غاياته للانفراد في الحكم دون الخليفة الصغير، حتى جعل لنفسه مجلساً على غرار مجالس الخلفاء في أكثر الليالي يحضره أهل الأدب. ولذلك ضايق أهل

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٦٠ و ٥٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٨٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣١٣.

القصر، وأتعب الناس بتحميلهم أعباء مالية زائدة بسبب زيادة بدل إيجار الأراضي كل سنة، لا بل كل ستة أشهر بتغيير العامل أو الملتزم. فتركت الأراضي إزاء هذه الأوضاع أحياناً كثيرة بوراً، وهاجر الناس من الريف إلى مصر - القاهرة، فنتج عن هذه الهجرة السكانية أعباء مالية واقتصادية واجتماعية جديدة كان على الدولة المفكّكة أن تواجهها لانتشار الفقراء في أحيائها وشوارعها. ولما لم يلقوا العناية والمساعدة، تطاولت أيدي بعضهم إلى الاستجداء وأحياناً اللصوصية، فتفاقمت الأوضاع اختلاطاً وأحدقت بالمجتمع الأخطار، وساءت الأوضاع كثيراً بسبب ارتفاع الأسعار، لزيادة الطلب، وقلّة العرض، فانتشرت المجاعات والأوبئة.

ومن العوامل المساعدة أيضاً، تبدل الأوضاع المالية كثيراً، وتقلب الاسعار لا سيما أسعار العملات، حتى غدت عامل اضطراب بدل أن تكون عامل استقرار. فكثيراً ما زيدت كمية النقد المتداول في الاسواق، حتى هبطت قيمته الشرائية، بالإضافة إلى التلاعب بكمية الذهب في النقود المتداولة، أو استبدال الذهب في النقود، بمعادن أخرى رخيصة كالفضة أو النحاس مثلاً. فتعطى النقود المتداولة من هذه المعادن قيمة تجارية تفوق قيمتها الحقيقية، وهو ما حصل عند استعمال الفلوس. وفي جميع الحالات، كانت الدولة هي المستفيدة من تضخم الأموال وارتفاع الأسعار والتلاعب بأوزان النقود، واستبدالها بنقود فضيّة أو ورقية أحياناً.

وبعد هل كان الشعب المصري في ظل الحكم الفاطمي يعيش على مستوى واحد من الفقر والغنى؟ أم كانت هناك فوارق بين طبقات هذا الشعب؟

وللجواب على هذين التساؤلين، يجب معرفة مقدار الأجور والرواتب التي كان يتقاضاها الموظفون في الدولة. وهل هذه الاجور والرواتب عينية أم نقدية؟ وإذا كانت نقدية، ما هي القيمة الشرائية لهذه النقود؟ أيستطيع الموظف البسيط من الدرجة الاخيرة تأمين الحد الأدنى اللائق به وبعائلته

من وراء الراتب الذي كان يتقاضاه؟ أم أنه يلجأ إلى وسائل أخرى إن استطاع ليعيش مع أولاده؟!

وبعد، فما هي أسعار السلع والمواد الغذائية؟ وهل هذه الأسعار مرتفعة أم عادية وفي متناول الجميع؟ أم أن ارتفاع الأثمان وانخفاضها يخضعان لعوامل طبيعية، وظروف استثنائية سرعان ما تتغير لتعود إلى سابق عهدها؟ وأخيراً ما هي مظاهر هذا التمايز؟!

سوف نحاول الإجابة عن هذه التساؤلات بدراستنا للمواضيع التالية:

١) الأجور والرواتب.

٢) النقود وقيمتها الشرائية.

٣) أسعار السلع والمواد الغذائية.

أولاً ـ الأجور والرواتب:[١]

اختلفت الأجور والرواتب باختلاف الرتب والوظائف التي شغلها الأشخاص. فقد كانت رواتب الفئات الثلاث الأولى اغلب الاحيان عالية، ولم تكن مداخيلهم تقتصر على رواتبهم، لأن الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لإخوة الوزراء وأولادهم وحاشيتهم، بالإضافة إلى الإقطاعات وما كان يدفع لهم في المواسم من الهدايا، وما يخلع عليهم من الخلع في الأعياد، وما يوزع عليهم من الكسوة الصيفية والشتوية، وما يقدم إليهم من جرايات اللحم والتوابل وغيرها من المواد الغذائية، عدا بعض الأنواع الأخرى التي تقدم إليهم بأسعار رمزية، مثلاً على ذلك: سلة الفاكهة بدينار، وعشرة أرطال الشمع بدينار، ونصف حمل البطيخ بدينار أيضاً[٢]. وربما وصل

---

(١) أيوب: ابراهيم يستحسن مراجعة: «التاريخ الفاطمي السياسي» ديوان الرواتب.

(٢) زيدان: التمدن الإسلامي، ١٤١/٢.

راتب الوزير مع ملحقاته إلى مائة ألف دينار في السنة[1] وراتب قاضي القضاة ألف ومائتي دينار (١٢٠٠) سنوياً عدا المؤونة والهدايا وخلافها، ومثلها رواتب صاحب الباب وصاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات.

أما رواتب أصحاب الفئات الأخرى من الموظفين، كالحاشية، وأرباب الخدم والكتاب والفراشين والجوق والمؤذنين والخياطين والرفائين وصبيان بيت المال وبعض أرباب الرواتب المستقرة من ذوي النسب والبيوتات، فتكاد لا تقيهم الجوع في الأيام العادية، وذلك لتقلبات الأسعار وارتفاعها من حين لآخر تبعاً لعوامل طبيعية واقتصادية، فشاعت الرشوة وانتشر البرطيل. ومن هذا الباب يحدثنا الكندي أن بعض أصحاب المناصب عُرفوا «... بقلة الأمانة، وظهور الخياة ورقة الدين واغتصاب مال المسلمين، والارتشاء على الحكم وغير ذلك من القبائح»[2]. واستطاع بعضهم من وراء ذلك أن يجمع ثروة كبيرة جداً. وليس أدل على ذلك من أن الخليفة الآمر بأحكام الله ظل في دور الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي يحصي ثروته بعد وفاته وبين يديه الكتّاب يكتبون ما ينقل إلى القصر منها مدة أربعين يوماً...[3]، فتصور كم كانت ثروته!

ونسوق دليلاً آخر على ابتزاز أموال الشعب والدولة من قبل الموظفين صغاراً وكباراً، ما يذكره لنا المقريزي، من أمر الراهب أبي نجاح بن قنا الذي كتب الى الخليفة الآمر بأحكام الله رقعة يخبره فيها أن بعض الكتاب النصارى من الأقباط، قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها، وأن استعادتها منهم يملأ بيوت الأموال. فعينه الخليفة مشرفاً على الدواوين وكلفه أمر تحصيل الأموال المختلسة، وأمر بمساعدته على ما يخرجه من

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٠١، و ٢/ ٣.

(٢) مجيد طوبيا: معاشر القرعان لكم الملامان: مقالة منشورة في مجلة «العربي» ـ الكويت، العدد ٢٦٧ شباط ١٩٨١، ١٠٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٦٩.

الحسابات، وتسهيل مهامه. فحصّل أموالاً كثيرة للدولة من الكتاب النصارى الذين كانوا قد جمعوها بطرق غير مشروعة وأعادها للدولة أولاً فأولاً، فلقب بـ«الأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء وسيد الرؤساء».

يبدو من سياق كلام المقريزي أن هذا الراهب لم يكن قديساً بالمعنى الذي أُسبغ عليه، لأنه كان وصولياً يحب المجد والشهرة والسلطة، فتقرب من الخليفة من هذه الزاوية التي كانت متفشية آنذاك وحتى يصدق في أقواله اتهم الكتّاب النصارى فقط في اختلاس الأموال، بينما غالبية الموظفين والوزراء كانوا كذلك، وليس أدل على ما ذهبنا إليه مما قام به الراهب بعد ذلك من مصادرة عمال الدواوين من المشارفين والضامنين والعمال المسلمين أنفسهم[1].

وعندما فرضت ضرائب (الخوة) على السباحة في مياه النيل، ومنعت قوارب النجدة من إنقاذ طالب الخلاص، إذا لم يكن قد دفع سلفاً دينارين ونصف الدينار بطلب من متولي الصناعة محمد الحسيني والعجمي[2]. اضطر الظاهر لإعزاز دين الله إلى إصدار أوامره بإلغاء مثل هذه الضريبة، ومنع أخذ درهم واحد عن النزول إلى النيل، وفرض إنقاذ من يجب إنقاذه دونما مقابل.

ومن ضروب الاحتيال لجمع المال، قيام السوقة (المتسكعين في الأسواق لطلب الحسنة وخلافها) والعامّة بالطواف في أسواق مصر بالطبول والأبواق، يجمعون من التجار والباعة ما ينفقونه في طريقهم إلى سجن يوسف[3]، فامتنع التجار عن الدفع وقالوا لهم: «شغلنا بعدم الأقوات

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) يقع سجن يوسف في بوصير من أعمال الجيزة، حيث قضى فيه على ما قيل مدة سبع سنين. يزار موضعه للتضرع واستجابة الطلبات والدعاء في جمادى الأولى من كل سنة. وفي مثل هذا الوقت يطوف السوقة على التجار يجمعون التبرعات ليتمكنوا من الوصول إليه وقضاء بعض الوقت ودفع النفقات.
المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٢٠٧.

يرفعنا عن هذا». فرفع السوقة والعامة عرض حالهم إلى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، الذي طلب إلى متولي الشرطة السفلى (أي شرطة مصر) إبْلاغ التجار وجوب دفع ما جرت العادة به من رسوم، وأذن لهم بالخروج إلى سجن يوسف، ووعدوا أن يطلق لهم الخليفة ضعف ما أطلق لهم في السنة الماضية من المساعدة والهبة[1].

أما والده الحاكم بأمر الله فقد منع من عادته الطواف في الأعياد والمناسبات بالأسواق لأخذ الهبات، من الرجّالة والبوّاقين (نافخي البوق)[2].

ومن الأجور المتدنية جداً، ما كان يتقاضاه السقاؤون الذين يعملون على سقاية الناس ورش المياه في الشوارع والطرقات، أمام موكب الخليفة قبل خروجه في الأعياد والمناسبات الأخرى. وهذه الأجور، وإن كانت زهيدة إنما تبقى أفضل من أن يشتغل هؤلاء بالسخرة مع جمالهم أو دوابهم وقربهم، كما يقول المقريزي في رش المياه ما بين مصر والقاهرة من قبل واليهما اللذين كانا يشغلانهم دون أي بدل أو تعويض[3].

تبقى هناك ظاهرة لا بدّ من الإشارة إليها، ألا وهي ظاهرة القروض، فالموظف الذي عاش في ضائقة مالية يصارع الحياة المعيشية ويكابد من ارتفاع الأسعار، لجأ أحياناً إلى الغش والبرطيل، كما أسلفنا، من أجل الحصول على ما يكفيه وعائلته نوائب الدهر. لكن بعض أصحاب الضمير الحي رأوا في الإقدام على مثل هذه الأمور ما يجردهم من الأمانة والصدق والإخلاص في العمل، فلجؤوا إلى طلب القروض. وإيماناً من الدولة بجدوى ذلك وتجاوباً مع رغبات أصحاب النوايا الحسنة والأخلاق السليمة في العمل، طلب الخليفة العزيز بالله إلى أمين بيت المال، وجوب درس

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ١٠٠ ـ ١٠١.

طلبات طالبي القروض المالية، وإعطاء المحتاجين منهم ما يحتاجون إليه. وتسهيلاً لهم في تسديد الدين اعتمد مبدأ تقسيط الدين حسب القدرة دون تعيين للقيمة أو تحديد للمدة. وارتأى الخليفة أيضاً ألا يطالب طالب القرض بوجوب دفع ما عليه إذا تبينّ أن حالته المادية لا تسمح حتى بدفع المبلغ على أقساط، كما احتفظ له بإمكانية طلب قرض ثان. أما إذا كان عدم الدفع، والتظاهر بمظهر الحاجة والفقر ناتجين عن الكذب والرياء فلا تستجاب طلباته الجديدة[1].

ولم يعان الموظف الصغير فقط، من الضائقة المالية، فالدولة عانت هي الأخرى من هذه الضائقات نفسها. وتحسباً لمواجهة ما عليها من أعباء مالية، لجأت إلى طلب القروض بكفالة كبار رجالاتها. فيحدثنا المقريزي عن سابقة من هذا النحو قائلاً:[2] «إن مظفر صاحب المظلة حمل إلى الحضرة، عشرة آلاف دينار قرضاً، واستدعى من الشريف أبي طالب العجمي، متولي الصناعة، عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) دينار قرضاً، فدافع (رفض أولاً) ثم أجاب إلى حمل خمسة آلاف دينار (٥,٠٠٠) بعد أن يضمن له أمر إعادتها إليه، فضمن له الشيخ نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ذلك، فحملها».

ثانياً ـ النقود وقيمتها الشرائية:

كانت هناك علاقة وثيقة بين الرواتب والأجور والأسعار والنقود، فكلما زادت الأجور والرواتب، ارتفعت الأسعار، وانخفضت قيمة النقود الشرائية. إلا أن زيادة الرواتب والأجور بسبب غلاء المعيشة لم تكن واردة، وإذا وجدت، فيكون ذلك بسبب انتقال الموظف من رتبة أدنى إلى رتبة أعلى، أو بحسب رضا الخليفة عليه. بينما عرف المصريون ارتفاعاً في

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٩٦.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٦٩.

الأسعار بأشكال جنونية وانخفاضاً في القيمة الشرائية للنقود، لا يعود في الأساس إلى كثرة العملة المتداولة، بل مرده إلى انعدام وجود السلع والمواد الغذائية في الأسواق لأسباب اقتصادية وطبيعية أحياناً كثيرة.

وكانت وحدة التعامل النقدي في العهد الفاطمي الدينار الذهبي. فكان لوزنه أهمية كبرى، إذ ارتبطت زيادة وزنه، بغنى الدولة واهتمامها بالعملة، فيزداد تعلق الشعب بها، وتتسع المنطقة التي يتداول فيها به. وعلى العكس، فإن انخفاض وزنه يدل على تأرجح حالة البلاد الاقتصادية، والإنذار بحصول كوارث طبيعية. هذا إذا لم تكن قد حصلت، فتضطر الدولة إلى إنقاص وزن الدينار للتقليل من نفقاتها.

وانعكست هذه الأمور سلباً أو إيجاباً على الأجور والرواتب. فانخفضت الرواتب، في الوقت الذي عمدت فيه الدولة الى زيادة الضرائب لتأمين تغطية النفقات الحاصلة على أثر اختلال حالة البلاد الاقتصادية. واستطراداً انخفضت قيمة النقود الشرائية، وبالتالي احجم التجار عن استعمال النقود الجديدة (المغشوشة) إلا مكرهين، كما حرص الناس على تخزين النقود القديمة (ذات الوزن الثقيل) وعدم استبدالها بالنقود الجديدة الا مكرهين أيضاً. فكانت الدولة في مثل هذه الحالة تلجأ الى إنذار الشعب باستبدال العملة القديمة بالعملة الجديدة في ضمن مدة معينة (ثلاثة أيام مثلاً) تحت طائلة العقوبة[1]. وقد استعملت الدنانير المغشوشة في العصر الفاطمي، عندما عمد المعز لدين الله الى وعد ابن دغفل بإعطائه مبلغاً من المال إن هو تخاذل في المعركة عن نصرة القرامطة في هجومهم على مصر وقد سدّد المبلغ الى ابن دغفل مغشوشاً، لوجود كمية كبيرة من الدنانير النحاسية بين الدنانير الذهبية[2].

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/٦٩.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٩٥.

استغل التجار فرصة اضطراب حالة البلاد اقتصادياً، فأقدموا على شراء الأشياء الكثيرة من قصور الخلفاء الفاطميين، وأحرقوها للحصول على ما فيها من الذهب والفضة. وذكر المقريزي[1]: «أنهم حرقوا من الثياب المنسوجة بالذهب والأمتعة من الستور والكلل والفرش والمظال والبنود والعماريات، والمجوقات والأجلة ومن السروج الذهب والفضة والآلات المجراة بالمينا، والمرصعة بالجوهر، شيء لا يمكن وصفه».

وتأتي أهمية الدنانير المتداولة تبعاً للوزن على نظام العيار الذهبي. وتكون العبرة في وزنها بالمثاقيل، فكل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم. وقيمة المثقال أربعة وعشرون قيراطاً، والقيراط يقدر بسبع حبات شعير من الشعير الوسط[2]. وتداول الناس دنانير غير مصرية كان يؤتى بها من بلاد الروم او الفرنج، وهي معلومة الأوزان، كل دينار منها بتسعة عشر قيراطاً ونصف من المصري. كما استعملت الدراهم السوداء، والنقرة والدرهم من الأخيرة يقدر بثلاثة من الدراهم السوداء. والفلوس غير المطبوعة على السكة والجدير بالذكر أن المعاملة بمصر ـ القاهرة اشتهرت بالدراهم السوداء التي كثيراً ما كانت تسبب خلافات بين البائعين والمشترين عند البيع أو الشراء بها لما ينتج عنها من خسارة لأحد الفريقين، بسبب الفارق في القيمة[3].

ثالثاً ـ أسعار المواد الغذائية:

لم يعرف المجتمع الفاطمي استقراراً في أسعار السلع والمواد الغذائية إلا نادراً، وذلك عند إقدام الدولة على وضع تعرفة بالأسعار في الأزمات التي

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠، Ashtor, Eliyahu: Histoire des prix et des salaires, Paris, 1969, P. 120.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٤٤٠ ـ ٤٤٣،
البراوي راشد: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٧. القاهرة ١٩٤٨م.

(٣) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٢٨.

تصيب البلاد. فما هي عوامل ارتفاع الأسعار؟ وهل كانت الدولة تتدخل لمعالجة هذه الناحية؟ إن الغلاء لم يهبط فجأة على المصريين، إنما هو استمرار في الارتفاع بسبب وقوع الاضطرابات وتعدد الفتن من أيام الاخشيديين لكثرة الحروب بين الجند والأمراء، فذهب خلق كثير ضحيتها، وانتهبت الأسواق، واحترقت مواضع عدة، وقلت الأقوات فارتفعت الأسعار[١] وكل ذلك قبل مجيء الفاطميين الى مصر. ويعد نهر النيل من أول العوامل التي تساعد في ارتفاع الأسعار او انخفاضها، إذ يلعب دوراً مهماً في حياة مصر الاقتصادية والاجتماعية. يقلق الناس إذا توقف او زاد قليلاً ويخزنون الغلال، ويمتنعون عن بيعها مخافة ارتفاع الأسعار، كما يعمل الموسرون منهم على شراء الحبوب وجمعها إما طلباً لارتفاع السعر، او لتوفير قوت عيالهم فينتج عن ذلك الغلاء. أما إذا وصل منسوبه الى المعدل، هبط السعر، وإلا كان الجدب والقحط، وهي عادة قديمة سار بموجبها الناس[٢].

وثمة عامل آخر ساهم في ارتفاع الأسعار، ألا وهو نشوء الفتن ونشوب الحرب بين طوائف الجند، أو بينهم وبين العمال، فكان انشغال الناس بالفتن والظلم عاملاً أقعدهم عن الزراعة والصناعة والتجارة بسبب فلتان الأمن، وظلم العمال والقواد للناس عند تحصيل الضرائب لحاجتهم الدائمة إلى المال[٣].

وعملت الدولة الفاطمية على معالجة أسباب ارتفاع الأسعار منذ سيطرتها على مصر. فأقدم جوهر الصقلي على التصدي لأسباب الغلاء بأن: ضرب

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة. ...، ص ٤٩.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٩٧ ـ ٩٨،
المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٧٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣١٣،
زيدان: التمدن الإسلامي، ٢/ ١٢٤.

جماعة من الطحانين وطيف بهم، وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد، وأمر ألا تباع الغلال إلا هناك فقط. ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة في الدخول والخروج. فكان لا يباع قدح[1] قمح الا ويقف عليه سليمان بن عرة المحتسب[2]. ويحدثنا المقريزي، نقلاً عن مؤرخ معاصر، هو الحسن بن زولاق: «أن المعز لدين الله منع النداء بزيادة النيل سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م. وأن لا يكتب بذلك الا اليه او إلى القائد جوهر الصقلي «في كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة»[3].

ولما اجتمع الناس سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م. بين القصرين واستغاثوا بالحاكم بأمر الله، وسألوه ان لا يهمل امرهم، وأن يجد حلاً لما أصابهم من جوع، ركب حماره وخرج من باب البحر، ووقف وقال: «أنا ماض الى جامع راشدة[4]، وأقسم بالله، لئن عدت فوجدت في الطريق موضعاً يطأه حماري، مكشوفاً من الغلة، لأضربن رقبة كل من يقال لي، إن عنده شيئاً منها، ولأحرقن داره وأنهبن ماله». وهو يقصد بذلك طبعاً التجار. ثم توجه وتأخر إلى آخر النهار. فلم يبق أحد من أهل مصر (الفسطاط) والقاهرة وعنده غلة، حتى حملها من بيته أو منزله ولقاها في الطرقات.

وأمر الحاكم بأمر الله، بما يحتاج إليه في كل يوم، وفرضه على أرباب الغلات بالنسيئة[5] وخيّرهم في أن يبيعوا بالسعر الذي يقرره بما فيه الفائدة المحتملة لهم، وبين ان يمتنعوا فيختم على غلاتهم، ولا يمكنهم من بيع

---

(١) القدح هو وحدة الكيل، وتبلغ زنته ماتين واثنتين وثلاثين درهماً من القمح.
انظر: «مكافحة الغش»، على الصفحة التالية.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٤٩.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٦١.

(٤) بناه الحاكم بأمر الله في سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٣م.، وسمّي بـ«جامع راشدة» لأنه بني في خطة راشدة. انظر صفحة ١٥٨ من هذا الكتاب.

(٥) بالنسيئة: أي بدفع الثمن فيما بعد.

شيء منها إلى حين دخول الغلة الجديدة. فاستجابوا لطلبه، وأطاعوا أمره، فانخفضت الأسعار[1].

١) مكافحة الغلاء وقمع الغش:

وحتى تعطي معالجة الدولة للأزمات الاقتصادية، التي كانت تتخبط بها البلاد، نتائجها المرجوة، أوجبت ضبط الموازين والمكاييل، بمؤسسة العيار. وفرضت شراء الموازين والمكاييل من تلك المؤسسة، على أن تخضع من وقت لآخر لإجراء كشف عليها من قبل المستخدمين بالمؤسسة، حتى إذا وجدوا: «سنجة زائدة أو ناقصة استهلكوها»[2].

وكان الرطل يعتبر وحدة الوزن في مصر ـ القاهرة، وهو يساوي مائة وأربعين درهماً (١٤٠) او اثنتي عشرة أوقية (١٢). كما كان يستعمل الـ«مَنْ» أحياناً، وهو نوع من انواع الأرطال، ويساوي مائة وستين درهماً، واعتبروه من أحسن أنواع الأرطال في مصر. واستعملوا الكيل الذي يساوي تسعة أرطال، وكان للأوزان الثقيلة وحدات كالقنطار او ما يساوي مائة رطل (١٠٠) والحملة وتساوي أيضاً ثلاثمائة رطل (٣٠٠) بالمصري[3].

وعلى غرار وحدات الأوزان، كانت هناك وحدات للكيل. فوحدة الكيل الأساسية كانت القدح، الذي تختلف قيمته من مكان لآخر، ويختلف تبعاً لذلك الاردب، الا ان القدح الشائع الاستعمال، هو قدح مصر (الفسطاط). وتبلغ زنته مائتين واثنين وثلاثين درهماً (٢٣٢) من القمح. وكان أكبر من القدح الويبة التي تساوي ستة عشر قدحاً (١٦). ثم يليها

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) ابن مماتي، شرف الدين: الدواوين، ٣٣٣ ـ ٣٣٤، مطبعة الوطن، مصر القاهرة، سنة ١٩٤٣م.

المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٦٤.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥ و ٤٦٥.

الاردب، ويساوي ستة وتسعين قدحاً (٩٦) او ست ويبات. كما استعمل في بعض النواحي الاردب الذي يساوي مائة وستة وسبعين قدحاً (١٧٦) أو إحدى عشرة ويبة[١]. واستعمل المصريون للحبوب والدقيق وحدات، الكيل، والحملة، والتليس.

وكانت المسافات تقاس بواسطة القصبة، التي تعتبر وحدة القياس. وتعرف بالقصبة الحاكمية، لأنها استُحدثت في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله، وطول هذه القصبة ستة أذرع (٦ أذرع)، على ان الذراع ست قبضات، والقبضة أربعة أصابع، وتقدر القصبة في الغالب بباعين من باع الرجل المعتدل الطول[٢].

ويبدو أن الباعة، لم يأتمروا بأوامر الدولة، فلم يخضعوا مكاييلهم وأوزانهم للكشف في مؤسسة العيار. ولما تناهى ذلك الى مسامع الدولة، كتب سجل قرئ في الأسواق بالنهي عن ذلك، وأعطي الباعة فرصة مدتها ثلاثة أيام. فمن وجد في نهايتها عنده سنجة أو كيل او ميزان، وفيها عيب، أو تبيَّن بأنه بخس الناس وغشهم حلّت به العقوبة كائناً من كان[٣].

٢) الأسواق:

وكانت الأسواق بمصر ـ القاهرة كثيرة ومنتشرة في جميع الأحياء (الحارات) ولا سيما بقصبة القاهرة، التي كانت تضيق بالباعة، فيجلسون

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥ و ٤٦٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٤٤٥ ـ ٤٤٧.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٨٠. ولمزيد من التفاصيل عن أنواع الأرطال وأقسامها وأوزانها، يراجع:

البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص: ٢٠٣ ـ ٢٠٤ والجدول البياني في الملاحق.

على الأرض في طول القصبة، ويعرضون أطباق الخبز[1] والمواد الغذائية والسلع الأخرى، وكثيراً ما كان والي القاهرة[2] يمنعهم من التبسيط في القصبة والشوارع الضيقة المتفرعة عنها لعرقلة السير فيها، واحتجاج أصحاب الحوانيت المستأجرة.

والجدير بالذكر أن مصر ـ القاهرة عرفت منذ أيام الفاطميين الأسواق المتخصصة بمعنى أنه كان لكل نوع من السلع سوق تجمع فيه الحوانيت التي تبيع البضائع المنتمية إلى فصيلة واحدة أو تؤدي خدمة واحدة. كما عرفت أيضاً الأسواق التي تشتمل على كل ما يحتاجه الإنسان تقريباً، أو ما يعرف اليوم بـ «السوبر ماركت».

وكانت الأسواق بمصر ـ القاهرة عبارة عن مجموعة من الحوانيت تتوزع فيها البضائع والمواد الغذائية في بناء واحد (القيسارية) وكانت أيضاً الدكاكين المتخصصة.

ومن هذه الأسواق المتخصصة نذكر على سبيل المثال لا الحصر: سوق الشرايحيين الذي سمّي، بعد الدولة الفاطمية، بسوق الشوّايين، وهو من أقدم أسواق الدولة الفاطمية في القاهرة حيث أنشىء سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦م[3]، وسوق الصيارفة والصاغة، وسوق الدجاجيين الذي كان يباع فيه الدجاج والأوز وسائر أنواع الطيور والعصافير: كالببغاوات والهزارات والشحارير والسمان وسائر ما يحتاجه المرء لتربية وصيد العصافير، وسوق الشماعين، وتبيع حوانيته الشموع الخاصة بالمواكب، والفوانيس والطوافات،

---

(١) ما تزال عادة عرض الخبز على أرصفة الطرقات في أطباق خشبية أو أقفاص من سعف النخل تعرض أمام واجهات المحلات مع الخضار، كالبطاطا والبصل والبندورة، جنباً إلى جنب. وقد زرت القاهرة صيف ١٩٧٥م. وشاهدت ذلك بأم العين. والناس تقلّب الخبز بأيديها كما تقلّب البطاطا!

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٩٥.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٠٠.

وسوق الرواسين حيث يباع[1]: الرؤوس والغنم والقوائم بعد تنظيفها، وكان يشتمل على اكثر من عشرين حانوتاً. وأسواق الجزارين والزياتين والجبّانين واللبّانين والخبّازين والطبّاخين والخضريين.

وقد زار ناصر خسرو[2] سوق الخضر بمصر فذكر اسماء الفواكه والخضار التي رآها فيه بقوله: «رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين، الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين .والريحان الملكي والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليلج (الاهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر».

وذكر المقريزي ان سوق الخضر هذا كان فيه حانوت لا يباع فيه الا حوائج المائدة من الخضر[3] كالبقول والكرات (مثل الثوم) والشمار والنعناع ... الخ.

وإلى جانب هذه الأسواق كانت هناك أسواق العطارين والخراطين والقشاشين والزجاجين والرفائين والفرائين والخياطين والامشاطيين. وحتى لبائعي البزورات خصصت أماكن، فكان سوق النقليين الذين يبيعون: الفستق واللوز والزبيب والجوز والبزورات (اللب) وخلافه. وسوق اللجميين الذي يباع فيه آلات اللجم، والركب، والسروج، والسيور (الأحزمة)، والمهاميز التي أفردت في حوانيت لبيع المهاميز المذهبة أو المطلية بالفضة. وسوق الحلاويين المعد لبيع ما يصنع من الحلويات بأشكال وأنواع مختلفة[4]. وسوق الكتبيين والحريريين والعنبريين والصناديقيين (النجارين

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٣٢.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٣.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٩٦.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٩٧ ـ ١٠٠.

اليوم)، حيث تباع فيه الصناديق والخزائن وسائر الأثاث مما يعمل من الخشب[1]. وسوق القناديل الذي كان يزخر بالتحف النادرة[2]. كما أفردت أسواق لبيع الرقيق، والجواري، وقد قال المقدسي، عن أسواق مصر[3] «يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته».

ويتوافد الناس الى الأسواق، من الأماكن البعيدة، وهم على ظهور الدواب وكذلك أصحاب الدكاكين. لذلك اتخذ بعض الأشخاص من ذلك وسيلة للعيش والكسب، فربطوا عدداً من الحمير، عند رأس كل شارع، وعليها برادع مزينة، ليكتريها من يريد، فيركبها الى حيث يقصد لقاء أجر زهيد، فبلغت البهائم المعدة لنقل أهل الأسواق وأصحاب الدكاكين يومياً، خمسين الف بهيمة (دابة) مسرجة تزين وتكرى[4].

ويختلف الى الأسواق جميع الناس تقريباً. حتى أن الجواري في قصور الخلفاء كن يذهبن في طائفة من الخدم، الى الأسواق، لشراء حاجياتهن، وعلى الأغلب الى دار الجوهر ودار الأنماط، فيشترين ما يحببن ثم يعدن كسائر الناس[5]. وأعتقد ان الحاكم بأمر الله ساءه ذهاب الجواري الى الأسواق، والتلاقي فيها بالرجال، لذلك أصدر أوامره بمنع ارتياد سوق الجواري الا لمن كان مشترياً او بائعاً ـ بحجة أن ذلك يؤخر عملية الشراء او البيع ويعرقل السير أحياناً لدخول هذا السوق بعض المتطفلين ـ وتخصيص يوم لبيع الجواري، ويوم آخر لبيع الغلمان، بحيث لا يتواجد من الجنسين في يوم واحد[6].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ٢/١٠٢.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٣.

(٣) المقدسي، شمس الدين محمد: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم. ص: ١٩٩، طبعة ليدن ١٩٠٦م.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٥.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٤٤.

(٦) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/٦١.

ودب الخوف والهلع في قلوب أهل الأسواق بعد أن اصدر الحاكم بأمر الله أوامره بمنع دخول أي من المكارين أصحاب الحمير، ولا من يركب معهم، راكباً من باب القاهرة، ولا يجلس أحد على باب الزهومة من التجار وغيرهم، ولا يمشي احد ملاصقاً القصر من باب الزهومة الى باب الزمود[1]. فطلبوا من الخليفة أماناً، فكتب لهم أكثر من مائة أمان اختص أهل الأسواق بمعظمها[2].

وكما تدخلت الدولة الفاطمية لقمع الغش، تدخلت في كل مرة ارتفع فيها السعر، لتحدد على الأقل اسعار المواد الغذائية، والسلع الأساسية وتمنع احتكار الحبوب والدقيق على ايدي كبار التجار. كما عادت الدولة عن المتاجرة بالغلال تخفيفاً عن وطأة المستهلك لتكون الأسعار واحدة وعامة[3].

لذلك لم يرضَ المعز لدين الله الفاطمي إلا ان تكون مشتريات القصر بسعر سائر الناس، فوقّع بيده الى محمد بن الحسين بن مهذب ـ صاحب بيت المال ـ «تقدم يا محمد بابتياع لنا ولمولاك عبدالله (ابن الخليفة) في كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا، وكذا، بسعر الناس، ولا تعرّف الرسول لئلا تقع محاباة ولا مسامحة، وكذلك حوائج المطبخ»[4].

وتسهيلاً لمهمة الزبائن، فقد كان التجّار في مصر من: بقالين وعطارين وبائعي خرضوات، يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون من زجاج او خزف او ورق، حتى لا يحتاج المشتري ان يحمل معه وعاء. وهؤلاء التّجار كما

---

(١) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٦١.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٢٢٥،
المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٥٣ ـ ٥٥.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦،

يقول ناصر خسرو[1] «يصدقون في كل ما يبيعونه، خوفاً من العقاب، لأن جزاء من يغش او يكذب على مشتر، الركوب فوق ظهر جمل، حاملاً بيده جرساً، ويطوف به في المدينة، وهو يدق الجرس وينادي، قائلاً: قد كذبت، وها أنا أعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب». لكن هذا العقاب لم يخف الجميع، إذ بقي هناك من لجأ إلى الكذب، وعرف بقلة الأمانة.

وإليكم جدولاً بيانياً ببعض المواد الغذائية وأثمانها في مصر ـ القاهرة في العصر الفاطمي:

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٥.

الخليفة	المواد الغذائية	الوزن أو الكمية	الثمن	السنة	ملاحظات
	الخبز	٤ رطل	١ درهم	٣٨٧ هـ .	
		« ٣	١ درهم قطع		
		١٢	١ درهم جديد	٣٩٧ هـ .	
		« ٦	١ درهم	-	
		« ١	١ درهم	٣٩٩ هـ .	إذا وجد المال ندر
		« ٢ ١/٢	١ درهم		وجود الخبز[1].
	الدقيق	الحملة الواحدة	١/٢ دينار	٣٩٧ هـ .	
		« «	٤ دينار	٣٩٩ هـ .	
	القمح	التليس	دينار إلا قيراط	٣٩٩ هـ.	بلغت الأسعار اقصاها
		«	٤ دنانير	٣٩٩ هـ .	في عهد الحاكم بأمر
	الشعير	١٠ ويبات	١ دينار	٣٨٧ هـ .	الله اثناء انخفاض
	اللحم «ضأن»	٢ رطل	١ درهم	٣٩٧ هـ .	مياه النيل عن
	« «بقر»	« ١ ١/٢	١ درهم	٣٩٧ هـ .	مستواها العادي،
	«	٤ أواق	١ درهم	٣٩٩ هـ .	وهو ستة عشر ذراعاً
					٣٩٩ هـ . وفيه خرج
	الأرز	الويبة	١ دينار	-	الخليفة يتهدد التجار
	السكر	١ رطل	٤ دراهم	-	بانزال اشد العقوبات
	الجبن	٨ أواق	١ درهم	-	بحق كل من يخفي
					الغلات.

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٧١ ـ ١٧٢،

المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٥١ ـ ٥٣.

Ashtor: Histoire des prix et des salaires dans l'orient medieval, Paris 1969, p. 131.

الخليفة	المواد الغذائية	الوزن أو الكمية	الثمن	السنة	ملاحظات
الظاهر لإعزاز دين الله	القمح	التليس	٣ دنانير	-	في أيام الظاهر
	الشعير	الأردب	١ دينار	-	لإعزاز دين الله،
					ندَرَ وجود الحيوان
	اللحم	١ رطل	٨ دراهم	-	وحتى الدجاج والفراريج
	الماء	١ راوية	٣ دراهم	-	والبيض فمنع من ذبح
	البطيخ	الواحدة	٣٠ درهماً	-	أبقار الفلاحةُ وقلما
					وجد من يشتري الثياب
					المعروضة بدرهم فما فوق
المستنصر بالله	الخبز	٤ رطل	١ درهم	-	فقدت المواد الغذائية
		٥ رطل	١ درهم	-	في أيام المستنصر
		١٠ "	١ درهم	-	بالله وخاصة اللحوم
		٢ "	١ درهم		حتى بيع الكلب
		الرغيف	١٥ ددينار	٤٥٧ هـ .	ليؤكل بخمسة
	الدقيق	الحملة	٤ ٢/٣ دنانير	-	دنانير
		التليس	٨ دنانير	٤٥٧ هـ .	
	القمح		٣ دنانير		
		الأردب	٨٠ ديناراً	٤٥٧ هـ .	
	اللحم	٤ أواق	١ درهم	-	
	الماء	راوية الجمل	٣ دراهم	-	
		راوية البغل	٢ درهم	-	
الآمر بأحكام الله	القمح	١٠٠ أردب	١٣٠ دينار	-	عرف الشعب المصري
	القمح	١٠٠ أردب	٣٠ دينار	-	ذلك بفضل تدابير
					الوزير المأمون البطائحي

الخليفة	المواد الغذائية	الوزن أو الكمية	الثمن	السنة	ملاحظات
الحافظ لدين الله	الخبز	٣ رطل	١ درهم	٥٣٦ هـ .	قلّ تواجد
	الدقيق	الحملة	١٥٠ درهماً	٥٣٦ هـ .	الدجاج
	القمح	الأردب	٩٠ درهماً	-	الفراريج .
	الشعير	الويبة	٧ دراهم	-	
	زيت الأكل	١ رطل	٧ دراهم	-	
	زيت الوقود	١ «	١١/٢ درهم	-	
	الجبن	١ «	٢ درهم	-	
	البيض	١٠٠ بيضة	٢٠ درهماً	-	
الفائز بنصر الله	القمح	الأردب	٥ دنانير	٥٤٩ هـ .	(١)

نستنتج من جداول الأسعار المبين أعلاه، أن مستوى المعيشة عند الفقراء كان متدنياً الى درجة البؤس والحرمان، بسبب اضطراب الأسعار ومتطلبات الحياة اليومية الغذائية للعائلة المؤلفة من خمسة إلى ستة اشخاص بما فيهم الأب والأم، لأن: راوية الماء بثلاثة دراهم، وثلاثة أرطال من الخبز بدرهم، ورطلاً من الجبن بدرهمين، وخمس بيضات بدرهم، وثلاث أواق من السكر بدرهم، وأربع أواق من اللحم بدرهم. فيكون مجموع ما تحتاج إليه العائلة المتوسطة العدد يومياً تسعة دراهم عدا بدل الإيجار للمسكن وثمن الملبس وغيره. وهذا ما يساوي تسعة اعشار مدخول العائلة من الطبقة الثالثة والفقيرة، إذا علمنا بأن غالبية الناس في المجتمع المصري كانت مداخيلهم اليومية لا تزيد على عشرة دراهم في الوقت الذي

(١) تمّ استخلاص السلع وأثمانها الواردة في الجدول أعلاه من: المقريزي، اتعاظ الحنفا، بأجزائه الثلاثة ومن إغاثة الأمة...

كانت فيه رواتبهم الشهرية لا تتعدى الـ ٣ الى ١٠ دنانير في الشهر[١].

فهل باستطاعة عائلة مدخولها اليومي، عشرة دراهم أن تشتري ولو بطيخة واحدة بثلاثة دنانير، او رمانة واحدة بدينار؟!، وحتى بثلاثين درهماً البطيخة، وثلاثة دراهم للرمانة الواحدة التي اعتبرت من الفواكه والخضار التي نظر إليها الفقراء بعيونهم واشتهوا مضغ قشورها، وهم لا يقدرون، ولا سيما في الأزمات التي كانت تصيب البلاد.

رابعاً ـ الأحوال المعيشية:

١) الطعام والشراب:

اعتنى الفاطميون عناية كبيرة، بإقامة الولائم والمآدب في جميع المناسبات والأعياد، ولا سيما في أول العام الهجري، والموالد (المولد النبوي ومولد الإمام علي وأولاده، الحسن والحسين وفاطمة الزهراء ومولد الإمام الحاضر). وعيدي الفطر والأضحى، فيشارك في تناول الأطعمة على الأسمطة الممدودة اكثر أهل مصر ـ القاهرة.

وكان يعمل خلال شهر رمضان ابتداء من اليوم الرابع إلى اليوم السادس والعشرين منه «سماط رمضان» فيدعى إليه كل ليلة جمعة قاضي القضاة، وفي الليالي الأخر، الأمراء على اختلاف مراتبهم، كل ليلة عدد منهم، فلا يحرم من هذا السماط أحد. ويتم الاستدعاء إلى هذا السماط بموجب لائحة تعد في بداءة كل رمضان، فتسلم إلى صاحب الباب واسفهسلاره، ليطلع عليها كل من المدعوين على تاريخ الليلة المدعو فيها إلى المشاركة، فلا يتأخر عن الحضور.

ويهتم بعمل هذ السماط الوزير أو أحد أولاده أو إخوته أو صاحب الباب، في حال غيابه أو غيابهم بالتواتر، ليكون مشرفاً على ترتيب الأطعمة

---

(١) انظر الجدول البياني لسلسلة الرتب والرواتب، في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وتنوعها. والفراشون يروحون ويجيئون، مستعدين لخدمة المدعوين، وحواشي الأستاذين، يحضرون الماء المبخر في كيزان الخزف (الفخار) ليشرب الحاضرون، وقد يصل من أطعمة السماط إلى أهل القاهرة عن طريق الحاضرين، إذ يحمل كل مدعو معه ما يكفي جماعة، كما يأخذ الوزير نصيباً وافراً من السحور الخاص بالخليفة[1].

كما اهتم الخلفاء الفاطميون بإعداد سماط عيد الفطر اهتماماً زائداً، حيث كان يقام ليلاً، في الديوان الكبير أمام الشباك الذي يجلس عليه الخليفة. وهو سماط ضخم يفرش على امتداد ثلاثمائة ذراع، وعرض سبعة أذرع، تزينه أصناف الفطائر والحلوى المصنوعة في دار الفطرة. وفور انتهاء الخليفة من صلاة الفجر وعودته إلى مجلسه يأتيه الوزير، فتفتح أبواب القصر ليدخل منها الناس إلى حيث السماط الممدود، فيتناولون منه ما شاؤوا، وهم يتدافعون لأكل ما طالت أيديهم أو إخفاء ما استطاعوا إليه سبيلاً في أكمامهم الواسعة، وذلك على مرأى من الخليفة ووزيره، حتى إذا فرغ من ذلك، وبزغت الشمس من وراء جبل المقطم، خرج الخليفة بموكبه من باب العيد للصلاة، وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحي، والعسكر في زيه من: الأتراك والديلم والعزيزية والأخشيدية والكافورية وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناقب الذهب، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة[2].

ويرجع الخليفة بعد صلاة العيد، إلى سرير الملك المعد له خصيصاً، قبالة باب المجلس في الرواق ليجلس عليه أمام مائدة من فضة يقال لها «المدورة» وعليها أواني فضية وذهبية وصينية، ملأى بأطيب الأطعمة وأشهاها من غير

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٥١.

خضروات سوى الدجاج الفائق المسمن المحضّر بالأمزجة الطيبة والنافعة. كما أعد في مواجهتها، سماط ضخم يعرف بالمحول (من الخشب المدهون)، طوله بطول القاعة وبعرض عشرة أذرع، وقد نثرت فوقه الأزهار والرياحين، وصفت الأطباق الملأى بالخراف المشوية أو الدجاج والفراريج، وفراخ الحمام، وزين بشرائح الحلوى الجافة والمائعة، فيجلس إليه نحو من خمسمائة رجل من رجالات الدولة وعظمائها، يستمرون في الأكل حتى يأتوا عليه، وقد يصيب أهل مصر ـ القاهرة من ذلك نصيب وافر أيضاً[(١)].

ولا تنحصر إقامة الموائد والأسمطة على الخلفاء، بل قد يقيم رجالات الدولة من الوزراء والأمراء موائد في دورهم يدعون إليها، الأهل والحاشية والخدم، إذ يخرج الوزير بعد صلاة الظهر إلى داره، وحوله الجماعة الحاضرة، وقد هيّأ سماطاً لأهله وحاشيته، ومن يعز عليه ولم يلحق بأيسر يسير من سماط الخليفة المذكور سابقاً[(٢)].

ويحتفل بعيد الأضحى، بركوب الخليفة إلى الصلاة، على النحو الذي ذكرته في صلاة عيد الفطر، وبعد الفراغ من الصلاة، يقام سماط ضخم في اليوم الأول من أيام العيد. ويمتاز سماط عيد الأضحى بأن الجميع يأكلون منه بينما سماط الفطر قد لا يأكل منه البعض (السنّة)، اعتقاداً منهم بأن وقت الإفطار لم يحن بعد. ويستمر ركوب الخليفة في الأيام الثلاثة المتوالية من أيام العيد. والشيء البارز في احتفالات عيد الأضحى مشاركة الخليفة بنفسه في إجراءات النحر، إذ كان الخليفة إذا صلّى صلاة العيد (عيد النحر) وخطب، ينحر بالمصلّى، ثم يأتي المنحر المذكور، وخلفه المؤذنون يجهرون بالتكبير، ويرفعون أصواتهم كلما نحر الخليفة شيئاً، وتكون الحربة في يد قاضي القضاة، وهو بجانب الخليفة ليناوله إياها. وذكر بأن الخليفة

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ١/ ٣٨٨.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٨.

قد يذبح بنفسه عدداً من الحيوانات حتى أحصي مرة أنه ذبح أحد وثلاثين بعيراً وناقة في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني سبعة وعشرين رأساً، وفي اليوم الثالث، ثلاثة وعشرين رأساً من البقر والنوق والضأن. وكالعادة يكون في كل مرة متشحاً بثوب أحمر اللون[١]، وفرشت في المنحر ملاءة دبيقي حمراء، وثلاث بطائن حمراء ليتقي بها الدم مع كون كل من الجزارين يحمل بيده مكبة مدهونة يلقي بها الدم عن الملاءة[٢].

وينحر أيضاً الوزير وإخوته وأولاده والأمراء في هذا العيد. والجدير بالذكر أن الناقة التي تنحر عقيب خطبة صلاة العيد، يوزع لحمها كهدايا، على الناس، للتبرك. أما بقية النوق المذبوحة، فيحمل منها إلى الوزير وأولاده وإخوته والأمراء والضيوف والأجناد المميزين من المشاة. ويتصدق منها في كل يوم على الضعفاء والمساكين بناقة واحدة من المذبوح يومياً، كما تحمل ناقة منحورة في اليوم الثالث، للفقراء في القرافة[٣].

وتبلغ نفقات سماطي الفطر والأضحى أربعة آلاف دينار، لكثرة ما يحضّر من ألوان الطعام الشهية، وشرائح الحلوى المحضرة بدار الفطرة، ومن ذلك قصران من حلوى في كل واحد سبعة عشر قنطاراً على الأقل. يحمل أحدهما إلى القصر عن طريق قصر الشوق إلى باب الذهب، والآخر يشق به بين القصرين، يحملهما الحمالون ليزينا صدر السماط وآخره. وقد لف القالبان القصران بأوراق الذهب، وتفنن الحلوانيون في تزيينهما بشخوص ناتئة، كأنها مسبوكة في قوالب لوحاً لوحاً. فتبعث شهية الناس على الأكل والاستزادة.

وتكون موائد الأعياد والافراح عامرة بألذ الأطعمة وأشهاها، بينما لا

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٥١٥ ـ ٥١٦ و ٥٢٧ ـ ٥٢٨،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٣٦.

(٢) المصدر السابق: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٣٦.

(٣) المصدر السابق: والصفحة نفسها.

تضم أسمطة يوم عاشوراء إلا ما يدل على الحزن والتقشف. فتصف فوق سماط الحزن (سماط عاشوراء) حوالى ألف زبدية (١٠٠٠ زبدية) من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان، والأعسال (عسل النحل) والفطير، والخبز المغير لونه قصداً أو خبز الشعير، فيأكل منه من يريد دون إكراه[١].

وإذا كان الخلفاء والوزراء والأمراء وأهل الحكم يأكلون هذه الألوان من الأطعمة، ويبالغون في الزينة وإنفاق الأموال الكثيرة في مآكلهم ومشاربهم، فليس معناه أن الفقراء يأكلون كذلك من هذه الأصناف. ويغلب، عادة على طعام الفقراء طابع الفقر، لذا تشمل مآدبهم في أفضل الحالات ما تشمله أسمطة الخلفاء بذكرى عاشوراء ليس أكثر، وإذا استطاع البعض أكل اللحوم المطبوخة أو المشوية والدجاج وبيضه واللبن ومشتقاته، فمرده إلى تربيتهم للحيوانات والطيور الداجنة، والتي إن باعوها للذبح اختصوا أنفسهم بجزء بسيط منها: كالرؤوس والقوائم والغمائم، وقلما يأكل فقراء المدينة اللحوم إلا في المناسبات والأعياد التي يقيمها الفاطميون حيث يتخاطفون المآكل والحلويات ويتندرون بعدها بمواسمها. هذا في أيام اليسر، أما في أيام العسر، فقد يموت الناس من الجوع ويتخاطفون العظام أو اللحوم الفاسدة من الكلاب، ويأكلون قشور الفواكه والخضر، وحتى الكلاب والبغال، وتوصلوا في النهاية إلى أكل لحوم بعضهم بعضاً في خلافة المستنصر بالله الفاطمي، إذا وصلت حالة الناس في مصر ـ القاهرة إلى أن تبيع امرأة موسرة من رعاياه عقدها الذي يساوي ألف دينار، وتشتري بثمنه رغيفاً من الخبز[٢].

ولم تنفع الدولة الفاطمية تجارتها في الغلات ولا الإهراءات المعدة لخزن

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٨.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٦١،
ابن اياس: بدائع الزهور، ١/ ٦١.

الحبوب لإبعاد شبح الجوع عن قصر الخلافة على الأقل، حتى تركه أولاده وحريمه هرباً من براثن الجوع التي كانت تودي يومياً بالمئات لا بل بالألوف من الجائعين العطاش.

وكما اعتنى الفاطميون بتحضير المآدب وإعداد الأسمطة، اعتنوا أيضاً بالشراب، فجعلوا له داراً خاصة (خزانة الشراب)، تولى حمايتها أحد كبار الاستاذين بإشراف ناظر وخدام (فراشين)، ومراقبة أطباء الخليفة (أطباء الخاص). فتحضر منها المعاجين والادوية، وماء الورد والبنفسج والمرسين، ولا سيما الدرياق الفاروق[1].

وبذلوا على التوابل أيضاً أموالاً كثيرة، مخصصين لها خزانة، سميت بـ «خزانة التوابل» لما يبعث استعمال التوابل مع الطعام من قابلية وشهية زائدة للأكل. فوصلت مخصصات هذه الخزانة إلى خمسين ألف دينار (٥٠,٠٠٠) في السنة بالإضافة إلى غيرها من البقولات المختلفة، ومن هذه الخزانة يتم توزيع: الند المثلث، والعود الصيني، والكافور، والمسك والعنبر والزعفران، وماء الورد مياومة ومشاهرة على الخاص الشريف، والمجلس الشريف، والحمام برسم بخوره في كل ليلة جمعة، عن أربع مرات في الشهر، وعلى السيدات والجهات والإخوة، وما يخصص لخزانة الشراب الخاص، وللمواكب الرسمية على مدار السنة[2].

وتفننوا في صناعة الحلويات، فكانت عبارة عن جامات ملأى بأنواع الحلوى الجافة والرطبة (الطرية) من الخشكنانج والبسندود[3] وأصناف السكريات، وشوابير الفستق واللوز والبندق والتمر وغيره. وذهب بهم

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٢٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٣) الخشكنان أو الخشكنانج، هو نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق (العجين) على شكل حلقة مجوفة يُملأ وسطها باللوز أو الفستق.

والبستندود أو البسندود، وهو فارسي الأصل، يصنع من الدقيق والبلح.

سخاؤهم وكرمهم على الموائد وفي الاحتفالات والمواكب، كل مذهب حتى تهادوا الزهور وتغنوا بها بأجمل الأشعار وأفضل القصائد وخير دليل على صحة ما نقول ما تفتقت به قرائح تميم بن المعز الفاطمي في وصف مجلس الخليفة العزيز بالله، وقد عُبّيء بأصناف العنبر والكافور والرياحين:

ومجلسٍ قد حَازَ من حُسنِهِ ... مثل الذي حَازَ من المَجْدِ
يضحكُ للتفاحِ نَارنجه ... ويَغمِزُ النَرجسُ للوردِ
وانتصَبَ الليمون من حَولِه ... مثل انتصابِ النُهدِ للنَهدِ
قَابَلَه وَجهَ إمام الهُدى ... فَلاحَ فيه قَمَرُ السَّعدِ
إذا اعتلَى العَنبر غنت لَه ... رَائحةُ الكافُورِ والنَّدُّ

ووجه يوماً إلى شقيقة الخليفة العزيز[1]

إني بَعثتُ بنفسجاً نَمّتْ به ... ريحُ كَريحِ المسك ظَلتْ تُفتَقُ
وَنَبات وردٍ كالخدُودِ إذا بَدَتْ ... وعقيق ماءِ الحسن فيه يُشرِقُ
وكأنّ ذا ياقوتُ عِقدِ أحْمَرٌ ... وكأنّ ذا ياقوتُ عِقدِ أزرقُ[2]

وقال ظافر الحداد يصف النرجس:

كأنما النرجس الطاقي حين بدا ... قعاب تَبرٍ على جامات بلور
كأنّ أوراقه والشمس تَصقُلها ... أوراقُ شمعٍ فمن خَامٍ ومقصور[3]

من هذا المنطلق أقاموا الحدائق والبساتين التي غرست بمختلف أنواع الزهور والرياحين ووظفوا من يعتني بها لتزيين القصور ودار الوزارة،

---

(١) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.، ص: ١٠٢.

(٢) المصدر السابق: ص: ٢٩٢.

(٣) ابن الحداد: أبو المنصور ظافر بن القاسم: ديوان ظافر الحداد، تحقيق حسين نصار (منشورات مكتبة ودار مصر للطباعة)، ١٩٦٩، ص: ١٤٦.

وسيدات الخاص وكافة الجهات، وتعبئة المناظر في أيام المواكب والاحتفالات، وتزيين الموائد[1].

ولكن، هل كانت جميع المآكل والمشارب مباحة؟ أم كان بعضها ممنوعاً على الرعية؟

ذهب بعض الخلفاء الفاطميين إلى حد حرمان متوسطي الحال والفقراء مما تجود به الطبيعة من حشائش قد تنبت على أثر المطر عند مجاري المياه والمستنقعات ومنعهم من زراعة بعض أنواع النباتات والخضراوات، وأكل أنواع محددة من الأسماك. فأصدر الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م. سجلاً منع بموجبه بيع الملوخية لاعتقاده بأنها كانت الأكلة المفضلة عند معاوية بن أبي سفيان. كما نهى عن أكل الجرجير الذي ينبت عند مجاري المياه والواحات، والسبب في منع الناس من أكله هو أكل عائشة له. وعن أكل المتوكلية المنسوبة إلى المتوكل على الله الخليفة العباسي[2]. ولم يكتف بهذه الأصناف، بل نهى عن أكل القرع أيضاً، وشدّد على الفلاّحين بعدم زراعة الملوخية والقرع بمواثيق أخذها عليهم[3].

وليس حرمان المصريين في العهد الفاطمي، من أكل هذه الأصناف من الأطعمة إلا لأن أبا بكر وعائشة، والخليفة المتوكل العباسي، كانوا يحبون أكلها. ولما كانت أكلة الملوخية هي الأكلة الشعبية عند المصريين، فقد خالف بعضهم أوامر الخليفة الذي كان يترك عيونه يتغلغلون في كل حي وشارع وبيت يتقصون الأخبار ويتجسسون على الناس، فألقي القبض على

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٢٢.

(٢) المتوكل على الله، أحد الخلفاء العباسيين الذين اشتهروا بعدائهم للعلويين، وأحد ثلاثة اضطهدوا أهل الذمة (عمر بن عبد العزيز، المتوكل على الله، والخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي)، وقد قام المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء، وما حوله، من المنازل والدور، وبحرث الأرض وبذرها وريها، ومنع الناس من المجيء إليه أو زيارته.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٥٣.

جماعة، كانوا يأكلون الملوخية، فضربوا بالسياط، وطيف بهم في الشوارع، ثم ضربت أعناقهم[1].

وتوسع الحاكم بأمر الله في تحريم بعض المآكل والمشارب، من ذلك أنه نهى عن شرب وبيع الفقاع[2] لأن علياً بن أبي طالب كان يكرهه، وعدّه الخليفة من المسكرات، والمزر المصنوع من القمح. ثم نهى عن أكل الدلنيس[3] لسبب بقي إلى الآن مجهولاً، وبعدها نهى عن أكل وبيع كافة أنواع السمك الذي لا قشر له. وحتى يكون المنع شاملاً والمانع خيراً، فقد أخذ الخليفة على السماكين عهداً، ألا يبيعوا هذا النوع من السمك، ومن خالف أوامره كان جزاءه القتل[4]، وربما كان منع أكل هذا النوع من السمك بإيعاز أو بتأثير من اليهود أوحي به للحاكم بأمر الله، لأن التوراة نصت على تحريم السمك الذي لا حرشف له (أي لا قشر له).

وشمل السجل الذي أصدره الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م. منع تربية الكلاب، فقتلت كلها، حتى خلت منها الأسواق والطرقات باستثناء كلاب الصيد[5]، وبيع الترمس لأنه يضر بالصحة، والسمك الذي لا فصوص له[6]. ونهى أيضاً عن ذبح البقر السليم وخاصة منها المعد

---

(١) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٦٤.

(٢) الفقّاع: شراب من الشعير، سمّي بذلك، (وهو بلون شراب الرمان) لما يرتفع في رأسه من الزبد.

الفيروز ابادي الشيخ مجد الدين بن يعقوب: القاموس المحيط، (دار الفكر) بيروت ١٩٧٨، ٣/ ٦٤

(٣) الدلنيس: وهو نوع من السمك الصغير الذي لا قشر له.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٢٩٣،

المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٨٦،

المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٦ ـ ٨٧.

(٥) يحيى بن سعيد: الذيل، ص: ١٨٨.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٢٩٣،

السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ١٥٢، ابن اياس: بدائع الزهور، ١/ ٥٢.

للحراثة، إلا في عيد الأضحى. ومنع سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م. بيع الزبيب، وطلب من التجّار عدم استيراده. ووزع جنده يفتشون أماكن وجوده، فجمعوا كميات كبيرة منه وأحرقوها. ومنع أيضاً في هذه السنة بيع العنب، وأرسل جنده إلى جزيرة الروضة، فقطعوا ما فيها من أشجار الكرمة، وألقوها للثيران فأكلت ما أكلته وما تبقى داستها. كما منع شراء أية كمية من العنب تزيد على أربعة أرطال دفعة واحدة، مخافة أن يصنع منه نبيذ.

وواصل الحاكم بأمر الله منعه لبعض أنواع الأطعمة والأشربة، حتى شملت ممنوعاته فيما شملت العسل، فأرسل رسله يجمعون جرار العسل، فجمعوا خمسة آلاف جرة (٥٠٠٠ جرة)[١] وألقي بها في النيل فأهرقت، كما أهرقت إحدى وخمسون زجاجة من عسل النحل. ومنع أيضاً بيع الرطب فجمعت منه مقادير كبيرة ثم أحرقت[٢].

وهذا ليس بكثير إذا عرفنا أنه أقلع عن إقامة الموائد، بعدما عنّ له الزهد على طريقة المسلمين الأولين، بالابتعاد عن شؤون الدنيا، والانزواء في الصحراء أو الجبل، فاقتصر في أكله وشربه وعلى ما يمكن أن يسد به جوعه وعطشه، وأمر بإغلاق مطبخه واكتفى بأكل ما ترسله إليه أمه من الطعام[٣].

٢) اللباس:

لبس الفاطميون، الأقبية والسراويل والطيالس والخفاف والعمائم بحنك وبغير حنك والقلانس. وكانت ألبستهم تختلف باختلاف مراتبهم وهي

---

(١) أعتقد هنا المقصود بجرار العسل، جرار الدبس المصنوع من العنب والدليل على صحة ما ذهبت إليه ذكره لعدد زجاجات عسل النحل بوضوح، ثم كثرة جرار عسل العنب المصنوع من العنب الوافر.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/٢٩٣،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٢٨٧.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية، ١/٨٣.

لذلك متنوعة: من الثياب الحريرية إلى القطنية، فالكتانية، والصوفية. فثياب الخلفاء والوزراء والأمراء، تكاد تكون واحدة باستثناء ما كان منها خاصاً بالمواكب، وهي إما من القلموني ذي الألوان البراقة التي تتلألأ إذا انكسرت عليهاه أشعة الشمس، أو القرقبي الذي اشتهر بألوانه اللامعة والتي تتغيّر إذا انعكست عليها أشعة الشمس أيضاً، والدبيقي الموشى والعمائم الشرب المذهبة. وهناك أيضاً، ما يعرف بالثياب النصفية المصنوعة من الحرير والقطن. والدراعة المشقوقة الصدر حتى الوسط والمزررة بأزرار، في حين اشتهر أهل اليسر والغنى من التجّار في القاهرة آنذاك بلبس ثياب واسعة وعمائم مدورة، وطيالس سابلة[1]. أما بقية الناس فلبسوا العمامة أو القلنسوة والدراعة أحياناً، والجبة أحياناً أخرى، والقميص والقباء والسراويل والنعال بأرجلهم. وغالبية هذه الألبسة من القطن أو الكتان والصوف، ونادراً ما تكون من الحرير الغالي الثمن.

وعلى العموم، فالألوان المفضلة عند الفاطميين في ألبستهم كانت: اللون الأخضر، والأبيض، والأحمر، وإن كان هناك بعض الألبسة الموشاة والموشحة القرمزية. أما اللون الأسود فكان غير مرغوب فيه مطلقاً عند الفاطميين، إلى حد أن قائدهم جوهر الصقلي إثر فتحه لمصر، لما رأى قاضيها حسين العجمي لابساً طيلساناً أسود انفعل فمزق ثياب القاضي بيده عندما جاء للسلام عليه، ثم خلع عليه بدلاً من طيلسانه[2].

وكانت ثياب الخلفاء والوزره والأمراء وسائر موظفي الدولة على اختلاف درجاتهم والخدم والحاشية ومن يلوذ بهم من صغير أو كبير ورفيع أو وضيع تصنع بدار الكسوة التي بناها المعز لدين الله الفاطمي، ليكسو بها

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٦١.

(٢) الطيلسان: كان لباس الفقهاء والعلماء والقضاة.

المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٣٢.

الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، حتى صار يسمى ذلك اليوم الذي توزع فيه الكسوات بعيد الحلل، لأن الحلل (الكسى او الكسوات) كانت تعم الجميع. وكانت الخلع الفاطمية على الأمراء، الثياب الدبيقية والعمائم بالطراز الذهب التي تساوي خمسمائة دينار (٥٠٠ دينار) واستبدلت العمائم بالنسبة لأكابر الأمراء، بالأطواق والاسورة والسيوف المحلاة واستعيض عنها أحياناً بالنسبة للوزير بعقد من الجوهر[١]..

وقد فصل المقريزي[٢] مخصصات الخليفة والوزراء والأمراء وسائر موظفي الدولة ونسائهم وأولادهم في الشتاء والصيف من الملابس المفصلة بدار الكسوة، وذكر أعدادها وقيمها، وخاصة كسوات الخليفة التي تعد للاحتفالات والمناسبات، وهي موشاة بخيوط الذهب والفضة، وتصل أثمان بعضها إلى خمسمائة دينار وبعضها الآخر إلى عشرة آلاف دينار (١٠,٠٠٠ دينار). وعددها إحدى عشرة قطعة تختص كل واحدة منها بمناسبة أو احتفال، كالاحتفال بآخر رمضان، وإقامة صلاة العيد، والجلوس على السماط في أول يوم من أيام عيد الفطر. وينال الوزراء حللاً مزركشة بالذهب في أول رمضان، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه واحتفال جبر الخليج. كما كان يخصص لأخي الخليفة من تلك الحلل. ويتم توزيع قِسْم من خلع دار الكسوة المصنوعة من الحرير أو المزركشة بالذهب على الأعيان من الأمراء، والشعراء والكتاب الحاضرين بالقاهرة في المناسبات[٣].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٠٩.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤١٠.

(٣) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

وتنقل ثياب الخليفة الخاصة بالاحتفالات والأعياد المصنوعة من دار الطراز بتنيس[1] أو غيرها لتحفظ في خزانة خاصة تتولى أمرها سيدة تنعت بـ «زين الخزان» يعاونها ثلاثون جارية، فلا يغيّر الخليفة ثيابه أبداً إلا عندها[2]، ولا يلبس إلا من هذه الخزانة. وبلغت كسوة الشتاء لعام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. من جميع الأصناف، أربعة عشر ألفاً وثلاثمائة وخمس قطع (١٤٣٠٥ قطع)، بموجب اللوائح التي أعدها ابن أبي الليث كاتب الدفتر آنذاك. وقد وزعت هذه الملابس على الجميع من أشراف وخاصة وعامّة على حد سواء عند حلول عيد رمضان، لأنه عندهم «الموسم الكبير» إذ فيه تعم الملابس الجميع، بينما توزع الخلع في المناسبات الأخرى على الخاصة من الأعيان، ومن ذلك، فقد أطلقوا على عيد الفطر (رمضان) تسمية جديدة، جاءت تعبيراً صادقاً لما يخالجهم من شعور بتلك المناسبة، ألا وهي: «عيد الحلل»، وقدم للخليفة فيه إحدى عشرة بدلة[3] من جملة الكسوات المذكورة أعلاه.

والطريف، أنه جرت العادة عند توزيع الكسوات على وجوه الدولة أن يكتب بكل كسوة رقعة للأمير. وقد حفظ لنا ابن منجب الصيرفي أنموذجاً عما جاء في هذه الرقع من إنشائه، أثناء توليه وظيفة «كاتب الإنشاء» في سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م.، وقد جاء في هذه الرقعة الانموذج[4]: «ولم يزل أمير المؤمنين منعماً بالرغائب، مولياً إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب. . . موصلاً إليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه. وإنك أيها الامير لأولاهم من ذلك بجسيمه، وأحراهم باستنشاق نسيمه. . .

---

(١) تنيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البرجا بين الفرما ودمياط، مشهورة بصنع الثياب الملونة والفرش البوقلمون.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢/ ٥٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٣.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤١٠.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٤١٢.

إذ كنت.. ممن أخلص في الطاعة سرّاً وجهراً، وحظي في خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفاً وسير له ذكراً. ولما أقبل هذا العيد السعيد، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم، ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه، وفي المواسم التي تجاريه، بكسوات على حسب منازلهم، تجمع بين الشرف والجمال، ولا يبقى بعدها مطمع للآمال، وكنت أخص الأمراء المقدمين...»[1].

وما تجدر الإشارة إليه بمناسبة الحديث عن الألبسة عند الفاطميين، أنه إلى جانب التأنق في الألبسة البراقة، المذهبة أو المفضضة، والموشاة، كانت تعلو جبين الخلفاء الجواهر الثمينة وتتدلى من أعناق النساء عقود الماس والمرمر والأحجار الكريمة الأخرى، وقد تضمخوا بالأطلية والمساحيق والعطور التي تنقي البشرة، وتحسن اللون، حتى أن مجالسهم كانت ترش بسائر أنواع العطور، وتبخر بالبخور تطهيراً لها. وقد ظهر للناس، الخليفة المعز لدين الله، بعد احتجابه «وقد لبس الحرير الأخضر وجعل اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب»[2].

وتلبس النساء أيضاً الحلل الحريرية المذهبة، وغير المذهبة الموشاة أيضاً، والمصنوعة بدار الطراز، وينتعلن الأخفاف ويتبرجن ويتطيبن ويعلقن بأعناقهن العقود الثمينة التي قد يساوي بعضها أكثر من ألف دينار[3].

كما أن الحاكم بأمر الله لم يتقيد كثيراً باللباس الخليفي المميز، فكان يكثر من الخروج، باللباس الأبيض بغير طرز، ولا ذهب، ويتعمم بفوطة، وفي رجله حذاء عربي بقبالين، إلى الجبل، وهو كما وصفه ابن العماد

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ١/ ٤١٢.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٧٤.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ٢/ ٦١،
Ashtor: Histoire des prix et des salaires, P.P. 151 - 153.

الحنبلي[1]: «كثير التنقل من حال إلى حال، ابتدأ أمره بالتزيّي بزي آبائه، وهو الثياب المذهبة الفاخرة والعمائم المنظومة بالجواهر والنفيسة وركوب السروج الثقيلة المصبوغة، ثم بدا له بعد ذلك، وتركه على تدريج بأن انتقل منه إلى المعلم غير المذهب، ثم زاد الأمر حتى لبس الصوف وركب الحمر». وفي حوالى عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. منع الحاكم بأمر الله الناس من تقبيل التراب بين يديه، ومن بوس اليد والارتماء والسجود له، ومن مخاطبته بمولانا. وربى شعره، وترك ركوب الخيل، وصار يركب الحمير بسرج ولجام حديدي، مختلطاً بالناس بلا مظلة وبلا طرّاد (حرس) بين يديه[2] وعليه ثياب صوف بيض، ثم سود، وفوطة زرقاء، وعمامة سوداء!!.

٣) المسكن:

منذ وطئت أقدام جوهر الصقلي أرض مصر، باشر في بناء مدينة القاهرة حسب ما أوصاه الخليفة المعز لدين الله. فجاءت القاهرة عند بنائها فريدة في البناء، وكأنها مدينة متنزهات، لأن بيوتها بنيت بعيدة بعضها عن بعض، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر، ومعظم العمارات فيها تتألف من خمس أو ست طبقات[3].

أما مدينة الفسطاط (مصر)، فكانت دورها تتألف من طبقات كثيرة تصل أحياناً إلى ثمان أو أكثر، حتى كأنها منائر أقيمت على أرض مدينة بدت للناظر إليها من بعيد جبلاً عالياً. وهي (أي الفسطاط) تمتاز بأن الطوابق الأرضية فيها لم تكن مسكونة، وأن البناية الواحدة قد تتسع لمائتين

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣/ ١٩٤.

(٢) يحيى بن سعيد: الذيل، ص: ١٢٢،

متز: الحضارة الإسلامية، ١/ ٨٤.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ٩٠.

من الناس[١]. في حين يقول ناصر خسرو[٢]: وتبدو مصر كأنها جبل حين ينظر إليها من بعيد. وبها بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات... وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائماً، لأن الضوء لا يصل إل أرضها ويسير فيها الناس».

وقضت إرادة الخليفة في البدء أن يشيّد كل من أفراد حاشيته بيتاً، في الوقت الذي اختطت فيه كل قبيلة لها خطة، ولم يعد بعدها من الجائز بناء الدور أو إقامة الخطط إلا ما يختص منها بالخلافة، وما يمكن أن يمنحه من إقطاع للقبائل أو الأمراء. حتى ذهب ناصر خسرو إلى القول: «ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه لنفسه».[٣]

وتزايدت أعداد البيوت التي كان يملكها الخليفة عند زيارة ناصر خسرو إلى البلاد المصرية في سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م.، بحيث بلغت في مصر والقاهرة ثمانية آلاف بيت[٤] يؤجرها للناس برغبتهم لقاء بدل يتراوح بين خمسة دنانير وخمسة عشر ديناراً شهرياً تحصل من المستأجر شهرياً أيضاً. وهذه أول خطوة لبناء المساكن من الدولة[٥]. ويقول خسرو[٦]: وحين كنت هناك أجّر منزل مساحته عشرون ذراعاً في اثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغربياً في الشهر. وهذا أكبر دليل على ارتفاع قيمة بدلات الإيجار آنذاك، وهو ما لا تستطيع إليه سبيلاً الفئة الرابعة من فئات الموظفين أو من

---

(١) ابن حوقل أبو القاسم محمد: صورة الأرض أو المسالك والممالك والمفاوز والمهالك... بيروت سنة ١٩٥٧م.
المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: ١٩٨.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠١.

(٣) المصدر السابق: ص: ٨٩.

(٤) المصدر نفسه: والصفحة نفسها،
Ashtor: Histoire des prix et des salaires, P.P. 190 - 191.

(٥) ماجد عبد المنعم: ظهور الفاطميين بمصر، ص: ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٦) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ٩١.

هم من الطبقة الثالثة الفقيرة بفئتيها. وبالطبع هذا ناتج عن قلة العرض وكثرة الطلب على بيوت السكن، وهي المسألة التي يعاني منها سكّان القاهرة اليوم.

وكان الخليفة الفاطمي يملك، ما لا يقل عن عشرين ألف دكان في القاهرة، حسب تقديرات ناصر خسرو[1]، يؤجر أكثرها بعشرة دنانير مغربية في الشهر، والقليل الباقي بدينارين في الشهر. كما يملك غيرها الكثير من الأربطة والحمامات والابنية الأخرى. إلى جانب ما يوجد بمصر من حجرات فيها، اتخذت كفنادق للاستغلال، بمساحة ثلاثين ذراعاً بثلاثين، قد تتسع إلى ثلاثمائة وخمسين شخصاً كل منها[2].

وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر لا من الجص والآجر والحجارة. واجتهد الناس لأن تكون بيوتهم بعيدة بعضها عن بعض، وحولها حديقة تقل أو تكبر بحسب ضخامة البناء، ومركز مالكه الاجتماعي والاقتصادي. ويحيط بالحديقة والبيت سور يحجب ساكني الدار عن أعين المتطفلين والفضوليين لارتفاع الأسوار عادة، وهو المبدأ الذي شيد على أساسه سور قصر الخلافة منذ بناه جوهر الصقلي[3].

وصاحب البيت حرفي إجراء أي تعديل على بيته من إصلاح أو هدم في أي وقت شاء. ذلك وأن البيوت بعيدة بعض عن بعض، فلا يتضايق الجار من جاره. وأتصور تخطيط القاهرة آنذاك بأنه كان من أجمل تخطيطات المدن الإسلامية في القرن الرابع الهجري، إذ قامت الدور والقصور وسط بساط أخضر من الأشجار والأزهار والورود في الحدائق التي قلّ نظيرها منذ ولع خمارويه بالبساتين والحدائق والطيور والحيوانات الأخرى والبرك الزئبقية وخلافها. فقامت على أسطح الدور في القاهرة والفسطاط (مصر)

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه: ص: ٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ص: ١٠١.

(٣) المصدر نفسه: ص: ٨٩.

الحدائق الغنّاء التي غرست بمختلف أنواع الأشجار والأزهار فصارت متنزهات، رفعت إليها المياه لريها.

وروى ناصر خسرو[1]: «أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار، وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى كبر، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر. وزرع على هذا السطح شجر النارنج والترنج والموز وغيرهما، وقد أثمرت كلها، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى. . .».

فمن أين يأتي الناس بمصر ـ القاهرة بمياه الشفة؟ يحدثنا عن ذلك الرحالة المقدسي فيقول:[2] كان أهل مصر يشربون ماء النيل، الذي يحمله الحمالون في الروايا، ويصعدون الدور، كل طبقة بنصف دانق[3].

وفي سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م. كان على السقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال، مملوءة بالماء، لئلا يصيب الماء الذي يتساقط منها ثياب الناس[4].

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠١.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: ٢٠٧.

(٣) الدانق أو الدانك وحدة من وحدات الوزن يساوي ٦/١ درهم أو ٦/١ دينار في كثير من الأحيان. ويساوي ٨ حبات من حبوب الشعير الوسط من وزن ٠,٠٤٨ غ على أساس وزن المثقال المصري ٤,٦٨ غ وهي ١/ ١٠٠ من المثقال. وبالتالي فالدانق يساوي: ٠,٣٨٤غ.
فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص: ٢٥ و ٢٩.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٧٥.
متز: الحضارة الإسلامية، ١/ ٢٧٥.

الفصل الثالث

مظاهر الثروة والأبهة في المجتمع

أولاً: مظاهر الثروة في المجتمع الفاطمي

ثانياً: مظاهر الأبهة

أولاً ـ مظاهر الثروة في المجتمع الفاطمي:

كان الفاطميون منذ نشأة دولتهم في المغرب مقلدين للحضارة العباسية، في جميع ميادينها، وساعين جهدهم إلى تقويض دعائم دولة العباسيين السياسية، باسطين هالة من القداسة على أنفسهم، منفقين الأموال بسخاء على بناء حاضرة لهم أرادوها سواء في المغرب أو في مصر، منافسة لبغداد في مجال الحضارة، ولا سيما في إنشاء القصور والمناظر والبساتين، وإقامة الشعائر الدينية وسط مظاهر العظمة الدالة عليها الولائم وموائد الفطر السعيد، والأضحى المبارك، والركوب في المواكب الفخمة، والتأنق في الملابس والمآكل والمشارب. وكل ذلك إن دلّ على شيء إنما يدل على مظاهر الثروة والرخاء التي كان يحياها الخلفاء الفاطميون، وهي في غالبيتها تقليد لما كان يقوم به العباسيون في عاصمتهم بغداد.

والثروة في مصر الفاطمية، كما في غيرها من العهود، كانت تتجمع بين أيدي الحكّام من الولاة والخلفاء وأهليهم، ومساعديهم من الوزراء وسائر رجال الدولة، في الوقت الذي كان يتخبط فيه الشعب المصري بضائقات مالية واقتصادية ـ اجتماعية، كانت تصيب البلاد من وقت لآخر بسبب فساد الادارة، وسوء توزيع الثروة، وعدم درء الخطر قبل حدوثه. من هنا جاءت الحاجة إلى معرفة الجهات التي امتلكت الثروة في المجتمع المصري في العهد الفاطمي، ووجوه إنفاقها.

١) ثروة الخلفاء وأهليهم:

منذ دخل المعز لدين الله الفاطمي الديار المصرية، أظهر للشعب المصري بعضاً من جوانب ثروته عندما سأله بعضهم عن حسبه ونسبه، فنثر عليهم ذهباً كثيراً وقال لهم: «هذا حسبي»[1]. وقد حمل معه من افريقيا عند مجيئه

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٨٢.

إلى مصر ثروة كبيرة. ألم يستدع سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م. أبا جعفر حسين بن مهذب، صاحب بيت المال وهو في قصره بالمغرب ـ قد جلس على صندوق من المال وبين يديه ألوف الصناديق المبعثرة ـ وقال له[(١)]: «هذه صناديق مال وقد شذ عني ترتيبها فانظرها ورتبها؟ قال صاحب بيت المال: فأخذت أجمعها إلى أن صارت مرتبة وبين يديّ جماعة من خدام بيت المال والفراشين. وأنفذت إلى الخليفة أعلمه، فأمر برفعها في الخزائن على ترتيبها، وأن يغلق عليها، وتختم بخاتمه، وقال: قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك، ففعلت. وكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف (٢٤ مليون دينار) فانفقت كلها على العساكر التي سارت مع جوهر الصقلي إلى فتح مصر.

ألم يبذل الفاطميون بسخاء على بناء القصور والمناظر والبساتين بكثرة؟ فمقتنيات القصور من أثاث وفرش وتحف وغيرها كانت تنطق بثروة كبيرة جمعها الفاطميون وتمتعوا بها. المعز لدين الله الفاطمي الذي كان يرتع في ظل ثروة دولته الكبيرة ويجلس على سرير من ذهب في قصر كبير زيّن بمختلف أنواع الفرش والأثاث تطلعَ إلى عمل خريطة للعالم المعروف آنذاك فصنعت له من الحرير الأزرق التستري القرقوبي، والمنسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير. وقد ظهر عليها صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها، وعليها صورة مكة والمدينة، وكُتبت أسماء المدن والجبال والأنهار والبحار بالذهب والفضة أو الحرير. وفي الأسفل التاريخ، وهو سنة ٣٥٣ هـ/ ٩٦٤ م.[(٢)]

وقد عمل كسوة للكعبة «شمسة» نصبها على الإيوان الكبير الذي جعله لعقد الجلسات الرسمية، فلم يبق أحد إلا وشاهدها. وذكر أصحاب الجوهر

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٢،

المقريزي: اتعاظ الحنفاء ١/ ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٧.

ووجوه التجّار أنها لا تُقدّر بثمن[1]. فقد تدلى من حافاتها اثنا عشر هلالاً ذهبياً، في كل هلال أترجّة ذهبية وفي كل منها خمسون درة بحجم بيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق. كما نقشت الآيات القرآنية التي نزلت في الحاج[2] بحروف من الزمرد الأخضر، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة[3]. فتأمل مظاهر هذه الثروة.

وتركت السيدة «رشيدة» ابنة المعز لدين الله حين ماتت سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م. أشياء تساوي ما قيمته مليون وسبعمائة ألف دينار (١,٧٠٠,٠٠٠ دينار) ـ تقريباً مليون وعشرون ألف جنيه مصري ـ في الوقت الذي تركت اختها «عبدة» وقد توفيت في السنة نفسها كثيراً من خزائن الحلى والصناديق التي تحوي اردباً من الزمرد، وألف وثلاثمائة قطعة فضية، وثلاثين ألف شقة (ثوب للصلاة) وأربعمائة سيف محلى بالذهب، ومن الجواهر ما لا تعرف قيمته، وأشياء كثيرة غيرها. حتى بلغت كمية الشمع المستخدمة في الختم على هذه الثروة أربعين رطلاً[4]. فإذا كانت هذه ثروة بنات الخليفة، فكم بالحرى تكون ثروة الخليفة؟!

وزادت رقعة دولة العزيز بالله على رقعة دولة والده. مما جعل ثروته تفوق ثروة أبيه لزيادة الخراج، وهذا ما مكنه من تحقيق هواياته في تربية الخيل والجارح من الطير وذهابه في رحلات صيد، واقتناء الجواهر. فجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان، وشغف باقتناء الديكة للسباق، واصطاد الضباع والسباع[5] واقتنى العمائم المحلاّة بخيوط

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٤٢.

(٢) القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣ والآية ٩٥، وسورة براءة ٩ والآية ٣.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ١/ ٤٤،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٥،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٩٣.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٣٧٣، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١١٣ و ١٢١.

الذهب، والسروج المعطرة بالعنبر، وجعل أسلحته مكفتة بالذهب أيضاً.

وأنشأ القصور والمناظر والجوامع ومنها قصر الذهب، وقصر البحر، وقصور أخرى في عين شمس، وأسس في سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م. الجامع المعروف بجامع الحاكم - الذي أتمه فيما بعد ابنه الحاكم بأمر الله - وجامع القرافة، وغيرها الكثير. وتدل هذه الأعمال وتلك المنشآت على غزارة ثروة العزيز بالله.

وأما ما خلفه الحاكم بأمر الله من المال «فشيء كثير»[١]، في الوقت الذي اتصف فيه بالكرم الزائد والسخاء غير المحدود في أوائل عهده بالخلافة، فكان مولعاً بحب الظهور. وهو لذلك، عندما سمع بخبر قدوم رسول امبراطور الروم إليه، أسرع بإعطاء أوامره في تزيين القصر. فأخرج الديباج المغرز بالذهب من الأكياس التي وصلت أعدادها إلى ثلاثمائة وواحد وثلاثين كيساً (٣٣١ كيساً). وفرش الإيوان الكبير بها وعلق بعضها على جدرانه، كما علق في صدر الإيوان العسجدة،وهي درقة من ذهب مكللة بفاخر الجوهر، يضيء لها ما حولها، إذا انعكست عليها الشمس، فلا تطيق العيون النظر إليها[٢].

وتركت ابنته «ست مصر» بعد موتها شيئاً كثيراً منه: نيفاً وثمانين زيراً صينياً مملوءة جميعاً مسكاً. ووجد لها جوهر نفيس، من جملته قطعة ياقوت زنتها عشرة مثاقيل[٣]. وكان إقطاعها في السنة خمسين ألف دينار (٥٠,٠٠٠ دينار)[٤].

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٥،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٩٢.

(٣) المثقال وحدة من وحدات الوزن. وكان وزنه الفعلي أربعة وعشرين قيراطاً، وكل قيراط ٠,١٩٥ غ. أو المثقال يعادل ٤,٦٨ غرامات.
فاتر هنتس: المكاييل والموازين الإسلامية، ص: ١٢.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٩٢.

بينما ماتت شقيقته «ست الملك» تاركة: ثماني جرّات ملأى بالمسك، وقطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل، ووصلت مخصصاتها السنوية إلى خمسين ألف دينار (٥٠,٠٠٠ دينار)[١].

واشتملت ثروة المستنصر بالله على كنوز ونفائس بأعدادها وقيمتها ثروات الخلفاء الذين سبقوه. وقد أمدنا كل من ابن ميسر والمقريزي بقوائم شملت تلك الكنوز التي أخرجت من القصر أثناء الشدة سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨ م. بعدما استولى الأتراك، الذين خرجوا عن طاعة الخليفة، على بعضها. وعرض بعضها الآخر للبيع فبيع بأبخس الأثمان. ومن ذلك صندوق من الزمرد يساوي ثلاثمائة ألف دينار بيع بخمسمائة دينار، وألف ومائتين من خواتم الذهب والفضة بفصوص من الجوهر المختلف الألوان والأنواع، حتى أن ثلاثة خواتم عليها فصوص، أحدها زمرد والاثنان الباقيان ياقوت سماقي ورماني بيعت باثني عشر الف دينار[٢]. وفيما أخرج أيضاً من القصر أكياس من الخيم والمضارب، والفازات والمسطحات والجركاوات والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط المعمولة من الدبيقي والمخمل والخسرواني والديباج. وتسعة آلاف سرج، يتراوح ثمن كل منها بين سبعة آلاف دينار وألف دينار، ومسبحة من الأحجار الكريمة تساوي أكثر من ثمانين ألف دينار بيعت بألفي دينار[٣].

وكان لدى المستنصر بالله أشياء غالية الثمن لأنها عزيزة على قلبه، فلا تقدر بثمن، من مثل سيفه الخاص، وسيف الخليفة المعز لدين الله، وسيف النبي محمد، وسيف الحسين بن علي، وسيف جعفر الصادق، عدا كميات كبيرة من الرماح والقسي، وغيرها مما بعث به البساسيري من بغداد عندما

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٥٨،

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٩٥.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٤.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٨.

أقام له الخطبة فيها سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م. وهي عبارة عن ثلاثين قطعة من البلور، وخمسة وسبعين ألف ثوب (٧٥,٠٠٠ ثوب) من الخسرواني، وعشرين ألف سيف (٢٠,٠٠٠ سيف) محلّ بالذهب. وأواني كثيرة من الذهب، وصواني محلاة بالذهب وأصص الزهر المنقوش عليها اسم هارون الرشيد، وثماني وعشرين صينية، قوّم كل منها بثلاثة آلاف دينار (٣,٠٠٠ دينار)، وقد أهداها امبراطور الروم إلى الخليفة العزيز بالله، وكثير من الصناديق الملأى بالمحابر المختلفة الأنواع والأحجام، والمصنوعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس، ومرصعة بالجوهر والأحجار الكريمة، فبلغت قيمة إحداها ألف دينار (١,٠٠٠ دينار)[١].

وليس هذا كل ما تركه المستنصر بالله. فقد شملت النفائس أيضاً، حصيرة منسوجة بالذهب، زنتها ثمانية عشر رطلا[٢]، كانت بوران بنت الوزير الحسن بن سهل جلست عليها يوم زفت إلى الخليفة العباسي المأمون، وهي من جملة ما أرسله البساسيري عند استيلائه على بغداد، وعدداً كبيراً من المرائي المصنوعة من الصلب والمحلاة بالذهب والفضة، وبعضها محلى بالأحجار الكريمة. وستة آلاف إناء (٦,٠٠٠ إناء) للنرجس، واثنين وعشرين ألف تمثال (٢٢,٠٠٠ تمثال) من العنبر، وثمانمائة تمثال (٨٠٠ تمثال) من الكافور على هيئة البطيخة، حفظت إحداها في شبكة من ذهب مرصع بالأحجار الكريمة، وزنتها ثلاثة آلاف مثقال[٣]. وآخر كان يزن ستة عشر ألف مثقال، ونخلة من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة، وثمرها

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ١/ ٤١٤ ـ ٤١٧.

(٢) فوزن الحصيرة ١٨ رطلاً أو ما يعادل ٨,١٠٠ كلغ على أساس وزن الأوقية ٣٧,٥ غراماً، والرطل دائماً ١٤٤ أوقية.
فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص: ١٩.

(٣) المثقال وحدة من وحدات قياس الوزن، ويساوي ٢٤ قيراطا، والقيراط ٠,١٩٥ غرام فيكون وزن المثقال ٤,٦٨ غرام أو (٧٢,٢٢٢ حبة).
فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص: ١٢.

كذلك. كما بيع طاووس من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة، وعيناه ياقوتتان، وريشه من الزجاج المموه بالذهب، وديك من الذهب مرصع باللؤلؤ، وطاولة قوائمها من العقيق[1].

تدل هذه الثروة الكبيرة على مدى تعلق الفاطميين بالظواهر وتمسكهم بمباهج الدنيا وحبهم للظهور والغنى، وعلى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية في خلافة المستنصر بالله من غنى، ولكن قبل سنة ٤٦٠ هـ /١٠٦٨ م. حين توزعت كل تلك الثروة بين من نهبها أو اشتراها من الأغنياء الجدد. ومهما أطلنا في تعدادها فلا نصل إلى ذكرها جمعاء، أو قد يضيق المجال عن ذكر جلها. وقد استحوذ الأتراك على معظمها، بالرغم من أن الخليفة كان يصرف رواتب هذه الفئة كاملة، حتى عندما لم يستطع ذلك، عمد إلى استكمال المبالغ باللجوء إلى عرض ممتلكاته للبيع بأبخس الاثمان (كما ذكرنا) للوفاء بما تعهد. حتى آل مصيره بعد ذلك، وبعدما انتهب القصر إلى أن يجلس عل حصيرة بالية لابساً قبقاباً[2].

ولم تستقر الأحوال، ويتنفس الخليفة الصعداء، وتعود الحياة إلى شرايين القصر إلا بعد أن أسندت مهام الوزارة إلى بدر الجمالي سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٤م. وأعطي صلاحيات استثنائية، فاسترجع بعض ما نهب من القصر، وصادر ممتلكات الأمراء الذين سلبوا الخليفة ممتلكاته بطرق ملتوية وبخاصة الأتراك حتى قال المقريزي: «ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق»[3]. ولكن ذلك الاستقرار كانت تشوبه من وقت لآخر بعض الشوائب التي يتسبب بها الوزراء الأقوياء ولا سيما من أرباب السيف، فيحجرون على الخليفة ويتسلطون على ثروته في القصور، ويستولون عليها.

وبالرغم من هذا فقد وجدت بعد وفاة العاضد لدين الله الفاطمي آخر

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٥.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٢٠٦.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٦.

خلفائهم أموال كثيرة[1]. ويقول ابن كثير[2]: «ومن جملة ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر وقضيب زمرد طوله أكثر من شبر، وسمكه نحو الإبهام، وحبل من الياقوت، وإبريق عظيم من الحجر المانع». وبعدما قسم صلاح الدين على نسائه، وبين الأمراء شيئاً كثيراً. وأرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد هدايا نفيسة، وإلى نور الدين في الشام جانباً كبيراً. باع ما زاد عن ذلك إلى أعيان التجّار، فاستمر البيع فيما بقي هنالك من الأثاث والأمتعة نحواً من عشر سنين.

٢) ثروة الوزراء ورجال الدولة الآخرين:

إذا كانت ثروة آخر خلفاء الفاطميين على مصر، بلغت ما بلغته من الضخامة والعظمة على تلك الصورة. أيعقل ألا يتماثل الوزراء بالخلفاء في اكتناز الأموال وجمع الجواهر، واقتناء أفخر الاثاث وأحسنه، والتزين بأجمل الملابس دلالة على العظمة والأبهة بعدما أصبح الوزراء يقيمون الخلفاء ويقعدونهم؟!

يؤكد لنا ذلك ما أهداه جوهر الصقلي، فاتح البلاد المصرية، إلى مولاه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، لما جلس على سرير الملك الذهب، والذي أقامه جوهر خصيصاً له أيضاً، إذ أهداه في جملة ما أهداه: مائة وخمسين فرساً مسرجة، ملجمة، بسروج ولجم من الذهب، والفضة والعنبر، وإحدى وثلاثين قبة على نوق بخاتي بالديباج والمناطق والفرش، منها تسعة بديباج مثقل، وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل، وثلاثة وثلاثين بغلاً منها سبعة مسرجة ملجمة، ومائة وثلاثين بغلاً للنقل، وتسعين نجيباً، وأربعة صناديق يرى ما فيها، وفيها أواني الذهب والفضة، ومائة سيف محلّى بالذهب والفضة، ودرجين من الفضة مخرقة فيها جوهر وشاشية مرصعة في

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٤٩٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٢٦٦.

غلاف، وتسعمائة ما بين آنية وتخت فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر. أما وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص (الصافي) في سرير الملك مائة وعشرة آلاف مثقاف (١١٠ آلاف مثقال)[1]. فمن أين أتى جوهر الصقلي بهذه الأموال إذا لم يكن قد استولى على أموال الأخشيديين وصادر أموال الأغنياء بمصر وأملاكهم، واختص لنفسه بالثروات، وسخرها كلها لإضفاء هالة العظمة حول المعز لدين الله.

وكان يعقوب بن كلس، أول وزراء الفاطميين، قد خلّف أملاكاً، وضياعاً، وقياسر، ورباعاً، وخيلاً، وبغالاً، ونوقاً وغير ذلك بما قيمته أربعة ملايين دينار. بالإضافة إلى ما أنفقه في تجهيز ابنته وهو مائتا ألف دينار، وترك أيضاً ثمانمائة حظيّة، سوى جواري الخدمة، وأربعة آلاف غلام، عرفوا بالطائفة الوزيرية. وكان من جملة أملاكه اقطاع في الشام يزيد دخله السنوي على الثلاثمائة ألف دينار (٣٠٠ ألف دينار)[2].

ولما ازداد استبداد برجوان، صاحب الوساطة (الوزارة) في عهد الحاكم بأمر الله، دبر الخليفة قتله، فوجد له تركة، عبارة عن: مائة منديل (عمامة) كلها شروب ملونة معممة على مائة شاشية (ما يلبس تحت العمامة) وألف من السراويل دبيقية بألف تكة حرير أرمني، ومن الثياب الكثير، والحلي والمصاغ والطيب والفرش، والصياغات الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة، وثلاثمائة وثلاثين ألف دينار (٣٣٠ ألف دينار) ومن الخيل الركابية مائة وخمسين فرساً، وخمسين بغلة ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٥،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٣٦.

(٢) ابن منجب الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص: ٢٣ و ٢٨،
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ٣٣،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٦ ـ ٨،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٦٩.

ثلاثمائة رأس ومائة وخمسين سرجاً منها عشرون ذهباً، ومن الكتب الشيء الكثير[1].

وازداد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي نفوذاً واستئثاراً بالمال، لضعف الخلفاء، وحتى صارت معظم أموال الدولة بحوزته، فجمع منها أموالاً طائلة، وأنغمس في أنواع الترف والبذخ، حتى صار يحاكي الخلفاء في ذلك إلى أن قتل، فأمر الخليفة الآمر بأحكام الله بنقل ثروته إلى دار الخلافة، وجعل لذلك من الكتّاب جماعة كبيرة، يقومون بإحصائها، فأمضوا أكثر من شهرين لتسجيل وإحصاء تلك الثروة التي كان الخليفة نفسه يشرف على نقلها إلى قصره، مقسماً وقته طوال تلك الفترة بين قصر الخلافة وقصر الوزير، فيقضي النصف الأول من النهار في المكان المخصص من قصر الخلافة لنقل الثروة إليه، ويقضي ما بقي من نهاره، تارة في دار الوزارة، وتارة أخرى في دار الملك التي أنشأها الأفضل سنة ٥٠١ هـ/ ١٠٧ م. لإجراء الترتيبات والتنظيمات اللازمة[2].

وذكر ابن ميسر أن ثروة الأفضل التي وجدت بعد وفاته كانت: ستة آلاف ألف دينار (٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار) عيناً، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار (٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار) وخمسين اردباً دراهم ورق، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير[3] ذهب، كل مسمار وزنه مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألوان، وتسعمائة ثوب ديباج ملونة، وخمسمائة صندوق من دق[4] دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه، ولعبة عنبر على قدر جسده، برسم ما يعمل

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ١/٥١ ـ ٥٢،
ابن منجب الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص: ٢٨.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ١/٥٦ ـ ٥٧،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٨٤.

(٣) مسامير جمع مسمار: وهو ما يعلق عليه الثياب، كالمشجب مثلاً.

(٤) دق: عبارة عن الثياب المصنوعة في تنيس، أو دمياط «صنع كذا...».

عليها من ثيابه ليكسب الراحة[1]. ومن الطيب والنحاس والآلات ما لا يحصى عدداً، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وضياعه أربعين ألف دينار في السنة (٤٠,٠٠٠ دينار) ودواة يكتب منها مرصعة بالجواهر، قوّم جوهرها باثني عشر ألف دينار (١٢,٠٠٠ دينار)، وخمسمائة ألف مجلد من الكتب (٥٠٠,٠٠٠ كتاب)»[2].

وليست هذه هي ثروة الأفضل بأكملها، لأن ابن ميسر قد أخذ معلوماته الإحصائية هذه عن أحد متولي الخزانة في القصر الذي قال: «هذا ما حضرني حفظه في داره، وأما ما كان في مخازنه، وتحت يد عماله والجباة وضمان النواحي، وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك، مما لا يحصى»[3].

كانت هذه صورة سريعة عن ثروة بعض وزراء الدولة الفاطمية لتنطبع في أذهاننا صورة الحياة الاجتماعية التي كان يحياها هؤلاء الوزراء. ولتعميق الصورة والدخول في مجرى حياته الخاصة، نترك الكلام للمقريزي ليوضح لنا الصورة في هذا الشأن: «وأمر (أي الأفضل) بتفصيل ثمان ظروف ديباج أطلس، من كل لون اثنان، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار، في كل ظرف خمسة آلاف دينار سكب، وبطاقة بوزنه وعدده، وشرابة حرير كبيرة. من ذلك ستة ظروف دنانير بالسوية عن اليمين والشمال في مجلس العطايا الذي برسم الجلوس، وعند مرتبة الأفضل بقاعة اللؤلؤة ظرفان أحدهما دنانير، والآخر دراهم جدد. فالذي في اللؤلؤة برسم ما يستدعيه الأفضل إذا كان عن الحرم. وأما الذي في مجلس العطايا، فإن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار، وإنما كان

---

(١) لعبة عنبر: عبارة عن تمثال (مانيكان) يعمل ليتم تفصيل الثياب عليه أو تركيزها بعد الانتهاء من تفصيلها وخياطتها حتى تبقى محافظة على شكلها الصحيح.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ١//٥٧.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ١/٥٧.

لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة. فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف، وكذلك من يتفرع ويسأل في طلب صدقة أو ينعم عليه ابتداء بغير سؤال يخرج ذلك من الظروف، وإذا انصرف الحاضرون نزّل القائد المبلغ بخطه في البطاقة وكتب عليه الأفضل بخطه صح ويعاد المبلغ إلى الظرف ويختم عليه»[1]. فشاع خبر هذه الظروف بين الشعراء فتقاطروا للمديح والتكسب فاضطر الأفضل إلى مضاعفة المبالغ ليتمكن من الوفاء بما التزم للشعراء وإنعام الصدقات على العلماء والفقهاء والفقراء في القرافة في مستهل شهر رجب من كل سنة.

٣) التأنق في الطعام والشراب:

ذكرنا فيما سبق أن الفاطميين كانوا مقلدين للعباسيين في جميع أعمالهم وألوان أطعمتهم وفنون مشاربهم وألبستهم، وحتى في كل شيء من مظاهر الأبهة والعظمة، فدولة الفاطميين قامت في البدء من أجل اصلاح الأمور الفاسدة في إدارة البلاد وإرجاع الخلافة إلى أصحابها، والسير على هدي الشريعة الإسلامية والسنّة النبوية الكريمة. لكن خلفاء الفاطميين سرعان ما انغمسوا في تيّار الترف والبذخ وطلب الشهرة والمجد بعدما تكاثرت الأموال بين أيديهم، وتوسعوا في وجوه الإنفاق، فتقربوا من الشعراء، وبذلوا لهم بسخاء منذ قيام الدولة، إذ أصر المعز لدين الله على الشاعر «الحسن بن هانيء» بمرافقة جيشه بقيادة جوهر الصقلي لاحتلال مصر، لكنه اعتذر وخلد ذلك بقصيدة منها:

رَأيتُ بعيني فَوقَ ما كُنتُ أسمَعُ   وقد رَاعني يوم من الحَشرِ أروعُ

غداة كأن الأفق سُدّ بمثله   فعَادَ غروبُ الشمسِ من حيث تَطلعُ

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٨٤.

فلم أدرِ إذ وَدَعتُ كيف أُودِعُ ولم أدرِ إذ شَيّعتُ كيفَ أشَيعُ[1]

وتفنن الفاطميون في إعداد الأطعمة الشهية والمشارب اللذيذة وإحضار الفواكه والخضار الطازجة على أنواعها، ولو كانت مصادرها بعيدة جداً، فالمشهور عن العزيز بالله أنه اشتهى يوماً (القراصية) البعلبكية فأُحضرت له بواسطة الحمام الزاجل[2]. واشتهر عن الفاطميين ملازمة الأطباء لهم أثناء تناول الطعام الذي أكثروا من ألوانه، كاللحوم الشهية، والجداء السمينة المشوية، والطيور اللذيذة من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام والإوز والبط، من مزارع خاصة أعدت لتربية هذه الأنواع من الطيور والحيوانات. فكان الطهاة يهيئونها بما اشتهر منهم من ذوق رفيع في اصطناع الأطعمة المغذية، والمهارة والفن في إعداد المائدة وتزيينها بشرائح الحلوى الجافة ذات الألوان المتعددة، كالفالوذج بدهن الفستق، والمخ المعقود بالسكر والعسل، وغيره الكثير الكثير، فتصل نفقات السكر في يوم الفطر فقط إلى ثلاثين مليون مثقال (٣٠,٠٠٠,٠٠٠ مثقال) من الذهب[3]. كما وضعت على المائدة شجرة أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر، وعليها ألف صورة وتمثال من السكر أيضاً[4].

لكنهم لا يتأنقون بمناسبة ذكرى عاشوراء، حيث يجلس الناس على اختلاف طبقاتهم حول مائدة (سماط) تظهر عليها علامات الحزن من نوع المأكولات التي رتبت فوقها، وأكثرها من المأكولات المصنوعة من العدس والأجبان والألبان والخضراوات وخبز الشعير وبعض أنواع الفطير... الخ[5].

---

(١) ابن هانيء، ابو القاسم المكني بأبي الحسن محمد: ديوان ابن هانيء، طبعة بيروت ١٣٢٦ هـ.، ص: ١٤٥.

(٢) أيوب: ابراهيم انظر الفصل الثاني، من القسم الثاني، تحت عنوان «ديوان البريد» من كتاب «التاريخ الفاطمي السياسي».

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٨.

(٤) المصدر السابق: والصفحة نفسها.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٣١.

ولم يهملوا الشراب فأعدوا خزانة لحفظ العديد منه وصنعه، حتى أتى بعض الخلفاء منهم على تناول المشروبات المسكرة وأدمنوا على تعاطيها في مجالسهم، وكذلك فعل بعض وزرائهم.

وكيفما كان الحال، فالمطبوخ من كل طعام ليس له قياس، على اعتبار أنهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون إليه، فكانت الأطعمة تزيد بكميات كبيرة عن الحاجة المطلوبة، فيحملها الخدم ويبيعونها فينتفعون بأثمانها أو توزع على الفقراء في المدينة، فأدى الانغماس في الأكل والتفنن في إعداده والتشويق إليه لنوعيته، إلى كثير من العلل في الجهاز الهضمي. وقد أصيب بمرض القولنج[1] أكثر الخلفاء الفاطميين وهلك جلهم بهذا الداء، فما كان من الخليفة الحافظ لدين الله إلاّ أن أمر بصنع الطبل المشهور[2] الذي بقي حتى نهاية الدولة الفاطمية، حيث كسره أحد الأمراء الاكراد[3].

٤) البذخ في الألبسة:

اعتنى الفاطميون بملابسهم وبذلوا بسخاء في سبيلها، ومن أجل ذلك بنى المعز لدين اللّه داراً للكسوة، كان يفصل فيها جميع أنواع الثياب من

---

(١) القولنج: مرض يصيب المعى، وقد يؤدي إلى انسدادها فترة فيثقل معه خروج الثفل والريح. الفيروز ابادي: القاموس المحيط، ١/ ٢٠٤. وكان الحافظ لدين الله كثير الإصابة بهذا المرض.

(٢) صنع شيرماه الديلمي (أو موسى النصراني) الطبل للحافظ لدين الله من سبعة معادن والكواكب السبعة في اشرافها. وكان من خاصته أنه إذا ضربه أحد خرج الريح من مخرجه، ولهذا كان ينفع من القولنج.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٢٣٧،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٢٣٨.

(٣) يقول المقريزي: «ولما مات العاضد استولى صلاح الدين على جميع ما كان بالقصر... والطبل الذي كان بالقرب من العاضد، فلما احتاطوا بالقصر ظنوه عمل للعب فسخروا من العاضد، وضرب عليه إنسان فضرط فتضاحك من حضر منهم، ثم ضرب عليه آخر فضرط، ثم آخر من بعد فضرط حتى كثر ذلك فألقاه من يده فتكسر».
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

كسوات الشتاء والصيف. وكانت غالباً موشاة بالذهب أو الفضة، والديباج الموشى بالقصب، في الوقت الذي تلألأت الجواهر واليواقيت في صدر عمائم الخلفاء. وأكثروا من ألبستهم حتى كان لكل يوم لون ولكل مناسبة بدلة أو أكثر. وكان للخليفة الآمر بأحكام الله إحدى عشرة بدلة للمواكب. وترك الأفضل ابن أمير الجيوش، تسعين ألف ثوب عنابي من الديباج، وثلاث خزائن كبيرة ملأى بالثياب الدبيقية من صنع دمياط وتنيس والتي يصل ثَمَن القميص الدبيقي منها إلى عشرة آلاف دينار[١]. ويلبس الخلفاء على رؤوسهم عمامة من لونه مذهبة ومرصعة يزيد قيمة الذهب فيها على خسمائة دينار عدا الحرير.

وذهب الفاطميون في مغالاتهم في البذخ إلى وقت كسوا معه دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة، وألبسوا الفيلة أجلة من الخسرواني الأحمر، والسروج المذهبة أو المحلاة بالفضة، وكذلك اللجم[٢]. وبذلوا أيضاً بسخاء كبير على صنع الخيم التي كانت تنصب في المناسبات، ومنها القاتول[٣]، الذي بلغت أكلاف صنعه أكثر من ثلاثين ألف دينار (٣٠،٠٠٠ دينار) لأن وزن صفريته الفضة قنطاران. بينما أنشأ الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي خيمة سمّاها «خيمة الفرح» اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع (١٤٠٠،٠٠٠ ذراع)، وقائمها ارتفاعه خمسون ذراعاً بذراع العمل، صرف عليها عشرة آلاف دينار (١٠،٠٠٠ دينار) فتسابق جماعة من الشعراء على مدحها[٤].

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ٩٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤١٨/١.

(٣) سمي بالقاتول، لأنه ما نصب قط، إلا وقتل رجلاً أو رجلين ممن تولى اتقانه من فراش وغيره.
المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤١٩/١.

(٤) المصدر السابق: ٤٢٠/١.

٥) الأثاث والرياش والمجوهرات:

وفاخر الفاطميون، بما اقتنوا من الأثاث الثمين، من مساند ووسائد، وبسط وستور، وملاءات، وحصر ساسانية مشغولة بالذهب والفضة، والمضارب المنسوجة بخيوط الذهب، والسروج المحلاة بالذهب أو الفضة، واللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة، عدا القلائد والأطواق لأعناق الخيل. وقد تراوح ثمن السرج ما بين ألف وسبعة آلاف دينار.

وأقبلوا على بناء المناظر التي تفننوا في زخرفتها وتزيينها بالقناديل الفضية وألواح الزجاج والشمسيات، والبلور المحكم، والميناء المجرى بالذهب، والمجرود، والبغدادي، والخياروالمدهون والآمدي، وكيزان (ابريق صغير) الفقاع، وصحون الميناء، حتى بيعت قطعة من البلور كانت في قصر المستنصر بالله سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨م. بألف دينار[١].

وفاق الفاطميون العباسيين في كثير من أسباب البذخ والثراء، ولا سيما من حيث الأثاث والرياش والثياب. ففي الوقت الذي رصع العباسيون فيه عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر، رصّع الفاطميون بها آنية المطبخ، واتخذوا الزير من البلور مرصعاً بالجواهر، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس[٢]. وكانت منظرة السكرة المعدة لراحة الخليفة الآمر بأحكام الله وتغيير ثيابه، يوم فتح الخليج، مبالغاً في فرشها ورياشها حتى أن الصواني كانت من الذهب، وعليها أشكال من الصور الآدمية والوحشية، كالفيلة والزرافات، وهي من الذهب أو الفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور والمكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد[٣].

ويتجلى الثراء والبذخ في صور الفيلة في تلك الصواني الذهبية، حيث نابا الفيل من فضة، وعيناه عبارة عن جوهرتين كبيرتين، في كل منهما مسمار ذهبي مجرى سواده. ويعلو ظهره سرير منجور من عود بمتكآت

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٤.

(٢) زيدان: التمدن الإسلامي، ٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٧٢.

فضة وذهب، وعليه عدد من الرجال تغطي أجسادهم الزرديات، ويعتمرون فوق رؤوسهم الخوذ، ويحملون بأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميعها من الفضة. وتبدو أحياناً صور للسباع منجورة من العود. عينا السبع عبارة أيضاً عن ياقوتتين حمراوين، وهو فوق فريسته، عدا الصور الأخرى[1].

واحتوت خزائن فرشهم على ستور حريرية منسوجة بالذهب عليها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، وقد كتب على صورة كل منهم اسمه، ومدة أيامه، وسيرته. كما كان في هذه الخزائن ما يزيد على أربعة آلاف رزمة خسرواني مذهب، في كل رزمة ما يفرش مجلساً ببسطه وتعاليقه، وسائر آلاته، منسوجة في خيط واحد[2].

وليس أدل على الأبهة والثروة الفاطمية إلا ما وجد في قصر المستنصر بالله أيام الشدة. ومن ذلك: خريطة (حقيبة) فيها نحو ويبة[3] من الجوهر تساوي آنذاك أكثر من سبعمائة ألف دينار. وصندوق مملوء بكيزان البلور، المنقوش والمجرود، التي تشبه كيزان شراب الفقاع. ومن الأشياء المباعة في سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. من قصر المستنصر بالله أيضاً، قدح من البلور بيع بمائتين وعشرين ديناراً، وبيع قدح آخر بثلاثمائة وستين ديناراً. كما أخرج من القصر الكثير من صواني البلور وصواني الذهب المجراة بالمينا وغير المجراة المنقوشة بسائر أنواع النقوش، كما وجد فيه أيضاً أكثر من مائة كأس بادزهر[4] وعلى بعضها اسم هارون الرشيد. وعدد من السكاكين في

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٤١٤ - ٤١٦.

(٢) المصدر السابق: ١/٤١٧.

(٣) الويبة مكيال مصري، كان يعادل ١٠ أمنان أو ١٢,١٦٨ كلغ قمح.
فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص: ٨٠.

(٤) يعرّف القلقشندي البادزهر على أنه: «حجر خفيف هش، وأصل تكونه في الحيوان المعروف بالأيّل (بتشديد الياء) بتخوم الصين، والذي يأكل الحيات فينتج هذا الحجر في الدموع التي تسقط من عينيه، ويتربى الحجر حتى يكبر ويحتك فيسقط، وقيل يكون في قلبه، وقيل في مرارته، ويصاد هذا الحيوان لأجله». القلقشندي: صبح الأعشى، ٢/١١٦ - ١١٨.

صناديق، بعض هذه السكاكين مذهب ومفضض بنصب مختلفة من سائر الجواهر. وصناديق تحوي سائر أنواع الدوى المربعة الصغار والكبار المصنوعة من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس الزنجي والعاج وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والذهب والفضة[1].

وتعد هذه الحلي والمجوهرات بسيطة إذا ما قيست بما استعمل في سرير «الملك الكبير» من الذهب الخالص الذي يساوي مائة وعشرة آلاف مثقال، وما حلّي به الستر الذي أنشأه سيد الوزراء أبو محمد اليازوري يقدر بثلاثين ألف مثقال من الذهب ورصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر الألوان. كما أن الشمسة الكبيرة كان بها ثلاثون ألف مثقال (٣٠،٠٠٠ مثقال) ذهباً وعشرون ألف درهم (٢٠،٠٠٠ درهم) مخرقة، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر (٣٦٠٠ قطعة) من سائر الألوان والأنواع[2].

كما حافظ الفاطميون على امتلاك الأسلحة ولا سيما ما يعود منها لأسلافهم، كسيف الحسين بن علي، ودرقة حمزة بن عبد المطلب، وسيف جعفر الصادق، ومئات الألوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها[3].

ودليل آخر على ترف الفاطميين وإسرافهم هو هدية «ست الملك» لأخيها الحاكم بأمر الله، إذ أهدته ثلاثين فرساً بمراكبها ذهباً وفضة، وتاجاً مرصعاً بنفيس الجوهر، وبستاناً من الفضة مزروعاً بأنواع الشجر. فإذا كانت شقيقة الخليفة تمتلك مثل ذلك، فكم يمتلك الخلفاء؟ بسؤال يتبادر إلى الذهن ونحن نعالج الحياة الاجتماعية، في مصر ـ القاهرة أيام الفاطميين: ألم يكن باستطاعة الخلافة الفاطمية تحسين أوضاع الشعب المصري؟ فالجواب يكون بالإيجاب مع وجود هذه الثروة.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤١٤.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤١٧.

وقد رأينا في فصول سابقة من هذا البحث، أن الشعب المصري، جل الشعب في مصر ـ القاهرة، كان يتخبط في ضائقة مالية، أودت بحياة الكثير منه، جوعاً ووباءً، فوصلت آثار هذه المحن إلى قصر الخلافة، حتى اضطر المستنصر بالله أن يجلس على حصير وحيداً.

وتحدث عن ثراء الفاطميين أكثر المؤرخين العرب كأبي المحاسن، والمقريزي والقلقشندي وابن خلدون وابن كثير وأبي شامة، وبعضهم رأى بأم عينه تحف الفاطميين ومنهم ابن الأثير الذي ذكر في حوادث سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٣م. التي استولى فيها صلاح الدين على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعدما كان أصابها من النهب في فتنة المستنصر بالله وغيره، وقال ابن الأثير[١]: «وحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة، ما تخلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً (١٧ مثقالاً)، أنا لا أشك، لأني رأيته ووزنته، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع[٢] في عرض عقد كبير».

٦) اقتناء الجواري (التسري):

كانت عادة إقتناء الجواري قبل الفاطميين، وهي للتمتع بهن

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١١٢،

أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم عثمان شهاب الدين: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٥٦م.، ١/ ٥٠٦.

المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٣٣٠.

(٢) أصابع: ومفردها إصبع وحدة من وحدات الطول وتساوي ٢/ ٢٤ من الذراع الشرعية أي ٢,٠٧٨سم و ٢,٢٥٢سم من الذراع السوداء ويبلغ طول الأصبع في مصر اليوم رسمياً ٣,١٢٥سم.

فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص: ٨١.

واستيلادهن، وليس للزواج منهنّ. ففي صدر الإسلام، كان المسلمون يتسرون بالجواري للفراش حتى توفي الإمام علي بن أبي طالب عن أربع نسوة، وسبع عشرة سرية (جارية)[1]. وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواهر، فنهى عمر بن الخطاب عن بيع أمهات الاولاد[2]. ولما نبغ من أبناء الجواري ثلاثة فقهاء من بنات يزدجرد[3] رغب الناس في التسري.

وهكذا ازدادت رغبة الخلفاء العباسيين في اقتناء الجواري حتى صار أكثر ابناء الخلفاء من أولاد الجواري، وأكثر نساء الدولة منهن[4]. وسار الفاطميون وفق هذه العادة، لا بل أكثروا من اقتناء الجواري، فكان في قصر الحاكم بأمر الله عشرة آلاف جارية وخادم[5]. وماتت اخته «ست الملك» مخلفة ثمانية آلاف جارية منها الف وخمسمائة من البنات الأبكار[6]. واشتهر عن الظاهر لاعزاز دين اللّه حبه لاقتناء الجواري والتسري بهن، فأهداه ابراهيم التستري أحد التجار اليهود أمة سوداء (جارية) استولدها ابنه وخليفته المستنصر بالله. وبلي الآمر بأحكام الله بعشق بدوية، فتزيَّ بزي البدو الاعراب، حتى توصل اليها، ثم خطبها من أهلها وتزوجها[7].

---

(١) زيدان: التمدن الإسلامي، ٥/ ١٣٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٣١.

(٣) وقع في أسر المسلمين بنات يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين فاشتراهن علي بن أبي طالب ودفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لولده الحسين، وثالثة لمحمد بن أبي بكر الصديق، فأولد عبد الله ولده سالماً، وأولد الحسين علياً زين العابدين، وأولد محمد بن أبي بكر ولده القاسم. ففاق هؤلاء الثلاثة أهل المدينة فقهاً وورعاً فرغب بعد ذلك الناس في السراري.
زيدان: التمدن الإسلامي، ٥/ ١٣٤، حاشية رقم ٨.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٣٨٨.

(٦) المصدر السابق: ١/ ٤٨٥.

(٧) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

ولما استولى صلاح الدين على قصورهم، وجد في القصر الكبير اثني عشر ألف نسمة (١٢،٠٠٠ نسمة) ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده، غير الخدم والغلمان والأمتعة والتحف. وأطلق صلاح الدين البيع فيهم، فاستمروا يبيعون عشر سنين[1]، سوى ما أعتق ووهب.

٧) **السخاء الفاطمي:**

أجزل الفاطميون في عطائهم للوزراء والأمراء والأطباء والشعراء، وفي دفع مهر الزوجة، وفي أكثر من جانب آخر، وقد تمثل بهم وزراؤهم وساروا على خطاهم. فكما سخا المعز لدين الله على عبده وقائده جوهر الصقلي، كذلك أكرم وأجزل العزيز بالله العطاء إلى وزيره يعقوب بن كلس، وكذلك كان سخياً حتى على أعدائه، وقد قال العزيز بالله يوماً لعمه حيدرة: «يا عم أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي»[2]. ألم يقل العزيز بالله لوزيره يعقوب بن كلس لما مرض الأخير وأشرف على الموت: «وددت أنك تُباع فأبتاعك بمالي أو تُفدى فأفديك بولدي»[3]. وهل يسخو المرء بأكثر مما قال؟. حتى قال عنه المقريزي: «كانت أيامه كلها أعياداً وأعراساً لكثرة كرمه ومحبته»[4].

وكان الحاكم بأمر الله كثير العطاء، فكثرت إنعاماته على الناس وجل

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ١/ ٤٩٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ١٠ و ٢٨٤،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٤٤.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٣٢،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٧.

(٤) المصدر السابق: المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٨٥.

الجنود، حتى توقف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان عن تنفيذها، فكتب إليه الحاكم بأمر الله بخطه، بعد البسملة:

الحمد لله كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي إلا إلـهـي ولـه الـفـضـل

جـدي نـبـي وامـامـي أبـي وديـنـي الإخـلاص والـعـدل.

المال مال الله عزّ وجلّ، والخلق عباد الله، ونحن أمناؤه في الأرض، أطلق أرزاق الناس، ولا تقطعها والسلام[1].

وقد شمل سخاء الحاكم بأمر الله الأطباء بصورة خاصة بالإضافة إلى من نال الوساطة. وخلع الخلفاء الذين تولوا بعده على الأطباء والشعراء والفقهاء والفقراء في مناسبات كثيرة ووجوه متعددة، فكان ذلك محاكاة للخلفاء العباسيين مرضاة لوزرائهم أحياناً، ودعماً لسلطتهم، وحفاظاً على حياتهم أحياناً أخرى من عطايا جزيلة، وخلع وجوائز وأرزاق.

وتمثل الوزراء بالخلفاء فأقاموا مجالس لهم أسرفوا في بذل الأموال فيها ولا سيّما على الشعراء والأدباء ورجال العلم والفقهاء والفقراء ونخص بالذكر منهم، يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله، والأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش، وطلائع بن رزيك، وغيرهم. لذلك هاجر الشعراء من بلادهم الأصلية إلى مصر واتخذوها داراً لإقامتهم، لما وجدوا من ترحيب الخلفاء والوزراء الفاطميين لهم، ولما أظهره وزراؤهم من جود وكرم ارتسمت معالمه على شكل صورة مصغرة لهبات الخلفاء.

٨) التهتك الفاطمي:

وظهرت بوادر التهتك والفحشاء، بالرغم من تمسك بعض الخلفاء

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ٢/٢٨٨،

المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/٩٧.

بأهداب الدين، والوقوف من ذلك موقفاً متصلباً، فاشتهر عن الحاكم بأمر الله تشدده في محاربة الفحشاء، بعدما كثر الغناء وشرب الخمر وظهور النساء في الطرقات وأمام الحانات في كل مصر ـ القاهرة. وفرضت ضرائب دفعها أصحابها مثل سائر التجارات على الفحش[١].

وأقبح ما ظهر من هذا، مغازلة الغلمان وتسريهم، حتى أن الحاكم بأمر الله كان عندما يتجول في الأسواق ويجد مخالفة من أحد، يطلب من عبد يرافقه ارتكاب الفحشاء مع صاحب المخالفة. وفشا حب الغلمان بعد ذلك بمصر ـ القاهرة، وتغزل بهم الشعراء حتى غارت النساء من ذلك، فعمدت إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال[٢]. وبسبب كثرة الجواري في القصور، لجأن إلى أساليب الفحشاء، وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزوج، ومن هنا كانت عادة استخدام، الخصيان في قصور الحريم، ومنع دخول الذكور من غيرهم إلى هذه القصور. وجرت عادة اقتناء الجواري من قبل النساء، إلى البقاء بدون زواج لأسباب عدّة، وانتهى بهن هذا إلى الفساد أو الاتهام بالفساد، فاتهم الحاكم بأمر الله أخته «ست الملك» كما أسلفنا بالفحش[٣]. وبسبب ما أثير من الغمز واللمز من علاقة نصر بن عباس مع الخليفة الظافر بأمر الله، عمد عباس إلى مطالبة ابنه الذهاب من قصر الخليفة والابتعاد عنه، لا بل قتله لمحو ما تتناقله ألسن الناس.

ويقال إن من الأسباب التي عجلت بفتح مصر، سماع الخليفة المعز لدين الله بما ذكر له عن أن ابنة الأخشيد صاحب مصر، اشترت جارية للتمتع بها، فلما بلغه ما فعلته استبشر وأمر بإحضار شيوخ كتامة والمغرب

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٨٩.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١١٠.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١١٥،

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨٥.

وقال: «يا إخواننا: انهضوا إليهم، فلن يحول بينكم وبينهم شيء، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتّع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم»[1]. وأسرع في تجييش الجيوش لفتح مصر. فأين ابنة الأخشيد من ابنة العزيز «ست الملك؟». وأين منهما «الست عبدة»، و«الست رشيدة» ابنتا المعز لدين الله نفسه؟.

ثانياً ـ مظاهر الأبهة:

تتمثل مظاهر الأبهة في الدولة الفاطمية بأجلى صورها في مجالس الخلفاء التي أقاموها دليلاً على عظمتهم، ومظهراً من مظاهر ثروتهم لما حوت هذه القصور من مجالس مختلفة من حيث الفرش والأثاث والهدف من إنشائه.

١) مجالس الخلفاء:

انشأ الفاطميون عدداً كبيراً من القصور والمناظر والفنادق والحمامات والدور والدكاكين المعدة للإيجار في مصر ـ القاهرة. فابتنى العزيز بالله عدداً كبيراً من القصور والمناظر، منها القصر الغربي، غربي القصر الكبير الشرقي، كما ابتنى قصراً آخر في عين شمس، وقصر البحر الذي يقول عنه ابن خلكان[2]: «إنه لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب»، وكذلك أسس قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك.

وينعقد المجلس الملكي بقاعة الذهب منذ أمر الآمر بأحكام الله نقله إلى هذه القاعة، بدلاً من عقده بالإيوان الكبير، والذي أصبح داراً للسلاح[3]. فيتوجه صاحب الرسالة إلى الوزير حاملاً إليه طلب الخليفة بانعقاد المجلس، فيركب الوزير بدوره يرافقه الأمراء إلى مركز الوزارة بالقصر، ليترجل

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٠٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٣٧٢.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٦.

هناك، ويتقدم المرافقين ماشياً إلى قاعة الذهب حيث يكون الخليفة قد استوى على عرشه بصدر القاعة، فوق خشبة، تحجبه الستور إلى أن يلتئم المجلس، فيأمر ساعتذاك زمام القصر (مدير عام القصر) وهو أحد الأساتذة اثنين من الأساتذة برفع الستور ليطل الخليفة من ورائها مستوياً فوق عرشه عندما ينفرج الستران الحريريان بشدهما من قبل الاستاذين، وقد وقف حول الخليفة جماعة من القراء يرتلون آيات القرآن الكريم بأنغام عالية، ثم يأتي حامل الدواة وهو من الأساتذة المحنكين ايضاً، فيضعها في المكان المخصص على طرف الخشبة. فيتقدم الوزير نحو الخليفة، محيياً، لاثماً يديه ورجليه، ثم يتراجع إلى مكانه ليستمر واقفاً زهاء ساعة، حتى يأذن له بالجلوس فيجلس على وسادة إلى الجانب الأيمن من الخليفة ويقف الأمراء في أماكنهم المقررة، فصاحب الباب واسفهسلار العساكر من جانبي الباب يميناً ويساراً، ويليهم من خارجه، لاصقاً بعتبته زمام الآمرية والحافظية كل في مكانه، ثم أرباب القصب والعماريات يمنة ويسرة والأماثل والأعيان من الجند إلى آخر الرواق. ويقف في مواجهة الباب، بواب الباب والحجاب.

فإذا انتظم كل في مكانه حسبما ذكرنا أعلاه، يجيز صاحب الباب للقاضي بالدخول ومن معه من الشهود المعروفين، فيسلم متأدباً، برفع يده اليمنى، مشيراً بسبحته وقائلاً بصوت مسموع[1]: «السلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته». وهذه التحية يمتاز بها القاضي دون غيره من أهل السلام اعترافاً بمركزه الديني الرفيع وباعتباره حامي الشريعة الإسلامية. ثم يسلم بالأشراف والأقارب زمامهم وبالأشراف الطالبيين زمامهم أو نقيبهم. كما يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم بعدما يزودهم صاحب الباب قبل أن يتقدموا من الخليفة بتعليمات توضح لهم ما يجب عليهم اتباعه في هذا الشأن. وإذا أراد الوزير أن يشاور

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٦.

الخليفة في أحد الأمور، وجب عليه أن يقترب منه، ويعتمد على سيفه، ثم يبدأ في حديثه[1].

وتستمر جلسات المجلس في الانعقاد غالباً مدة ثلاث ساعات. فتعطى الأولوية في البحث، للأمور الهامة المعروضة على الخليفة، لمناقشتها واعتمادها. ويحق للوزير أن يقترح في مجلس الملك، خلع الخلع أو إسناد بعض الوظائف إلى من يقدم أسماءهم. كل ذلك يجري، وزمام القصر، وصاحب بيت المال، والحجاب والأمناء قد وقف كل منهم مكانه عند الأبواب، لمنع دخول أي شخص أو الاقتراب من الخليفة باستثناء من يسمح لهم بذلك أحد الأمناء الذين يرى تقديمهم للخليفة.

ثم ينفرط عقد المجلس وسط مظاهر العظمة وبمثل ما انعقد فيه من الأبهة التي كانت تحيط بشخص الخليفة، فينصرف الحاضرون بعكس ما اتبع في الدخول من ترتيبات، إذ يخرج المجتمعون، والوزير آخرهم، بعد أن يلثم يدي مولاه الخليفة ورجليه مرة ثانية، ويعود إلى داره يحيط به كامل أعضاء المجلس، في الوقت الذي ينزل فيه الخليفة، عن سرير الملك مغادراً القاعة لتسدل الستور ويقفل الباب[2].

ولم تكن مظاهر الأبهة التي تحيط بشخص الخليفة في أثناء انعقاد مجلس الملك، بكل ما له من عادات وتقاليد، بدعة فاطمية، فهي قديمة جداً، تعود إلى ملوك الفرس من آل ساسان (٢٢٦ ـ ٦٥٠ م.) الذين كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة، أو أناساً الهيين[3]. فكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي به تاجه، وكان تاجه مثل القنقل (الخوذة) العظيم فيما يزعمون، ضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة، معلقاً بسلسلة من ذهب، في رأس طاقة في مجلسه ذلك. وكان عنقه لا يحمل تاجه، إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك. ثم يدخل رأسه

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٣٨٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/٤٩٨ ـ ٥٠٠.

(٣) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٦٣١.

في تاجه، فإذا استوى في مجلسه كُشِفَتْ عنه الثياب، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبة له.

ومهما يكن من أمر فالأبهة التي كانت تصاحب الخلفاء الفاطميين في مجلسهم أو في المواكب الدينية والاحتفالات بكسر الخليج، وحتى في أثناء الجلوس في إحدى المناظر تبرز اعتقادهم بحق الملكية المقدس، هذا الاعتقاد أدى بالخليفة الحاكم بأمر الله لأن يدعي لنفسه بعض صفات الله، وحتى الربوبية فغالت الرعية في احترامه(١).

أوليست المظلة مظهراً من مظاهر أبهة الدولة الفاطمية؟ فقد اتخذ المهدي عندما أصبح خليفة في المغرب المظلة(٢)، ثم انتقلت هذه العادة من السلف إلى الخلف، منذ الخليفة الأول المعز لدين الله الذي كان حامل مظلته شفيع الصقلي(٣). والمظلة، عبارة عن قبة على هيئة خيمة على رأس عمود، لها مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، لذلك كان حاملها من أكبر الأمراء، ويختلف لون المظلة باختلاف لون ثياب الخليفة(٤)، فتكون مثلاً في صلاة عيد الأضحى حمراء تبعاً للون ثوبه الأحمر الموشح(٥)، وبيضاء في صلاة عيد الفطر، لارتدائه البياض في هذه المناسبة(٦). ويكون قماش المظلة من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر.(٧) وفي أثناء سير موكب

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٥١ ـ ٥٤،
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٣٧١،
القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٤٩٨ ـ ٥٠٠ و ٥٢٠،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٨٥، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٢/ ص ١٦٥.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٣١. وكان حامل مظلة المهدي مسعود الصقلي ثم عرس الصقلي (الصقلبي).

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٤٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٤٧٣ و ٥٢١.

(٥) المصدر السابق: ٣/ ٥١٥.

(٦) المصدر نفسه: ٣/ ٥١٢.

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٤٤.

الخليفة، يبقى صاحب المظلة على يساره، مجتهداً ألا يزول ظلها عن الخليفة.

وقد يخرج الخليفة في المواكب المختصرة بدون مظلة[1].

وعندما يجلس الخليفة في إحدى مناظره بالمناسبات المختلفة، وحوله أنوار الشموع والمصابيح الوضاءة، فقد كان شخصه، يرى ظاهراً لرعاياه المتحمسين إذا ما فتح شباك المنظرة، وأمامه أحد الاستاذين يلوح للناس بكم قبائه، يحمل إليهم سلام الخليفة في هذه الكلمات: «أمير المؤمنين يرد عليكم السلام» وبعد تفوه الاستاذ بهذه الكلمات يقفل الشباك، لينصرف الناس مسرورين، بمن فيهم الذين خروا لرؤيته ساجدين.

وتجلت مظاهر الأبهة الفاطمية في قصور الوزراء، التي حاكت بفخامتها وعظمتها قصور الخلفاء، تحيط بها البساتين والحدائق، وقد غرست بأنواع أشجار الفاكهة ومختلف الأزهار والعطور، وفرشت بأحلى الأثاث وأغلى الرياش، ومدت فيها موائد الطعام العامرة بأشهى المآكل وألذها وأطيب المشارب وأحلاها، حتى غدت مضرب الأمثال لوفرتها وجمال تنسيقها وحسنها.

فوضع ابن كلس وزير العزيز بالله في قصره مطابخ خاصة له ولضيوفه، وأخرى لحاشيته، وغلمانه وأتباعه. فتمد يومياً مائدة لخاصته يأكل هو وخواصه من أهل العلم ووجوه كتّابه وخواص غلمانه ومن يستدعيه إليها. كما تمد موائد أخرى لبقية حجابه وكتّابه وحاشيته[2]. ولم يفت ابن كلس تحصين قصره ودور غلمانه بالأسوار والدروب[3]، فاتخذ لذلك حراساً أمدهم بما يحتاجون إليه من السلاح والعدد والمؤن، وهيأ لهم وسائل البيع والشراء، بإقامة الحوانيت التي تحيط بالقصر وقد عبثت بجميع

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/٥١٦ ـ ٥١٧ و ٥٢١.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/٢٩،
المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ٣٠.

الحاجيات الضرورية من مأكل ومشرب وملبس[1]. كما اتخذ لنفسه طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية، ويتقلدون السيوف، ويتمنطقون بالمناطق. وفي شهر رمضان من كل سنة كان يقيم الولائم في قصره، داعياً إليها مشاهير الرجال، وحتى الفقراء وعامة الناس.

واشتهر عن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الآمر بأحكام الله شغفه بهذه المظاهر وولعه بإقامة الولائم واتخاذه الجواري في قصره حتى وصل عددهن إلى ثمانمائة جارية منهن خمسون حظية، ولكل واحدة حجرة خاصة بها[2]. ألا ترتسم، بعد هذا كله، الصورة عن حياة أهل الحكم التي اختصت بأموال البلاد لتنفقها على بناء القصور وتأثيثها وإقامة المآدب والملاهي تاركة الشعب يتخبط في ضيقه مع يسرها لتبقى الفوارق الاجتماعية الكبيرة مستمرة بين أهل الحكم والعامة، وليظل الشعب الفقير مغلوباً على أمره يحمل في قلبه الخوف والرهبة من الخلفاء.

٢) شكل المجلس وفرشه:

كان مجلس الملك (الخلافة) ينعقد بالإيوان الكبير، ومن ثم بقاعة الذهب التي بناها العزيز بالله، بينما توزعت الأعمال الإدارية على سائر الموظفين في بعض قاعات القصر والدور التابعة له والمخصصة لذلك. لكن هذا لم يمنع بعض الوزراء من نقل دواوين الدولة إلى دورهم، كما فعل يعقوب بن كلس. وأنشأ الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي دار الوزارة الكبرى، فنقلت إليها الدواوين التي ظلت بها حتى نهاية الدولة الفاطمية. أما شكل المجلس فهو دائماً على هيئة مستطيل.

وكانت أرضه تفرش ببساط، أو عدة أبسطة من الديباج ونحوه، وعند

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/٦.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/٥٨.

أطرافه توجد منائر من الذهب أو الفضة، توضع عليها الشموع للإنارة. وتعلق فوق أبوابه وشبابيكه ستور الحرير أو الدبيقي، وهي مطرزة بشارة الدولة، وأحياناً بآيات قرآنية أو أحاديث نبوية. ولكن فرش الشتاء كان يختلف عن فرش الصيف، ففي الشتاء تعلق الستور من الديباج، ويغطي الأرض بساط من الحرير يتلاءم وستور الديباج، وأحياناً توقد النار بالند والعود[1]. أما في الصيف، فتفرش أرض المجلس بما يتلاءم وستور الدبيقي، فيكون غالباً ما بين طبري وطبرستاني مذهب معدوم المثيل، وجميعها من رسم واحد ولون واحد. وفي صدر الإيوان أو قاعة الذهب - بحسب المكان المعقود فيه المجلس - المرتبة المؤهلة لجلوس الخليفة في هيئة جليلة على سرير الملك المغشى بالقرقوبي. ووجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه. وتبدو مغالاة الفاطميين في الأسرة ونوعيتها من كلام المقريزي في وصف سرير الملك: «إن وزن ما استُعمل من الذهب الإبريز الخالص في سرير الملك الكبير مائة وعشرة آلاف مثقال (١١٠,٠٠٠ مثقال) من الذهب»[2]. وبما أن الخلفاء يحتجبون عن الناس، كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً، ويستترون أحياناً خلف شباكٍ مخرم، وقد يختفي الخليفة مدة عن أعين الناس، ثم يظهر بعدها، مدعياً معرفة المجهول عن أحوالهم (علم الغيب)[3].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٥

(٣) آمن الفاطميون بتفسير جميع الأشياء وإخضاعهم كافة الأمور لتأويل ظاهر وباطن، ومن هذا المنطلق عملوا على ترويج فكرة معرفة الغيب عن شعبهم الغاشم والجاهل. إذ استتروا عنه مدة ثم ظهروا للناس بعد أن زودهم جواسيسهم بالأخبار الكاملة عن الرعايا وهو ما فعله المعز لدين الله وخليفته العزيز بالله والحاكم بأمر الله وإن لم يستتر فقد اكتفى برصد أخبار الناس عن طريق عيونه.

٣) مجالسة الخلفاء:

أحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بالحرس، وجعلوا على أبواب مقصوراتهم أصحاب الأبواب (الحجاب) لمنع دخول أي كان على الخليفة، بدون أخذ الإذن والموافقة بالدخول، من صاحب الباب، الذي يكون عادة من كبار الأمراء، ورتبته تلي رتبة الوزير مباشرة، وقد يلي الوزارة[١]. ويتم الدخول لمواجهة الخليفة بحسب المراتب، فيؤذن أولاً: للأشراف، وإذا تساووا في النسب قدموا أكبرهم سناً، وإذا تساووا في السن قدموا أكثرهم أدباً وعلماً.

فإذا أذن لأحدهم بالدخول، تقدم وألقى التحية التالية: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أو السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله»[٢]. لكن هذا السلام كان محظوراً على عامة الناس، إذ اقتصروا في تحيتهم على تقبيل الأرض بين يديه[٣] والدعاء له. أما الأمراء والوزراء والقضاة فيسمح لهم بتقبيل أيدي الخليفة ورجليه، وأحياناً يقبلون حافر فرسه. وقد أتينا على ذكر سلام الوزراء والقضاة في مجالس الخلفاء. ويختلف سلام الأمراء باختلاف الأشخاص والأحوال، فالقائد جوهر الصقلي، لما ودع مولاه الخليفة المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر، أنزل المعز أولاده لوداعه، فساروا أمام جوهر على أرجلهم وسائر أهل الدولة كذلك، وقبّل جوهر يد المعز وحافر فرسه قبل مسيره[٤].

يتولى إجلاس الداخلين، على الخليفة، في المواضع المخصصة بمراتب كل منهم، صاحب الباب او الآذن لهم بالدخول، فيجلس الوزير عن يمين الخليفة، والقاضي او الداعي عن يساره. أما بقية الأمراء فيجلسون على

---

(١) ايوب، ابراهيم انظر الفصل الثاني، من القسم الثاني من كتاب: التاريخ الفاطمي السياسي.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٦.

(٣) مشرفة: نظم الحكم بمصر، ص: ٥٧.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١/ ٣٧٧، المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٧٩.

دكك (مقاعد) معدة بحسب مراتبهم، ويليهم الأشراف الأقارب، ثم الأشراف الطالبيون، فالأولياء، فعامّة الناس[1].

ومن يجالس الخلفاء، ويحق له الكلام على مسامع الخليفة، يستأذن في الكلام، فإن أذن له الخليفة تكلم، وإن لم يأذن له انصرف، او سكت عن الكلام. ولآداب الكلام بحضرة الخليفة أصول يجب المحافظة عليها، كأن ينتصب المتكلم بين يدي الخليفة قائماً معتدلاً كقيامه في الصلاة، ويرمي ببصره الى الأرض إجلالاً واحتراماً له، ناظراً إلى الأمام (الخليفة) من تحت طرفه، ولا يعبث بيديه، إنما يرسلهما إرسالاً او يضع يمينه على شماله تحت صدره، ويلزم الصمت الى أن يسأله الخليفة عن حاجته. وإذا تكلم فيجب أن يتكلم فيما ينبغي له الكلام فيه ما دام الخليفة مستمعاً إليه، فإن أعرض عنه أو قطع كلامه لأمر عرض له او لغير أمر، فلينصت المتكلم حتى يأذن له الخليفة في الكلام من جديد لفظاً أو إيماءً او استفهاماً، حينئذٍ يعود إلى ما كان فيه، وإلا سكت على ما قطع الكلام عليه، ولا يرجع من غير إذن له فيه. وعند مخاطبة الخليفة، فليكن كلامه خافتاً، القدر الذي يسمعه الخليفة، ولا يرفع صوته عنده. أما إذا خاطبه الخليفة فأصغى الى لفظه. وإن كان الحديث موجهاً لجماعة من هم بحضرته، فينبغي لكل واحد منهم الإنصات والإصغاء إليه. وإذا خاطب الخليفة أحدهم بصورة علانية، فينبغي لمن سمع خطابه الإصغاء إليه، وطلب الفائدة منه.

وإن جرى من الكلام في المجلس ما يجعل الخليفة يبتسم أو يضحك، لا ينبغي لأحد جلسائه، والقائمين بين يديه أن يضحكوا لذلك، ولكن ينبغي لهم أن يطرفوا بأبصارهم مبتسمين، ويظهروا الوقار والسكينة، ويعظموا مجلس الخليفة من الضحك فيه. وإذا أراد الخليفة أن يحدث أحداً من القريبين منه، ولا يريد أن يعلمه غيره، ينبغي في هذه الحالة لمن يكون

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

قريباً منه أن يبتعد عنه، ولجميع الباقين، ألا يصغوا إليه وألا يلتفتوا نحوه، ريثما ينتهي من هذا الحديث السري، وفي الوقت نفسه، لا ينبغي أن يتناجوا في مجلسه، ولا أن يتحدثوا فيما بينهم حديثاً دونه، على أن يبقى كل ما جرى في مجلس الخليفة، منه أو من جلسائه سراً لديهم وأمانة عندهم[1].

وينبغي لمن يرافق الخلفاء في سفر أو حضر، أن يحافظ على الموضع الذي يحق له أن يكون فيه أو يسير وفقه. فإن كان فيمن رتب ان يسير بين يدي الخليفة، سار كذلك ولزم ما أمر به، وجعل همه وشغله التحفظ لمكان الخليفة، من غير ان يكثر التلفت إليه، متفقداً من وقت لآخر ذلك باختلاس النظر ليرى الخليفة خلفه، فيعرف أين هو منه، ومكانه من القدر الذي جعل له. فإن وجد نفسه ابتعد عنه كثيراً وقف حتى ينتهي الخليفة إلى الموضع الذي يتوافق وآداب السير في مواكب الخليفة، وبحسب ما هو مقرر له أن يسير فيه[2].

٤) مجالس الأدب والشعر:

وليس أدل على مظاهر الأبهة والعظمة من مجالس الشعر والأدب، لذلك أغدق الفاطميون على الشعراء والأدباء بسخاء، مما جعل هؤلاء يكثرون من مدح الخلفاء للكسب وأملاً في الحصول على الأرزاق والجوائز المعدّة والهبات المختلفة التي أجزل الفاطميون في عطائها وتوزيعها، لصرف النظر عن بغداد واستقطاب الشعراء والأدباء والعلماء إليهم. وهذا ما حدا ببعض الشعراء والأدباء إلى الارتحال عن بغداد والعباسيين للاتصال بمصر ـ القاهرة حيث بلاط الفاطميين، وإن كان بعضهم ينتمي إلى مذهب السنة. وحتى تكون للسنة منهم مكانة خاصة لدى الفاطميين عمدوا تارة إلى مدح الخلفاء

---

(١) مشرفة: نظم الحكم بمصر، ص: ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) المرجع السابق: ص: ٥٨

مغالين في ذلك إلى حد تشبيه الخليفة بالمسيح، وأنه الخالق، بإسباغ أسماء الله وصفاته عليه، وطوراً إلى ادعائهم التشيّع إرضاء لرغبات الفاطميين تزلفاً. فمثلاً قال ابن هانيء الأندلسي:

لي صَارِمٌ وهو شيعيٌ كحامله ... يكاد يسبق كراتي إلى البطل
إذا المعزُّ معز الدين سلطه ... لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[1]

ومدح الخليفة المعز لدين الله بقوله:

النوز أنت وكلُّ نور ظلة ... والفَوْقُ انت وكل فوق دون
فارزُقْ عبادك منك فَضلَ شفاعة ... واقرُبْ بهم زُلفى فأنت مَكين[2]

ومدحه في عيد الأضحى بقوله:

هذا ابن وَحي الله تأخذ هَدْيَها ... عنه الملائك بُكرةً وأصيلا
وعلمت من مكنون سر الله ما ... لم يُؤتَ في الملكوت ميكائيلا!!
لو كان أتي الخلقُ ما أُوتيته ... لم يَخلق التشبيهَ والتمثيلا[3]

واشتهر من الشعراء الذين مدحوا المعز لدين الله وابنه العزيز بالله وحفيده الحاكم بأمر الله، أبو عبدالله محمد بن أبي الجرع، ومدح الوزير ابن كلس مبيناً مدى حزنه وتأثره للألم الذي أصاب الوزير في يده غداة أحد الأيام، مذكراً بما كان لمنح العزيز بالله عليه من أثر:

يَدُ الوزيرِ يَدُ الدنيا فَإِنْ أَلِمتْ ... رأيتَ كل شيءٍ ذلك الألما
تَأمَّلِ المُلْكَ وَأنظرْ فَرْطَ عِلتّه ... من أجله وأسألِ القرطاسَ والقَلَما
وأنفسُ الناس بالشكوى قد أتصَلَتْ ... كأنما أشعرتْ من أجله سَقما
لَوْلا العزيزُ وآراءُ الوَزيرِ معاً ... تَحيَّفَتْنا خطوبٌ تشعب الأمما
كلاكما لَمْ يَزلْ في الصالِحَاتِ يَداً ... مَبْسُوطَةً ولساناً ناطِقاً وفَما

---

(١) ابن هانيء: الديوان، حد: ١٨٢.

(٢) المصدر السابق: ص: ٢١١ ـ ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه: ص: ١٥٣ ـ ١٦٠.

وَلا أصَابَكُمَا أَحْدَاثُ دَهركما   ولا طوى لَكُما ما عشتُما عَلَمَا

وَلا انْمَحَتْ عَنكَ يا مولاي عافيةٌ   فقد مَحوْتَ بما أوليتَني العَدَما[1]

وقد رثى الوزير ابن كلس عند وفاته مائة شاعر، فأجاز العزيز بالله كلاً منهم[2].

ومدح أبو حامد الأنطاكي أحدَ الشعراء الشاميين المداحين والذي أقام بمصر، واتصل بالخلفاء الفاطميين: المعز لدين الله، وولده العزيز بالله، وحفيده الحاكم بأمر الله، كما مدح جوهر الصقلي القائد، والوزير يعقوب ابن كلس لما أظهر هذا الأخير على الشعراء من جود وكرم ونصرة لهم وعطف على قضاياهم، فقال:

لمْ يَدعْ للعَزيزِ في سَائرِ الأر   ضِ عَـدُوًا إلا وأخـمـدَ نـارَهْ

ذو يدٍ شأنها الفرار من البُخ   ل، وَفي حومة الندى كَرارَهْ

قد أقلّتْ عن العزيز عداه   بالعطايا، وكـثّـرَتْ أنـصـارَهْ

هـكـذا كـلُّ فـاضـل يَدُهُ تُـمـ   ـسى وتـضـحـي نـفَـاعـةً ضـرّارهْ

فـاسْتَـجِـرْهُ فـلـيـسَ يـأمـنَ إلا   مَـنْ تَـفـيّـا ظِـلالَـه وَاسْتَـجَـارَهْ[3]

وهكذا كأبي حامد الأنطاكي وغيره من الشعراء والأدباء والفقهاء الذين هجروا أوطانهم إلى مصر، واستقروا بها طمعاً في جوائز البلاط الفاطمي وسخاء رجاله من وزراء وأمراء وقوّاد، بعدما أهمل ذلك العباسيون بسبب ما أصابهم من ضعف، في الوقت الذي لاقى فيه وصول الشعراء الشيعة والسنيين الكبار على حد سواء إلى مصر كل ترحيب وتشجيع، فارتحل الفقيه المالكي والأديب والشاعر عبد الوهاب بن نصر قاصداً مصر بعد أن نبذته

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ٣٤.

(٣) الثعالبي، ابو منصور عبدالله: يتيمة الدهر، طبعة دمشق ١٣٠٢ هـ ، ١/ ٣٩.

بغداد[1]. وقد خرج كبار رجالها لوداعه يوم رحيله منها، فقال: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداء وعشية، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنيةٍ[2]». وقد عبر ابن نصر عما يخالج نفسه من شعور الفراق وألم البعاد بقصيدة يودع فيها بلده بقوله:

سلامٌ على بغدادَ من كلّ منزلٍ وحقٌّ لها مني السلامُ المضاعَفُ
فوالله ما فارقتُها عن قلًى لها وإني بشطّي جانبيها لعَارِفُ
ولكنها ضاقت عليَّ برحبها ولم تكن الأرزاقُ فيها تُساعفُ
وكانت كخلٍّ كُنتُ أهوى دُنُوَّهُ وأخلاقه تنأى به وتُخالفُ[3]

ولشدة ما عاناه ابن نصر من الفقر والحرمان في بغداد، شبَّه نفسه بمصحف كريم ضاع في زوايا بيت أحد الزنادقة:

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيّبةٌ وللمفاليس دارُ الضَّنْكِ والضِّيقِ
أصبَحتُ فيها مُضاعاً بين أظهُرِهِم كأنني مُصْحَفٌ في بيتِ زَنْدِيق[4]

وما إن وصل عبد الوهاب بن نصر المالكي إلى مصر سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م. على عهد خلافة الظاهر لإعزاز دين الله، حتى استقبله الناس أحسن استقبال، وقد وصف ذلك ابن خلكان[5] بقوله: «فحمل لواءها، وملأ أرضها وسماءها، واستتبع ساداتها وكبراءها، وتناهت إليه الغرائب، وانثالت في يديه الرغائب». ولكن ابن نصر ما كاد يلقى المعاملة الحسنة،

---

(١) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، (منشورات دار صادر ـ دار بيروت)، ١/ ٤٦٢.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٢١٩.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١/ ٤٦٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٢٢٠.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١/ ٤٦٢،
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٢٢٠.

(٤) المصدر السابق: ٣/ ٢٢١.

(٥) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٠.

ليعوض ما فاته، ويهنأ بحياته حتى قضى نحبه في السنة نفسها، وذكر ابن خلكان أنه مات فيها من أكلة اشتهاها. لذلك قال وهو على فراش الموت: «لا إله إلا الله، إذا عشنا متنا!».

ونزل مصر أبو الفتيان مفضل بن حسن بن خضر العسقلاني، الذي أكرمه فيها الوزير الأفضل، ابن امير الجيوش بدر الجمالي، وأسبغ عليه نعمه الزائدة، فامتدحه ابن خضر بقصيدة منها:

أقول والنجم مرقومٌ بغرَّتِهِ سطراً نظرت، وضوء الصُّبْحِ مبتسمُ
أماء خديّه أضحى في زجاجتِه يدير أم ماؤها في وجنتيهِ دمُ؟
صيغَ الصباحُ ضياءً من مياسمِهِ فاستنبطت حَلَكاً في شعرِه العتَمُ[1]

وحاز ثقةَ الأفضل ابن أمير الجيوش، شاعران آخران، كلاهما من معرة النعمان[2]. وهما أبو الحسن علي بن ابراهيم الملقب بابن العلاني وقد مدح الأفضل بقصيدة نقتطف منها هذه الأبيات:

فمكّةُ مِصْرٌ والحجيجُ وفوده وبناه ركن البيت والنيلُ زمزمُ
وشاكر ما تولى مقرٌّ بعجزهِ ولو أنه في كل عضو لهُ فمُ[3]

والشاعر الثاني هو: أبو الحسن علي بن جعفر بن البوين الذي مدح الأفضل أيضاً بقصيدة منها:

يا مَنْ تَنافَس فيه السمْعُ والبصرُ كما تغاير فيه الشمسُ والقمرُ
ومَنْ تَحكَّمَ في الأرواحِ فاحتكمتْ الا يُحَكَّم فيها بعدَهُ بشرُ[4]

وهذا ظافر الحداد الشاعر الاسكندري الذي أكثر من مدائحه في الخليفة الآمر بأحكام الله، ووزيره الأفضل ابن أمير الجيوش، كما مدح الخليفة

---

(١) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٢) تقع ما بين حلب وحماه، وتتبع إدارياً حمص، ومنها الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٥/١٥٦.

(٣) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٥٠.

(٤) المرجع السابق: والصفحة نفسها.

الحافظ لدين الله بقصائد معدودة، إلا أن مدائحه في الوزير الأفضل فاقت كل مدح آخر. وقد دخل على الأفضل، فوجده جالساً على سريره والأمراء قيام بين يديه، فقال بديهاً:

لـمـا رَأيـتُـك فَـوْقَ الـسـريـرِ   وَلاح الـمَـنـاوِرُ والـمَـسْـنَـدُ
رَأيتُ سُلَيـمـانَ فـي مُـلْـكِهِ   يُـخَـاطِـبُـنـي، وأنـا الـهُـدْهُـدُ[1]

ومدح ابن الحداد الآمر بأحكام الله بقصيدة نختار منها هذه الأبيات:

هذا الإمام أمامي حاضرٌ بادي   فاليومَ أشرفُ أيامي وأعيادي
كأنه الشمس لا تخفى محاسنها   عن حاضرٍ من جميع الناسِ أوْ بادِ
خير الخلائفِ من أبناءِ حَيْدَرَةٍ   وفـاطـم، أيّ آبـاءٍ وأولادِ
يا ابنَ الأُولى سَلَفوا من هاشمٍ، ولهم   مَدْحٌ يُكَرِّرُهُ الشادي على النادي
فأنتَ للخَلقِ روحٌ ظاهِرٌ وبِهِ   يَحيا، ولولاك أضحى رَمُّ أجسادِ[2]

ووفد شعراء الى مصر الفاطمية في عهد الآمر فامتدحوه وامتدحوا الحافظ لدين الله. فقال أحد المغاربة شعراً في مدح الآمر بأحكام الله، منه هذه الأبيات:

إلى ذروة النورِ العلائي إنه   إلى ذروة النور الإلهي يُنسَبُ
بَـشَـرٌ فـي الـعـيـنِ إلا أنـهُ   من طريقِ العَقْلِ نورٌ وهدى
جَـلَّ أن تُـدرِكـه أعـيُـنـنـا   وتَـعـالـى أن تَـراهُ جَـسَـدا[3]

ولكن كرم الفاطميين وبذلهم على الشعراء بسخاء، لم يمنع بعض الشعراء المصريين من أن يغادروا إلى بغداد، لكنهم لم يلقوا التشجيع والإنعام الذي لقيه البغداديون وغيرهم في مصر، فندموا على فعلتهم تلك، وعبر جعفر بن أبي زيد عما يخالجه من أسى في هذين البيتين:

---

(١) ابن الحداد: الديوان، ص: ١٢٠.

(٢) ابن الحداد: الديوان، ص: ١١١ ـ ١١٣.

(٣) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٥٠ ـ ٤٥١.

وما قصدنا بغدادَ شوقًا لأهلِها ... ولا خَفِيَتْ مذ قط أبصارُنا عنها
ولا أننا اخترنا على مِصرَ بلدة ... سواها، ولكن المقاديرَ ساقَتْنا[1]

ونعلم مدى جود الفاطميين على الشعر والشعراء من بيتين نظمهما أبو العباس أحمد بن مفرج، أحد الشعراء الذين عايشوا الحافظ لدين الله، وقد أمرهم أن يختصروا في قصائدهم:

أمرتنا أن نصوغَ المدحَ مختصراً ... لِمْ لا أمرتَ ندى كفيك يختصرُ؟
واللهِ لا بُدَّ أن تجري سوابقُنا ... حتى يَبِينَ لها في مدْحِك الأثرُ[2]

وبالغ الشعراء في مدح الفاطميين إلى درجة المخاطرة بحياتهم أحياناً في سبيل الدفاع عن أولياء نعمتهم، بالرغم من مدائح أبي الحسن بن الزبد للخليفة الحافظ لدين الله، فقد مدح الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بقصيدة منها:

خَلَعَ الزمانُ عليّ حُلَّةَ مفخرٍ ... شَرَفاً بمدح الأفضل المفضال
يلقى المدائحَ بالمَنائحِ واهباً ... ويصدّق الأقوالَ بالأفعالِ[3]

ومن قصيدة أخرى في مدح الأفضل يقول:

لولا وجودُك في الزمانِ وجودك الـ ... ـمحيي المكارِمَ بعد بُعدِ وفاتِها
لم يُعْرَفِ المعروفُ في الدنيا ولو ... طفْنا عليهِ في جميع جهاتِها[4]

ويذكر عمار اليمني أن ابن الزبد كان فاطمياً مغالياً، بلغ من وفائه لبني رزيك أن خاطر بحياته في الدفاع عن الوزير ابن رزيك، فقاتل عنه أشد قتال، ويقي يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه، عندها رمى بنفسه على

(١) حسن: الدولة الفاطمية ص: ٤٥١.
(٢) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٥١.
(٣) عمارة اليمني، نجم الدين اليمني: كتاب النكت العصرية، طبعة باريس ١٨٩٧م. ص: ٣٥، ١١٤.
(٤) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٥٢.

الوزير، فنجا ابن رزيك من الضربات التي انهالت عليه[1]، فأمر الوزير الشعراء بنظم القصائد في مدح ابن الزبد الذي خاطر بحياته في سبيل خلاص الوزير. وهذا ما أشار إليه عمارة اليمني في بعض قصائده بقوله:[2]

أَوْجَبْتَ في ذمةِ الأشعارِ والخُطَبِ دَيْناً أبا حَسَنٍ يبقى على الحِقَبِ

أيامُكَ البيضُ لا تُحْصَى، وأفضلُها يَوْمٌ خُصصتَ به في قاعةِ الذّهَبِ

وَفيتَ للصالح الهادي وقد غَدَرَتْ به الصنائع من ناءٍ ومُقتربِ[3]

وإن نجا ابن الزبد والصالح طلائع بن رزيك من الموت، فإن شاعرنا لم يسلم من حسد حسّاده بعدما ارتفعت منزلته، وكثر إنعام هذا الوزير عليه، فنظم أبو الفتح محمد بن قادوس بيتين من الشعر هجا فيهما الحسن ابن الخليفة الحافظ لدين الله[4]، ثم رسمهما ضمن أوراق ابن الزبد، ووشى به إلى الحسن فأمر به فقتل، ولم تشفع به مغالاته بالفاطمية، ونشره الدعوة لها.

وجرى مجرى ابن الزبد شعراء كثر في مدح الوزراء الذين آلت إليهم الأمور في أواخر أيام الدولة الفاطمية، ولا سيما الوزير الصالح بن رزيك الذي أقام في منزله مجلساً ضم العديد من الشعراء، كان يستمع فيه إلى قصائدهم ويسمعهم أحياناً بعض منظوماته الشعرية، مجزلاً في توزيع الجوائز عليهم، حتى كان له النصيب الأكبر من قصائد المدح، ومن قصيدة يمدح فيها المهذّب ابو محمد الحسن بن علي بن الزبير الصالح طلائع بن رزيك واصفاً إياه ببطل المسلمين:

---

(١) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص: ٣٥ و١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) المصدر السابق: ص: ٤٦ و٤٨ و٥٠ ـ ٥٣ و٦٣ ـ ٦٥ و١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص: ١٤٦.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/٩٧،
عمارة اليمني: النكت العصرية، ص: ٣٠.

أفارس المسلمين اسمع، فلا سَمعَتْ عداكَ غير صليل البيض في القُلَلِ
مقالَ ناءٍ غريب الدار قد عدم الـ أنصار، لولاك لم يَسمَعْ ولم يَقُلِ
يشكو مصائبَ أيام قد اتسعَت فضاق منها عليه أوسعُ السُّبُل
وكيف ألقى من الأيامِ مُرزيةً حلّت ولي من بني رُزيك كلُّ ولي؟[1]

ومدح أيضاً ابن الزبير الوزير رضوان بن ولخشي بقصيدة يعلي فيها منزلة الوزير، نختار منها هذا البيت:

ما كَانَ بَعدَ أمير المؤمنين فَتًى فيه الشَّجَاعَة إلا أنت والنبلُ

ويعترف ابن الزبير بنبل عطايا هذا الوزير وكرمه عليه ببيت يقول فيه:

لا يرتضي في الجود سَبْقَ سؤال مَنْ يرجوه حتى يسبق الآمالا

ومن الأدلة على ما كان يلقاه الشعراء في مصر من كرم الفاطميين خلفاء ووزراء وأمراء من حفاوة وإكرام. هذا البيت:

حيث اغتربتُ فلي من عِفتي وطنٌ آوي إليه وأهلٌ من ذوي الأدب[2]

وكان لإغداق الهبات على الشعراء، وما بذل من عطاء، ولتقريب الوزراء للشعراء، واتخاذهم أصدقاء، وجمع الكثير منهم في مجالسهم للاستماع إلى مدائحهم وعرض بعض قصائد الوزراء عليهم، أفضل النتائج في تعظيم خلاف الفاطميين وإكبار سلطانهم، وهو ما كانت ترمي إليه الدولة من سخائها على الشعر والشعراء، حتى نظم الشعراء قصائد المدح من خارج البلاد المصرية، لا بل من خارج الأراضي الواقعة تحت راية الفاطميين أملاً في اكتساب جائزة.

ورضي عمارة اليمني بالمقام الفاطمي فأقام في القاهرة بعد أن وفد إليها

(١) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٥٩.

(٢) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٤٥٦.

بمهمة من قبل أمير مكة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م.، فرحب به الخليفة الفائز بنصر الله ووزيره الصالح طلائع بن رزيك، وأكرماه أيما إكرام، فأصبح عمارة من المناصرين للمذهب الفاطمي، وهو السنّي الشافعي المذهب. ونقتطف من قصيدة عمارة اليمني التي أنشدها في قاعة الذهب هذه الأبيات:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم	حمداً يقوم بما أولَتْ من النعم
قَرّبنَ بُعدَ مزار العز من نظري	حتى رَأيتُ امام العصر من أمم
ورُحنَ من كعبة البطحاء والحرم	وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
حيث الخلافةُ مضروبٌ سرادقها	بين النقيضين من عفو ومن نقَم
وللإمامة أنوارٌ مقدسة	تجلو البغيضين من ظُلْم ومن ظُلَم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً	فوز النجاة وأجر البر في القَسَم
لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما	وزيرُه الصالِحُ الفرّاج للغمم
اللابس الفخر لم تنسجْ غلائِلَهُ	إلا يدُ الصانعين: السيفِ والقَلَمِ
خليفةٌ وَوَزيرٌ مدَّ عدلهما	ظلاً على مَفرق الإسلام والأمم
زيادةُ النيل نقص عند فيضهما	فما عسى يتعاطى مِنّة الديَمِ(١)

ولاقت هذه القصيدة كل استحسان من الخليفة الفائز بنصر الله، ووزيره الصالح ابن رزيك كما يقول عمارة نفسه، فخلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ودفع إليه الوزير خمسمائة دينار، وقدمت له أخت الخليفة مبلغاً مماثلاً، سوى ما قدم له في دار الضيافة من رجال الدولة، وما لاقى من إكرام الأمراء بإقامة الولائم له في دورهم تكريماً له، حتى قال عمارة: «فأوسعني إكرامهما توقيراً، وإنعامهما توفيراً(٢)».

---

(١) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص: ٣٢ ـ ٣٤،
ابو شامة: الروضتين، ١/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٢) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص: ٣٧،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٢٢٦.

وقبل رحيله بوقت قصير أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره الصالح طلائع بن رزيك. فأعطاه الخليفة وأخته، مبلغ ألف دينار والوزير مائتي دينار، وأرسل الوزير معه رسالة إلى ابن والي اليمن لإعفاء عمارة من مبلغ ثلاثة آلاف دينار (٣٠٠٠) كانت لداعي اليمن المتوفى في ذمته، فأعفي حسب ما أورده عمارة نفسه: «فلما وقفت عليه (أي كتاب الوزير) صاحب عدن، أسقط عني الآلاف الثلاثة وأبرأني منها»[١].

ولما آلت الوزارة إلى شاور بن مجير السعدي بعد وفاة ابن رزيك كرّم هذا عمارة، وقرّبه منه، حتى أنّه كان يجلس في اليوم مرتين إلى مائدة الوزير. وأدى تحيز عمارة إلى الفاطميين، إلى كراهية الأيوبيين له واتهامه بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين، فانتهت حياته بالقتل، شنقاً في رمضان سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م.[٢]

٥) مجالس المناظرة والعلم:

لما كانت سياسة الفاطميين الدينية تقضي بنشر المذهب الاسماعيلي، أقيمت المجالس العلمية، لشرح أصول هذا المذهب، في المساجد وفي القصر، ومن ثم في دار العلم، ثم لتعود هذه المجالس وتستقر في المساجد. لكن هذه المجالس لم تقتصر على العلوم الشرعية، بل تعدتها إلى غيرها من العلوم، وأول هذه المجالس.

أ ـ مجالس الدعوة:

كانت مجالس الدعوة تعقد في المساجد وفي القصر الفاطمي بالإيوان الكبير، فيقرأ داعي الدعاة على الناس المحاضرة التي أعدها خصيصاً لذلك

---

(١) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص: ٣٨ ـ ٤٠،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٢٢٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٤٣٥.

كبار دعاة الاسماعيلية أمثال: أبي حنيفة النعمان[1] ويعقوب بن كلس[2]، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي[3]. كما يقرأ عليهم أحياناً من مصنفاته.

وكانت هذه المجالس تعقد للناس بحسب المراتب، فأفرد لآل علي مجلس، وللخاصة (أهل الخليفة) وشيوخ الدولة مجلس، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس، وللعامّة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس، وللحريم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن في مجلس الداعي أو في الجامع الأزهر.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أن الداعي عندما يفرغ من محاضرته على المؤمنين أو المؤمنات، يحضرون إليه لتقبيل يديه، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة (العلامة). وكان لكثرة دخول الناس في

(١) أشهر مؤلفات أبي حنيفة النعمان:
- كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام،
- كتاب الهمة وفضل الأئمة،
- كتاب المجالس والمسايرات،
- كتاب الينبوع،
- كتاب مختصر الإيضاح،
- كتاب أساس التأويل،
- وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة.

(٢) أشهر مؤلفات يعقوب بن كلس (أصله يهودي):
- الرسالة الوزيرية، ونهج فيها نهج ابي حنيفة النعمان في كتبه.

(٣) أما أشهر مؤلفات هبة الله الشيرازي:
- المجالس المؤيدية، - ديوان المؤيد (شعر).
- ميرة المؤيد في الدين، - شرح المعاد،
- كتاب الابتداء والانتهاء، - جامع الحقائق في تحريم اللحوم والألبان،
- كتاب نهج العبادة - كتاب المسألة والجواب،
- وكتاب أساس التأويل.

هذه الدعوة[١] أن صارت تعقد كل اثنين وخميس من الأسبوع، على أن يتصل الدعاة بداعي الدعاة في اليومين المذكورين ليقدموا له ما أعدوه للمحاضرة في مجالسهم ليعرضه على الخليفة ويأخذ توقيعه عليه[٢].

ب ـ مجالس العلوم الأخرى والمناظرات:

وتشجيعاً للمجالس العلمية الأخرى، فقد اشترى العزيز بالله سنة ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م. داراً إلى جانب الجامع الأزهر، وجعلها لخمسة وثلاثين من العلماء، إذ كان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة. ثم أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة، بتحويل جامع الأزهر إلى جامعة تدرّس فيها مختلف العلوم[٣] النقلية والعقلية[٤].

وكان يعقوب بن كلس يحب أهل العلم والأدب ويقرّبهم منه، لذلك جعل في داره كل ثلاثاء مجلساً يجتمع إليه فيه الفقهاء والنحاة وعلماء الحديث، يتناظرون بين يديه. وكان يجلس في يوم الجمعة أيضاً، يقرأ مصنفاته (من الرسالة الوزيرية) على الناس وفي حضرته القضاة، والفقهاء، والقرّاء، وعلماء الحديث، والنحو، وبعض رجال الدولة، وإذا فرغ من قراءة ما يقرأ من الرسالة الوزيرية، قام الشعراء ينشدونه مدائحهم[٥].

ويقول آدم متز إن ابن كلس: «كان يجري بأمر العزيز بالله ألف دينار

---

(١) تتم الدعوة على تسع مراحل، ولمعرفة التفاصيل، يراجع:
المقريزي: المواعظ والاعتبار. ١/ ٣٩١ ـ ٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٣٩١.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية، ١/ ٣٣٠.

(٤) العلوم النقلية: علم التفسير ـ علم القراءات ـ علم الحديث ـ علم الفقه ـ علم الكلام ـ علم النحو ـ علم اللغة ـ علم البيان ـ علم الأدب ـ
أما العلوم العقلية فهي: علم الفلسفة ـ علم الهندسة ـ علم النجوم ـ علم الموسيقى ـ علم الطب ـ علم السحر ـ علم الكيمياء ـ علم الرياضيات ـ علم التاريخ ـ وعلم الجغرافيا.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار. ٢/ ٦.

في شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين»[1]. ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله، ففتح في سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م. دار العلم (دار الحكمة)[2] بالقاهرة وحمل إليها الكتب من خزائن القصور بسائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، وأباح كل ذلك لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ينتفعون منها قراءة ونسخاً، إضافة إلى تزويدها بالمحابر والأقلام والأوراق.

وعقد هذا الخليفة سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٣ م. مجلساً في قصره، ضم مشاهير علماء الرياضة العقلية والمنطق، وجماعة من أهل الفقه، وجماعة من الأطباء فتناظرت كل جماعة منهم منفردة في شتى مسائل اختصاصهم، وفور الانتهاء من هذه المناظرات، والمناقشات منح الخليفة الجوائز وخلع الخلع على أصحابها[3]. وقد بقيت هذه الدار إلى أن أقفلها الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي ثم أعاد فتحها من جديد الخليفة الآمر بأحكام الله بعد وفاة الأفضل.

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية، ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٥٨.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٥٩



الفصل الرابع

الخدمات والمرافق العامة

ذكرنا في الفصل الأول من القسم الأول - بناء القاهرة - أن جوهر الصقلي قائد جيوش الفاطميين، لم يشأ أن يواجه المصريين، وجلهم من السنّة. بإقامة الشعائر الدينية بحسب المذهب الفاطمي، في الجوامع المصرية، لذلك وضع أساس جامع جديد في العاصمة الجديدة (القاهرة المعزية) لتقام فيه الصلاة على المذهب الفاطمي، وبعد ذلك أقام الخلفاء الفاطميون والوزراء والأمراء المساجد والجوامع فيها، بعدما كثر أتباع المذهب الفاطمي - الاسماعيلي، حتى تستطيع غالبية الناس حضور الصلاة حسب شعائرهم.

وعلى الرغم مما ظهر على بعض الخلفاء من مظاهر اللهو والانغماس في إقامة حفلات المجون وشرب الخمر. فقد باشروا بإنشاء الخدمات والمرافق العامة في عاصمتهم القاهرة وخاصة الخدمات الدينية للدلالة على تمسكهم ومغالاتهم بالمظهر الديني خاصة.

أولاً - الخدمات الدينية:

ظلت المساجد بمصر - القاهرة مفتوحة ليلاً ونهاراً، وكثيراً ما استخدمت مأوى لمن لا يجد له مسكناً، وللمسافرين والمتعبدين. لهذا كثرت الحلقات الدراسية في المساجد، حتى قال المقدسي: «لقد شاهدت في أحد الجوامع بالفسطاط، وقد غصت بحلقات الفقهاء وأئمة القرّاء، وأهل الأدب والحكمة، مائة وعشرة مجالس»[1]. وفي أواخر القرن الرابع الهجري سرت في مصر عادة إضاءة المساجد بالتنانير. فعمل عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧ م. في جامع عمرو بن العاص تنور يوقد كل ليلة جمعة. وفي عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢ م. خصه الحاكم بأمر الله بتنور كبير من الفضة، مقداره مائة ألف درهم فضة (١٠٠,٠٠٠ درهم)، وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبتاه حتى أدخل التنور ثم أعيد بناء القبتين بعد ذلك[2].

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٢٠٥.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ١٣٥.

وقد ذكر أنه اجتمع أحد الحواة في إحدى الليالي المقمرة إلى جماعة الرؤساء الذين اتخذوا من صحن المسجد مجلساً للحديث وللنوم، فلما ناموا انفتحت سلة الحاوي، وانطلق ما كان فيها من الأفاعي الغريبة، فأيقظ الجماعة، وكان معهم أطفال وصبيان، فمنهم من صعد على المنبر، ومنهم من تسلق العمد، ومنهم من طلع إلى أعلى المئذنة. وناموا حتى الصباح. وكان قيّم المسجد يعلم أخبار هذه الاجتماعات التي لم تتكرّر بعد تلك الليلة[1].

١) ـ الجوامع والمساجد:

وأنشأ الفاطميون عدداً كبيراً من الجوامع، أهمها:

أ ـ الجامع الأزهر:

وضع القائد جوهر الصقلي أساس الجامع الأزهر في الرابع عشر من رمضان سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠ م.، وانتهى من بنائه بعد حوالى سنتين من ذلك، إذ أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢ م.[2].

وقد تمّ توسيع بناء الجامع بمرور الزمن، حتى أصبحت مساحته اليوم ضعفها عند بنائه[3]. وكان الأزهر يضم قسماً مسقوفاً أعد للصلاة، وقسماً

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار. ٢/ ٣١٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٤٦٤،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٣٢،
ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص: ١٨٢، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، منشورات دار الكتب: القاهرة ١٩٦٩ م.
مؤنس، حسين: المساجد، (٣٧، عالم المعرفة). سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، ص: ٢٠٤.

(٣) مؤنس: المساجد، ص: ٢٠٤.

غير مسقوف كساحة يمكن إقامة الصلاة فيها عند الازدحام في القسم المسقوف، هذا بالإضافة إلى الملحقات، كالمنارات والميضأة وغيرها.

ويطلق على قسمه المسقوف «المقصورة»، وقد أنشأ جوهر الصقلي بها محراباً يعرف اليوم بالمحراب القديم أو «القبلة القديمة»، لإقامة محاريب غيرها بعد الفاطميين، كما نقل المنبر الذي أقامه جوهر الصقلي في هذه المقصورة إلى جامع الحاكم بأمر الله. ثم توالت في الأزهر الإضافات الجديدة من أروقة وممرات ووحدات للتدريس ومحاريب وميضآت ومآذن ومقصورة، بتوالي الدول المتعاقبة على حكم مصر، حتى أصبح الجامع القديم كما يقول مؤنس: محصوراً في قلب الجامع الحالي[1]. وفقد هذا الجامع بهذه الإضافات هيئته الأصلية، ووحدته الفنية، وأصبح «بمثابة متحف للعمارة والزخرفة الإسلامية» على حد قول غاستون فييت[2].

وأشرنا في الفصل السابق إلى أن العزيز بالله الفاطمي قد حوّل الأزهر إلى معهد لتدريس جميع العلوم النقلية والعقلية سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م.، بناءً على نصيحة وزيره يعقوب بن كلس. وهو لذلك أمر بوجوب تأمين المأكل والمشرب والمسكن لرواده من طالبي العلم تشجيعاً لهم. ثم بنى الخليفة بجواره داراً لجماعة من الفقهاء كانوا يجتمعون فيه بعد الصلاة ظهر كل يوم جمعة لإقامة المجالس الدينية[3]. كما كان الوزير ابن كلس يأمر بصرف جعالة سنوية لهؤلاء الفقهاء من ماله.

وكانت محتويات الجامع الأزهر، بعدما جدده الحاكم بأمر الله، ووَقَفَ عليه الأوقاف، حسب اللائحة التالية:[4]

---

(١) مؤنس: المساجد، ص: ٢٠٧.

(٢) فييت، غاستون: القاهرة، ص: ٥٢ ـ ٥٣، منشورات مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤ م.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٧٣.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٤٧٤، السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ٢٩٥.

- الحصرَ العبدانية

- الحصرَ المضفورة

- «عود هندي» و«مسك» و«كافور» للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع

- «شمع» و «مشاقة» لسرج القناديل و «فحم» للبخور

- أربعة حبال، وستة دلاء أدم، وعشر قفاف (جمع قفة) ومائتي مكنسة

- أزيار فَخار وأجهزة حملها

- زيتاً للوقود

- تنورين من الفضة، وسبعةَ وعشرين قنديلاً من الفضة أيضاً.

ب ـ جامع القرافة:

بني هذا الجامع بطلب من الست «تغريد» زوجة المعز لدين الله، فقد أنفقت عليه من مالها الخاص، فكلفت الإشراف على تصميمه وبنائه، الحسن بن عبد العزيز الفارسي، فجاء شكله رباعياً، تحيط به الأروقة من جوانبه، وحديقة غناء وبئر للماء (صهريج) من الجهة الغربية. وكان بابه ذا مصطبة كبيرة تقع تحت المنارة العالية، وهو مصفح بالحديد. ويدخل إلى مقصورة الصلاة في الجامع من أربعة عشر باباً مربعاً، أمام كل باب قنطرة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف. وهذه الأبواب مجوفة (مكندجة) مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر. أما السقوف، فكانت ملونة بمختلف الألوان. وكان في مواجهة الباب السابع، من الأبواب الأربعة عشر، قنطرة على هيئة قوس ملونة بألوان مختلفة، يتبادر إلى ذهن الناظر إليها لأول مرة أنها شكل طبيعي، حاول الصنّاع عمل مثيل لها، فما استطاعوا ذلك[1].

وفي عهد الآمر بأحكام الله، أمر الوزير أبو عبد الله محمد بن فاتك

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٣١٨.

المأمون البطائحي، وكيله أبا البركات محمد بن عثمان بترميم ما تهدم من هذا الجامع وأن يعمر بجانبه طاحوناً للسبيل ويبتاع لها الدواب، ويختار من أهل التقى الساكنين بالقرافة ليجعله وكيلاً عليها، جاعلاً له ما يكفيه، مع علف الدواب، وجميع ما يحتاج إليه من مؤن، على أن تكون الغاية من إنشاء هذا الطاحون إعفاء الضعفاء من كلفة الطحن. وقد بقي هذا الجامع إلى أن احترق بحريق مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م.[(١)]

ج ـ جامع المقس:

أنشأ هذا الجامع الخليفة الحاكم بأمر الله، على شاطىء النيل بالمقس، التي كانت ميناء لمصر آنذاك. وكان إلى جانبه منظرة المقس التي يستعرض منها الخليفة الأسطول الفاطمي، قبل ذهابه إلى الحرب، وعند رجوعه[(٢)]. ووَقَفَ على هذا الجامع كما وقف على غيره الأموال الكافية لمتطلباته[(٣)].

د ـ جامع راشدة:

بدأ الحاكم بأمر الله في بناء هذا الجامع سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م. وانتهى من بنائه وتجهيزه بالفرش والقناديل ليصبح صالحاً للصلاة في سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م.، وكان مكانه كنيسة وحولها مقابر لليهود والنصارى. وسمي بجامع راشدة نسبة إلى خطة (حارة) راشدة التي بني فيها (وهي إحدى القبائل التي اختطت هذه الخطة زمن الفتح[(٤)] الإسلامي لمصر.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ٢/٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٤٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٢٨٣.

(٤) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد المصري: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، طبعة القاهرة ١٣٠٩ هـ/١٨٩٣م. ٤/ ٧٨ ـ ٧٩.
لم يظهر منه الا الجزءان الرابع والخامس.
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٨٤.

وركب الحاكم بأمر الله للصلاة وإقامة الخطبة في جامع راشدة في رمضان سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م. وفي سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م. بعمامة خالية من الجوهر، وكان يحمل سيفاً محلى بالفضة البيضاء الدقيقة الصنعة، فمشى الناس في ركابه، يسلّمونه شكاياتهم، فيقف طويلاً للاطلاع عليها ومعرفة أسبابها[١].

وحدث في سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م. أن أقيمت فيه خطبتان معاً على المنبر واحدة لعلي بن السميع العباسي، بإذن من القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن العوام، وأخرى لابن عصفورة، بإذن من الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله. فصعدا المنبر معاً، ووقف أحدهما دون الآخر، وخطبا. وسوّي هذا الإشكال فيما بعد، بالإبقاء على علي بن عبد السميع العباسي خطيباً للجامع، على أن يخلفه ابن عصفورة في حال الغياب[٢].

هـ ـ جامع الحاكم:

أسس هذا الجامع العزيز بالله في رمضان سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م. خارج باب الفتوح الذي أنشأه جوهر الصقلي. وقد صلى فيه الخليفة الجمعة في رمضان سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م. ولما يكمّل. فأخذ على نفسه خليفته وابنه الحاكم بأمر الله إتمامه. فباشر ذلك اعتباراً من سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م. وبلغت تكاليف إتمامه أربعين ألف دينار (٤٠,٠٠٠ دينار). وقد جاء هذا الجامع، الذي أشرف عليه وصحح محرابه الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد، على غرار جامع أحمد بن طولون من حيث دعائمه المبنية بالآجر، وجعل له مئذنتين، إحداهما اسطوانية، فوق قاعدة مربعة، بداخلها درج حلزوني، ومقسمة بالنوافذ والأفاريز الزخرفية إلى عدة طبقات. والأخرى مربعة، مثمنة الزوايا من فوق، ذات طبقات تزداد مع الارتفاع صغراً. لذلك فهي

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ٢/ ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

كما يقول «Ernest Kuhnel»[1] «النموذج الأصلي لما جدّ بعد ذلك من مآذن القاهرة».

ثم أمر الحاكم بأمر الله إعداد بيان بما يحتاج إليه هذا الجامع من الحصر والقناديل والسلاسل، فبلغت أكلاف ذلك خمسة آلاف دينار. وفور الانتهاء من بنائه علقت على أبوابه الستور الدبيقية، وعُلقت فيه أربعة تنانير فضية، وفرشت أرضه بالحصر، وجعل فيه منبر. وصلى فيه الحاكم بأمر الله بالناس الجمعة، السادس من رمضان سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م.، فكانت أول صلاة تقام فيه بعد الانتهاء من بنائه. وفي السنة التالية، وقف عليه الخليفة أوقافاً عدّة، وقد طرأ على الجامع فيما بعد تغيرات كثيرة إذ زاد فيه المستنصر بالله، وكذلك وزيره أمير الجيوش بدر الجمالي، حتى أصبح داخل سور القاهرة عندما أعاد بناء سور القاهرة وأضاف إليها مساحات جديدة[2].

و ـ جامع الأقمر:

يمتاز هذا الجامع بواجهته الفخمة، الغنية بالحنايا، والتضليعات، وعلى أول مثال للمقرنصات الزخرفية في الأراضي المصرية. لهذا يعتبر ثالث المساجد الفاطمية من حيث الأهمية[3]. وقد بنى الجامع الأقمر الخليفة الحاكم بأمر الله، أمام قصره في سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م.، فجعل في الطابق الأرضي منه دكاكين ومخازن تطل واجهاتها لجهة باب الفتوح، ووقف عليه، دار النحاس، وحمام شمول، ورتب له المؤذنين والخطباء[4].

---

(١) آرنست كونل "Ernst Kühnel": الفن الإسلامي، (منشورات دار صادر) بيروت ١٩٦٦م، ص: ٤٨.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٧٨.

(٣) آرنست كونل: الفن الإسلامي، ص ٤٨١.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٩٠.

ز ـ جامع الظافر:

عمّر هذا الجامع الظافر بأمر الله سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م.، وقد كان فيما سبق زريبة تعرف بـ«دار الكباش» في وسط سوق السرّاجين. وكان يقال له الجامع الأفخر. وقد غصّ بالمؤذّنين وبحلقة لتدريس الدين والفقه[١].

ح ـ الجامع الصالح:

أنشأه الوزير طلائع بن رزيك وزير الفائز بنصر الله في سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٦٠م.، وأنشأ له بئراً (صهريجاً) تملأ من ساقية على الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين، أو خليج القاهرة. وتهدم هذا الجامع بزلزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣١١م.[٢]

ط ـ جامع الفيلة:

بناه الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي في شعبان سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م.، على سطح الجرف (ويعرف بالرصد) المطل على بركة الحبش. بلغت تكاليفه ستة آلاف دينار. وعرف بجامع الفيلة لأن في قبلته، تسع قباب في أعلاها قناطر يخالها الإنسان إذا رآها من بعيد كمدرعين على فيلة، وهو ما يعمل في الأعياد وأيام المواكب. وبنى الأفضل تحته بئراً (صهريجاً)[٣].

ولما كانت الدولة الفاطمية، قد أولت الناحية الدينية عنايتها الكاملة، لكونها مظهراً من مظاهر السياسة والسيادة الفاطميين، واستمراراً للشعائر الدينية الاسماعيلية فقد أقامت الأحباس للمساجد والجوامع، التي تولاها قاضي القضاة. لذا يعود إليه وحده أمر هذه الأحباس، فهو الوكيل (نائب الخليفة) والقيم عليها، ويتم تسجيلها بديوان المفرد.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ٢/ ٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٢٨٩.

ويقدم إلى كل مسجد، على العموم، النفقات التالية: زيت السرج والحصير سجاجيد الصلاة، ورواتب القوّام (جمع قيّم) والفراشين والمؤذنين وغيرهم[1]. وجمعت أحباس الجوامع سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م. فبلغت مليوناً ونصف المليون من الدراهم (١,٥٠٠,٠٠٠)، وزع منها على كل مشهد خمسين درهماً في الشهر برسم الماء لزوارها[2].

ولكثرة ما استجد من بناء المساجد في القاهرة ومصر (الفسطاط) فقد أحصي ثمانمائة مسجد في أيام الحاكم بأمر الله، لا أحباس لها، فأطلق لها من بيت المال مبلغ تسعة آلاف ومائتي درهم، وهو ما جعله في سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م. يأمر بحبس خمس ضياع على هذه المساجد، وحبس غير هذه الضياع على القرّاء والمؤذنين، ومن أجل أكفان الموتى[3]، في الوقت الذي كان فيه قد أمر بقطع الرسم الجاري على الخبز والحلوى الذي كان يقام في الأشهر الثلاثة (رجب، شعبان، رمضان) لمن يبيت بجامع القاهرة في ليالي الجمع والأنصاف (أي أنصاف الأشهر الثلاثة)[4].

فمن عادة قاضي القضاة والقضاة نوابه، أن يطوفوا قبل رمضان بثلاثة أيام على المساجد والمشاهد بمصر ـ القاهرة، ليتفقدوا، حصرها وقناديلها وعمائرها، وما يتشعث منها. فيبتدئون بجامع المقس، ثم جامع القاهرة (الأزهر) ثم المشاهد فالقرافة، فجامع عمرو بن العاص، ثم مشهد الرأس (رأس الحسين بن علي)[5].

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٩.

(٢) مبارك، علي باشا: الخطط التوفيقية، ١/ ٤٧. الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٩ م.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٩.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٩.

(٥) مبارك: الخطط التوفيقية، ١/ ٤٧.

٢) الصلاة والأذان:

وحافظ الفاطميون على إقامة الصلاة في أوقاتها المحددة، لهذا عينوا شخصاً للتنبيه إلى أوقات الصلاة وتذكير الناس بالصلوات، فلقب بالميقاتي. وحتى يعرف الميقاتي الأوقات الصحيحة، فقد كان ينظر إلى المزولة المقامة على أحد جدران صحن الأزهر. وكانت بقية مساجد القاهرة تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر[١].

وجهروا بالبسملة في الصلاة، فلم يزل الأمر على ذلك طول مدة الخلفاء الفاطميين، إلا أن الحاكم بأمر الله أمر في سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. بجمع مؤذني القصر وسائر الجوامع بحضور قاضي القضاة، مالك بن سعيد الفارقي، فقرأ أبو علي العباسي سجلاً فيه الأمر بترك: «حي على خير العمل» في الأذان، وأن يقال في صلاة الصبح «الصلاة خير من النوم». وأن يكون ذلك من مؤذني القصر عند قولهم: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله» ثم سمح للمؤذنين بالقول: «حي على خير العمل» في سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م.، ثم منع الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م. مؤذني القصر ومؤذني جامع القاهرة من قولهم بعد الأذان: «السلام على أمير المؤمنين» وأمرهم أن يقولوا بعد الأذان: «الصلاة رحمك الله»[٢]، لتبدأ بعد ذلك الصلاة التي يخطب الخلفاء فيها عادة، في كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة، من ديوان الإنشاء[٣].

٣) الخدمات المدفنية:

اتخذ الفاطميون لهم بالقاهرة، تربة دفنوا فيها أمواتهم، عرفت بـ«تربة الزعفران». بينما دفن الرعية من مات منهم في القرافة. ولما بنيت الحارات

---

(١) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٢٧٧ ـ ٢٨١،

متز: الحضارة الإسلامية، ٢/ ١٠٠.

خارج باب زويلة، دفنوا موتاهم بين جامع الصالح بن رزيك وقلعة الجبل. والجدير بالذكر أن المعز لدين الله دفن آباءه الذين أحضر معه أجسادهم في توابيت من بلاد المغرب وهم: عبيد الله المهدي، وابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، وابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر اسماعيل وأولادهم ونساؤهم بتربة الزعفران، لذلك سميت «التربة المعزية»، واستقرت فيما بعد مدفناً للخلفاء الفاطميين.

ودفن أمير الجيوش بدر الجمالي عند وفاته خارج باب النصر، فاتخذ الناس هنالك أيضاً مقابر لموتاهم، وكثرت التعديات في أثناء الشدة العظمى، في عهد المستنصر بالله، على التربة المعزية ونهبها الاتراك، فأخذوا ما فيها من قناديل الذهب، التي بلغت قيمتها مع غيرها من الآلات الموجودة هناك مثل المداخن والمجامر وحلى المحاريب وغير ذلك، نحو خمسين ألف دينار[1]. وخربت هذه التربة بذهاب دولة الفاطميين، ولا سيما عندما أخرج جهاركس الخليلي في أيام الناصر بن قلاوون، من هذه التربة ما شاء الله من عظامهم وألقاها في المزابل على كيمان البرقية لينشئ خانه المعروف بخان الخليلي (نسبة إليه)[2].

أما أهل الحسينية فقد اتخذوا مقابر لموتاهم خارج باب النصر، واتخذ بعض أهل القاهرة مقابر لهم في الموضع الذي عرف بميدان القبق ما بين القلعة في الجبل وقبة النصر[3].

ثانياً ـ الخدمات الثقافية:

نشأت الدولة الفاطمية في مصر في عصر انتشرت فيه الثقافة الإسلامية انتشاراً كبيراً، بفضل رعاية الدولة العباسية لحركة الترجمة من اللغات اليونانية

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٠٧ ـ ٤٠٨،
مبارك: الخطط التوفيقية، ١/٣٩.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٠٨.

(٣) المصدر السابق: ٢/٤٦٣.

والفارسية والهندية والسريانية إلى العربية، وتطور علم التأريخ منهجاً ومفهوماً، لنضج ملكات المؤرخين والأدباء المسلمين في البحث والتأليف.

وتقاطر رجال العلم والأدب إلى بلاط الدويلات التي نبتت فوق جسم الدولة العباسية الهرمة والضعيفة في سائر الأمصار، وفي اتجاهات مختلفة، حتى غصت بلاطات هذه الدول الجديدة بعدد وافر من الشعراء والأدباء والعلماء والفقهاء، الذين تقاطروا إليها وراء الكسب المادي والشهرة المعنوية، فلاقوا كل تشجيع ورعاية، وقد ترك بعضهم[1] بغداد نفسها بعدما أصاب الدولة العباسية الضعف، وقلّت مواردها، وشحّت بالتالي عطاءاتها، وندرت جوائزها. فاستقطبت الدولة الفاطمية، في جملة الدول المستفيدة من انحلال الدولة العباسية وتفسخها ووهنها، عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء والعلماء والفقهاء، لما بذلته لهم ومنحتهم إياه من جوائز وخلع فخمة وأنيقة، هادفة من وراء ذلك التشجيع، إلى جذب رجال العلم والأدب إليها، لتأخذ دور العباسيين، فتحاكي القاهرة بغداد، ويباهي المعز لدين الله والعزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله، الرشيد والأمين والمأمون العباسيين.

فازدهرت الآداب والعلوم الأخرى برعاية الخلفاء الفاطميين ووزرائهم، ولعبت مساجدهم وقصورهم كمراكز ثقافية دوراً بارزاً في إحياء ونشر الثقافة الدينية والعقلية:

١) القصور الفاطمية:

تاقت نفس ابن كلس إلى الولاية (الوزارة) لما علم أن كافوراً الأخشيدي قال عنه: «لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً»[2]. فأحضر من علّمه شرائع الإسلام سرّاً، فحفظها بسرعة، وأقبل على هضمها وتفقهها، فما أن

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٣١٩،
ياقوت: معجم البلدان، ١/ ٤٦٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٥.

أصبح وزيراً للعزيز بالله، حتى أكب على تأليف الكتب الدينية في القراءات والأديان وآداب الرسول، وفي الفقه مما سمعه من الخليفة المعز لدين الله والعزيز بالله، ومن الكتب العلمية فيعلم الأبدان وصلاحها[1].

لهذا أحب أهل العلم، وجمع العلماء في قصره، يقرأ عليهم كل خميس مساء مصنفاته بحضور القضاة والفقهاء، والقرّاء، وأصحاب الحديث والنحاة والشهود. وكان الشعراء ينبرون بعد انتهائه من قراءة ما يقرأ من مؤلفاته المذكورة أعلاه، ينشدون مدائحهم[2]. كما نقل الدواوين إلى قصره، حتى أصبح قصره كخلية نحل تعج بالموظفين الذين يشتغلون بنسخ القرآن الكريم، أو نسخ كتب الحديث والفقه والأدب، وبعض كتب العلوم حتى الطب منها. وإذا انتهى النسّاخون من نسخها، قوبلت بالنسخ الأصلية، وضبطت بالشكل والنقط. ومن الذين ترددوا على قصره الفقيه الحسن بن عبد الرحيم المعروف بـ«الزلازلي» مؤلف كتاب «الأسجاع»[3]. وأصبح فيما بعد كتابه في الفقه معتمداً يدرّس فيه الفقهاء بجامع عمرو بن العاص، كما كان الناس يفتون به في الفقه.[4]

وجعل ابن كلس بقصره أيضاً القرّاء والأئمة، وخصص لهم الأرزاق من أجل إقامة الصلاة في المسجد الذي بناه في قصره هذا.

٢) المساجد:

بالرغم من أن اللغة العربية قد حلت بسرعة محل اللغة القبطية في الفسطاط، فإن هذه الأخيرة لم تكن في أي حال من الأحوال مركزاً لنشاط

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ٦/٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٩/٧،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٦/٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٩/٧.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٧/٢.

أدبي أو ديني يحاكي في الأهمية، مركز بغداد أو يقارب ما كانت عليه البصرة والكوفة[1]. وقد برّزت القاهرة الفسطاط وماشت بغداد في مجال الأدب والشعر وحتى العلوم الأخرى، إذ أصبحت مساجد عمرو بن العاص، وابن طولون والأزهر والحاكم، مراكز ثقافية هامة ولا سيما بعد أن أشار يعقوب بن كلس على العزيز بالله بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرّس فيها العلوم الإسلامية المحضة، والدراسات المتوارثة عن العالم القديم مثل: الرياضيات والفلك والمساحة والعلوم الطبيعية وعلم الأحياء والطب والنحو والشعر والفنون والفلسفة بفروعها المختلفة، بعد أن كان في السابق مقتصراً على تدريس الدعوة الفاطمية ونشرها.

ثم ما لبث أن عين الوزير يعقوب بن كلس، للتدريس في الأزهر خمسة وثلاثين استاذاً للشريعة[2]. وكان أول الاساتذة الذين تولوا التدريس في الأزهر، القاضي أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد المتوفى سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م.، ابن داعي الدعاة والفقيه الاسماعيلي النعمان بن محمد المغربي المتوفى سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م.، وكذلك كان أخوه القاضي محمد بن النعمان ابن محمد المتوفى سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م.، أما أشهر من درّس في الأزهر في العصر الفاطمي، فهم: الامير المختار، عبد الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحراني المعروف بالمسبحي، المؤرخ عاش ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م. ـ ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م.، وأبو عبد الله القضائي المؤرخ المعروف المتوفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م.، وهو أول من كتب في خطط مصر، والذي أخذ عنه تقي الدين أحمد المقريزي، والحسن بن زولاق الذي ولد بالفسطاط (٣٠٦هـ/ ٩١٨م. ـ ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م.) المؤرخ الذي احتفظ علي بن سعيد بكتابه عن الدولة الأخشيدية، وأبو القاسم الرعيني الشاطبي، عالم القراءات المشهور. كما

---

(١) فييت: القاهرة، ص: ٢٤ ـ ٣١.

(٢) المرجع السابق: ص: ٥٦.

درّس في الأزهر من علماء الرياضيات آنذاك الحسن بن الخطير الفارسي.[1]

وظلت المساجد في العصر الفاطمي محجة للعلماء، من فقهاء المذهب الشيعي الذين تولوا شرح عقائد المذهب الاسماعيلي، بالإضافة إلى القضاة والوزراء المشتركين في تأليف الكتب التي اعتمد المدرّسون تدريسها، ومن ذلك: كتاب الوزير يعقوب بن كلس في الفقه الشيعي المعروف بكتاب الوزير أو «الرسالة الوزيرية»، والذي بموجب أحكامه قضى القضاة في محاكمهم المعقودة في المساجد عادة، كما كان على الطلبة أن يتدارسوه فيما بينهم.

وعندما قامت دولة صلاح الدين بن أيوب، أوقف التدريس في الأزهر وأبطل المذهب الاسماعيلي (الشيعي) بإقالة قضاته، وتعيين قضاة شافعيين مكانهم، وأنشأ المدارس لتقوم بتدريس الفقه السنّيّ. وهكذا لم يستعد الأزهر مكانته الدينية ودوره العلمي إلا في العصر المملوكي، بتحويله إلى جامعة علميّة حقيقية[2].

٣) المكتبات:

واقتدى الفاطميون بالعباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس، باقتناء الكتب النادرة في مختلف العلوم، وقد بدأ ذلك العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين بمصر، ووزيره يعقوب بن كلس الذي اشتهر بحبه للعلم وتشجيعه للعلماء والأدباء، فحبب للخليفة اقتناء الكتب، حتى جمع منها جانباً كبيراً، وخصص لها قاعات في قصره، سماها «خزانة الكتب». وأنفق بسخاء في سبيل الاستكثار من المؤلفات المهمة في الفقه والأدب والتاريخ، وتحققت أمنية الفاطميين بالمكتبات التي أنشؤوها وهي:

---

(١) مؤنس: المساجد، ص: ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق: ص: ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

أ ـ خزانة الكتب:

احتلت خزانة الكتب عدة قاعات في القصر الكبير الشرقي، وتولى الجليس بن عبد القوي العناية بها، والمحافظة على كتبها، وتنظيم عملية الاستعارة والاستعادة وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف مقطعة بحواجز، ذكر بعض المؤرخين أنه كان فيها أكثر من مليون وستمائة ألف كتاب (١,٦٠٠,٠٠٠ كتاب)[١] في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ وعلم التنجيم (الفلك) والروحانيات والكيمياء التي زادت كتبها الخاصة على ثمانية عشر ألف كتاب، غير أدوات الهندسة والفلك.

ولم يتفق المؤرخون على رقم واحد لعدد الكتب التي كانت في خزانة الكتب، فبالغ بعضهم، وقلل بعضهم الآخر. ففي الوقت الذي استولى فيه صلاح الدين على القصر يذكر المقريزي نقلاً عن ابن أبي واصل «أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد»[٢]، ويذكر أبو المحاسن[٣]: «انها بلغت مائة ألف مجلد». ان مكتبة يوجد فيها من «كتاب العين» للخليل نيف وثلاثون نسخة بخط الخليل نفسه، ومائة نسخة من «كتاب الجمهرة» لابن دريد، ويتزايد فيها على التوالي عدد النسخ بمرور السنين من كتاب الطبري ليصل الرقم إلى ألف ومائتي (١٢٠٠ كتاب) نسخة عند استيلاء صلاح الدين على الحكم، إن مثل هذه المكتبة لا يعقل أن يكون فيها أقل من مليون كتاب، بدليل أن الآمر بأحكام الله، عند وفاة وزيره الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، صادر ممتلكاته، فكان من جملتها خمسمائة ألف كتاب (٥٠٠,٠٠٠ كتاب) نقلت كلها إلى مكتبة القصر[٤].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٢) المصدر السابق: ١/٤٠٩.

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٠١.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ١/٥٧،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٠٩ و٢/٣٦٦ ـ ٣٦٧.

وثمة أدلة أخرى، منها أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قد حمل منها مائة ألف مجلد، وقفها على مدرسته الشافعية، من أصل مجموع الكتب البالغ: مائة ألف كتاب، أو مائة وعشرين ألف كتاب، أو مائتي ألف كتاب حسبما ذكره بعض المؤرخين(1)، فلو افترضنا أن هذا صحيح، فمن أين «لابن صورة» الكتب التي يقضي عشر سنين حتى يتم بيعها؟ وإذا صدقنا جدلاً ما قاله ابن خلدون(2): «ان ما وجده صلاح الدين من الكتب ما يناهز مائة وعشرين ألف سفر (١٢٠,٠٠٠ كتاب)» فهل يصدق ما ذكره أبو شامة، في هذه الحالة(3):

«أن يستغرق بيع الكتب مدة عشر سنين، وعلى مدى يومين في الأسبوع»؟. فمن هذا المنطلق نرجح أن عدد الكتب في خزائن الكتب الفاطمية لم يقل عن المليون كتاب (١,٠٠٠,٠٠٠ كتاب).

ورعى الخلفاء هذه الخزائن رعاية جيدة، حتى أنهم كانوا يتفقدونها من وقت لآخر، فالعزيز بالله كان يتفقد «خزانة الكتب» ويجلس على دكة عالية بها، يستمع إلى أمينها (متولي المكتبة) يقرأ له أسماء الكتب الجديدة المختلفة ليوقع عليها الخليفة، ويوافق على اقتنائها، كما يعرض عليه نسخاً مختلفة الأحجام من القرآن الكريم(4). ممن عمل كأمين لخزانة الكتب، أبو الحسن الشابشي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م(5).

ب ـ دار العلم:

أنشأ الحاكم بأمر الله في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ/

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٠٩.

(٢) ابن خلدون: العبر . . . ، ٤/ ٨١ ـ ٨٢.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ١/ ٢٦٨.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٠٩.

(٥) زيدان: التمدن الإسلامي، ٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

١٠٠٥م. معهدا أكاديمياً (بجوار القصر الغربي) في القاهرة، أطلق عليه اسم «دار الحكمة» وتردد إليها الفقهاء، والمقرئون، والنحويون، والأطباء، والمنجمون، وغيرهم من أرباب العلوم، لتعليم الناس. وقد فرشت بمختلف أنواع الفرش وزودت بكل ما يحتاج إليه المعلمون والمتعلمون، إذ علقت الستور على جميع أبوابها وممراتها، وخصص لها قيّم لخدمتها، وجماعة من الفراشين، يعتنون بفرشها. وأجريت الأرزاق على جميع من كان فيها من قرّاء وفقهاء وخدم[١].

وألحق بدار الحكمة مكتبة عرفت بـ «دار العلم» نقل إليها الكتب من خزائن القصر، في العلوم والآداب، وبالخطوط المنسوبة إلى أشهر النسّاخ، ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد من الملوك أو الخلفاء المسلمين. وقد جهزت دار العلم بما تحتاج إليه من الحبر والأوراق والاقلام، وأبيح ذلك كله لمن يريد قراءة الكتب ونسخها[٢]. والجدير بالذكر أن فتح دار الحكمة، وإلحاق مكتبة بها (دار العلم)، جاء تقليداً «لبيت الحكمة» العباسي في بغداد، والذي هدف لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف، ينهلون من الكتب الكثيرة النادرة والغالية الثمن والموضوعة بتصرف الجميع في «دار العلم» حيث لم يكن بوسع الجميع امتلاكها، وخاصة عامة الناس، لذلك توفرت بفضلها الأبحاث العلمية الكثيرة.

---

(١) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٦٠،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٥٦،
زيدان: التمدن الإسلامي، ٣/ ٢٣٢.

(٢) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٦٠،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩ و٢/ ٣٤٢
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٥٦،
زيدان: التمدن الإسلامي: ٣/ ٢٣٢.

وقد أورد المقريزي[1] لائحة بالمبالغ التي أنفقت على دار العلم سنوياً، فبلغت موازنة تلك الدار في كل سنة مائتين وسبعة وخمسين ديناراً (٢٥٧ ديناراً) وزعت هذه النفقات على الشكل التالي:

	دينار
ـ ثمن الحصر العبداني	١٠
ـ ثمن لبود الفرش في الشتاء	٥
ـ ثمن طنافس في الشتاء	٤
ـ لمرمة الستارة	١
ـ للخازن	٤٨
ـ للفراشين	١٥
ـ ثمن الماء	١٢
ـ للمناظرين في الورق والحبر والاقلام	١٢
ـ لمرمة الكتب	١٢
ـ للورق	٩٠

وكان الحاكم بأمر الله يستدعي إلى قصره بعض مشاهير علماء «دار الحكمة» ويأمرهم بالمناظرة، كما كان يفعل المأمون العباسي، ثم يخلع عليهم الخلع والجوائز بعد انتهاء المناظرة. وسمح بإقامة المناقشات بين المترددين عليها، إذ كانوا يتحلقون حلقات حلقات في المكتبة «دار العلم»، غالباً ما انتهت تلك المناقشات (المجادلات) إلى الخصام بين المتجادلين، وهو ما شجع أصحاب البدع ليأخذوا من تلك الاجتماعات أرضاً خصبة لبذر آرائهم بين الناس، فاضطر، والحالة هذه، الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، إلى إقفالها في أوائل القرن السادس الهجري. ولما توفي الأفضل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، أمر الآمر بأحكام الله، وزيره المأمون البطائحي بإعادة فتح «دار

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٥٩،

متز: الحضارة الإسلامية، ١/ ٣٣١.

الحكمة» سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م. مشترطاً اقتصارها على الأوضاع الشرعية، مولياً عليها أبا محمد الحسن بن آدم، ومستخدماً فيها المقرئين للقرآن الكريم[(١)].

وحدثت، في أيام الحافظ لدين الله، قصة غريبة، عندما تم تكليف قاضي القضاة هبة الله حسن الأنصاري، التدريس بدار العلم، بالإضافة إلى عمله قاضياً للقضاة، فمضى إليها، ولما كان بها مدرس آخر هو أبو الحسن علي بن اسماعيل، جرت بينهما مشادة كلامية بدأت بالتلاسن لتنتهي بالتماسك بالأيدي[(٢)].

وتشبّه الوزراء بالخلفاء، فاقتنوا الكتب وخصصوا القاعات في قصورهم للمكتبات التي زخرت بمختلف أنواع الكتب، وأخصوا بها الكتّاب ينسخون القرآن الكريم والفقه وغيره. ووضع بعض الوزراء أمثال يعقوب ابن كلّس المؤلفات التي اتخذها القضاة والفقهاء سنناً لهم يسيرون على هديها في أحكامهم وفتاويهم[(٣)]. واستخدم الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي في خزانة كتبه، يانس الناسخ الذي جاء من الشام، بجعالة شهرية، قدرها عشرة دنانير، وثلاث رزم من الكسوة في السنة، وغيرها من الهبات والرسوم[(٤)].

وقد أصاب المكتبات الفاطمية المحن الكثيرة، بتوالي الفتن على البلاد ولا سيما في عهد المستنصر بالله، فأصبحت الكتب تؤخذ من القصور الفاطمية سداداً للديون، فأخذ منها الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي هو

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٤٥ و٤٥٩،
زيدان: التمدن الإسلامي، ٣/ ٢٣٢،
متز: الحضارة الإسلامية، ١/ ٣٣١ ـ ٣٣٢.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٦ ـ ٧.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٥١.

والخطير ابن الموفق في الدين حمولة خمسة وعشرين جملاً من الكتب، وهذه الحمولة من الكتب هي وفاء لخمسة آلاف دينار عن جاري مماليكهما وغلمانهما، تساوي قيمتها أكثر من مائة ألف دينار (١٠٠,٠٠٠ دينار)، هذا عدا عن الكتب التي أخرجت من دار العلم وصارت إلى عماد الدولة ابن أبي الفضل بن المحترق والتي حملها معه إلى الاسكندرية، ومن ثم نقلت إلى بلاد المغرب بعد وفاته[١].

على أنه يجب ألا ننسى ما أصاب هذه المكتبات بعد سرقة محتويات القصر الفاطمي بين سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م. - ٤٦٥هـ/١٠٧٣م.، إذ ألقي ببعض الكتب في النار وبعضها الآخر في النيل، وترك ما تبقى في الصحراء تَسِف عليه الرياح الرمال حتى صار تلالاً عرفت فيما بعد بتلال الكتب، ولما كانت بعض هذه الكتب مجلدة تجليداً فنياً بجلود الحيوانات، لذلك اتخذ العبيد من جلدها نعالاً للأحذية[٢].

ثم استعادت المكتبات الفاطمية بعضاً من النشاط، وعرفت بعضاً من حركة الرواد فيها بإعادة بعض الكتب المسروقة، وإضافة الكتب الجديدة، لأن ما أعطاه صلاح الدين إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني قدّر بمائة ألف كتاب (١٠٠ ألف كتاب) وطرح الباقي للبيع فاستمر أكثر من عشر سنين[٣] وهدم دار الحكمة وبنى مكانها مدرسة للشافعية.

٤) بقية العلوم:

ولقد لقيت العلوم الفلكية، والرياضة العقلية، وكذلك علوم الطب والفلسفة، والتأريخ، والجغرافيا... الخ.، رعاية. يؤكد ذلك أن غالبية

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٠٩.

(٢) المصدر السابق: والصفحة نفسها.

(٣) ابن خلدون: العبر ...، ٤/٨١،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٠٩ و٢/٣٦٦.

العلماء الذين شاركوا في إحياء النهضة الإسلامية في العصر الفاطمي كانوا من مصر. فأنشأ الفاطميون مرصداً على جبل المقطم عرف بالمرصد الحاكمي نسبة إلى الحاكم بأمر الله. وفي هذا المرصد استخرج علي بن يونس، الزيج الحاكمي[1]. وأعيد بناء هذا المرصد في ايام الأفضل ابن أمير الجيوش، لكنه كسر، وأبطل العمل به بعد وفاة خليفته الوزير المأمون، بأمر من الخليفة الآمر بأحكام الله نفسه[2].

واشتهر من علماء تلك الحقبة التاريخية ابن يونس، أول مكتشف نظرية حساب المثلثات الكروية التي أفاد منها كثيراً الفلكيون، قبل اكتشاف علم الأسيس (اللوغاريتم). وكذلك ابن الهيثم الذي كتب في الموازين، وتكوين العالم وبعد المجرة وقوس القزح، والمرايا المحدبة والمقعرة، وضوء الشمس، وأخيراً رسالته الشهيرة «رسالة في البصريات». وعمّار بن علي طبيب العيون الذي أهدى الحاكم بأمر الله كتابه في أمراض العيون. كما ترك لنا ابن رضوان طبيب الحاكم بأمر الله كتاباً غريباً في علم المناخ[3].

ثالثاً ـ الخدمات الصحية:

يبدو أن الخدمات الصحية في الدولة الفاطمية لم تلق العناية الكافية التي لقيتها الخدمات الثقافية والعلمية، أو المساجد والجوامع، إذ استمرت في العمل البيمارستانات التي أسسها أحمد بن طولون أو الأخشيد في مصر، وذلك لأن الخلفاء الفاطميين جمعوا في قصورهم، أشهر الأطبّاء، بعد أن أغدقوا عليهم الأموال الكثيرة والخلع ومنحوهم الدور، وأولوهم الوظائف

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٤٢٩ ـ ٤٣١ و٥/ ٢٩٥.
زيدان: التمدن الإسلامي، ٣/ ٢١٤،
فييت: القاهرة، ص: ٥٩ ـ ٦٢،
مبارك: الخطط التوفيقية، ١/ ٥٦.
(٢) مبارك: الخطط التوفيقية، ١/ ٥٦.
(٣) فييت: القاهرة، ص: ٦٠ ـ ٦١.

والمناصب، واستشاروهم وكرموهم، ولقبوهم بألقاب الشرف كـ «سلطان الحكماء، وأمين الدولة، ومعتمد الدولة». وخاطبوهم كما يخاطب الأمير أو الوزير. وليس أدلّ على ذلك الاحترام والإكرام من كتاب العزيز بالله إلى طبيبه: منصور بن مقشر، الذي أقعده المرض عن زيارة الخليفة، فلما تماثل إلى الشفاء، كتب إليه العزيز بالله بخط يده الرسالة التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم

على طبيبنا ـ سلمه الله ـ سلام الله الطيب، وأتمّ النعمة عليه.

وصلت إلينا البشارة، بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا، أقالك الله العثرة، وأعادك إلى أفضل ما عودك من صحة الجسم، وطيبة النفس، وخفض العيش بحوله وقوته».[1]

وجعل الفاطميون الأطبّاء مداومين على الخدمة في القصور، لتطبيب الخلفاء، ومن اعتلّ من أهل الحكم، بينما بقيت المستشفيات القليلة تابعة للمعاهد العلمية يتخرج منها الأطبّاء في الاختصاصات الآتية: الأمراض الداخلية، والجراحة، وأمراض العيون. كما كانت هناك مستشفيات (بيمارستانات) تعنى بالمجانين، ففي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م.، زار الظاهر لإعزاز دين الله مستشفى المجانين متنكراً، فأمر بنهاية الزيارة أن يوزع خمسون درهماً لكل مجنون من المجانين، وبدفع خمسمائة درهم للقيّم (المشرف)، وإجراء التصليحات اللازمة، وتزويده بالمياه الكافية كالمعتاد، وأن يطبخ للمجانين كل يوم ما يأكلونه بعد تناول أدويتهم[2].

وشأن الوزراء في حقل الصحة كشأنهم في بقية الحقول، وهو التشبه بالخلفاء، لذلك أحاطوا أنفسهم بالأطبّاء، فخصص ابن كلس في قصره

---

(١) زيدان: التمدن الإسلامي، ٣/ ١٨٦.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٤٣.

جناحاً، يتردّد إليه العدد الكافي من الأطبّاء لمداواة المرضى. ووصف ما يلزمهم من الأدوية، التي غالباً ما كانت تعطى لهؤلاء المرضى مجاناً. وقد وضع الطبيب، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، كتاباً في عدة مجلدات، سمّاه: «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء»، وقدمه للوزير يعقوب بن كلس.

وجاء تكريم الأطبّاء، من جملة الأعمال التي أرادوا من ورائها الثواب المعنوي، فهذا الحاكم بأمر الله يكرم الطبيب ابن مقشر باستدعائه إلى القصر مع جماعة من الأطبّاء. ثم خلع عليه وأركب على بغلة، وسُيِّرَ معه ثلاث بغلات كلها مسرجة وملجمة، وحُمِلَ معه عشرون سفطاً من أنواع الثياب الملونة، وغادر القصر يرافقه الخدم حتى أصابته الحيرة، وأخذته الدهشة، وتلعثم لسانه عن الكلام، وقال لجماعة الخدم المرافقين بعد أن ساروا به في طريق مغايرة لطريق بيته: «إلى أين أذهب؟ ليس هذا طريقي إلى منزلي». فقيل له: «ها هنا تنزل». طبعاً بعد أن أُخذ إلى الدار التي اشتريت له بأربعة آلاف دينار، وفرشت بمختلف أنواع الفرش، وزينت، وعلق على أبوابها ونوافذ غرفها الستور، وأعدّ فيها جميع ما يحتاج إليه، وأدخل إليها، ثم قيل: «هذه دارك، وما فيها فهو لك»[1].

كما خلع الحاكم بأمر الله على طبيبه الخاص، أبي يعقوب بن نسطاس، الذي حلّ محل ابن مقشر المتوفى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م. فأركب بغلة واقتيدت خلفه بغلتان، ومعه ثياب كثيرة، أنعم عليه أيضاً بدار مفروشة في القاهرة، ووضع بها الخدم يأتمرون بأمر الطبيب. وألزم الناس بوقود القناديل في الليل في سائر شوارع القاهرة ومصر وأزقتهما، دلالة على محبته لابن نسطاس وتقديراً لطلبه[2]. كما خلع أيضاً فيما

---

(١) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٦٢.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٤٨.

بعد، على طبيبه الخاص صقر اليهودي بمثل ما خلع على ابن مقشر الطبيب[1].

وتوالى إكرام الأطبّاء من قبل الخلفاء، إذ جعل الآمر بأحكام الله، أبا جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه اليهودي الأصل، مدرّساً رسمياً للطب ومؤلفاً فيه، بعد أن خصّص له داراً وراتباً شهرياً وكسوة[2].

لكن الخليفة الحافظ لدين الله، انتقم من أحد أطبائه «ابن قرقه اليهودي» إذ أمر بإلقاء القبض عليه، وحبسه في خزانة البنود، وصادر جميع ممتلكاته وموجوداته وأرجعها إلى الديوان، في الوقت الذي أنعم فيه على رفيقه أبي منصور الذي امتنع عن تحضير شراب سام ليسقي به ولده حسناً، ويتخلص منه بفعل الضغوط والتهديدات التي تلقاها الحافظ لدين الله، بينما أسرع ابن قرقه لتحضير الشراب السام، وجعل الخليفة، أبا منصور الطبيب، رئيساً لليهود[3].

وقد اشتهر من أطبّاء المعز لدين الله: موسى بن العازار اليهودي الذي كتب «الكتاب المعزي في الطبيخ» وابنه إسحاق بن موسى، واسماعيل بن موسى، وابنه يعقوب بن موسى، ثم أبو الفتح منصور بن مقشر الذي احتل مكانة عالية لدى الحاكم بأمر الله كما ذكرنا، وقد قبل الخليفة شفاعته لإطلاق الكتّاب النصارى واليهود وإعادتهم إلى مراكزهم لما كان له من احترام ومحبة في قلب الحاكم بأمر الله[4] ولا سيما بعد أن داواه، حتى شفي من مرضه في ثلاثة أيام، فمنحه الخليفة ألف دينار، ولقبه «الحقير

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ٧٠ و٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٩٤ - ٩٥.

وفيه نص مرسوم تعيين ابن حسديه طبيباً.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٢٤٢ - ٢٤٤.

(٤) القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ.

١٧٨ و٤٣٨.

النافع»، وجعله من أطبائه الخاصين[1]. وكذلك اشتهر من الأطبّاء ابن السديد أبو المنصور عبد الله بن الشيخ السديد أبو الحسن علي، رئيس أطبّاء مصر آنذاك، ومن سكّان القاهرة[2]، وهو الذي امتنع عن مداواة آخر خلفاء الفاطميين العاضد لدين الله، بعد أن يئس من علاجه له، وقد فشت به الحمى[3].

رابعاً ـ الفنادق والخانات والحمامات:

كان لازدهار الصناعة ونشاط التجارة بمصر الفاطمية أثر كبير في نمو الحركة السكّانية فيها. فانتعشت الخدمات العامّة وازداد الطلب عليها، ولا سيما منها بناء القياسر (الفنادق)، والخانات العامّة لاستيعاب الأعداد الكبيرة من الناس الوافدة إلى مصر ـ القاهرة، سواء من داخل البلاد لأمور كثيرة ومختلفة، أو من خارج البلاد كرحالة وتجّار وعلماء وحجّاج في أثناء مرورهم إلى الحج عن طريق مصر.

لذا أنشأ الفاطميون القياسر والخانات الكثيرة لتفي بالحاجة المطلوبة في مصر (الفسطاط) والقاهرة. وكانت هذه ملكاً للخليفة تؤجر للناس. ولكن هذا لم يمنع أصحاب الإمكانيات وجلهم من الوزراء أو الأمراء من إقامة القياسر والخانات، فمن ذلك قيسارية ابن أبي أسامة التي وقفها الشيخ الأجلّ، كاتب الدست الشريف في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله[4]، ودار الوكالة الآمرية، وقد أنشأها في القاهرة أبو عبد اللّه محمد بن فاتك المأمون

(١) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٧٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي:
عيون الأنباء في أخبار الأطباء، القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ هـ.
٢/١٠٩ ـ ١١٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. ٥/٣٥٧.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/٨٦.

البطائحي وزير الآمر بأحكام الله، لمن يصل من العراقيين، والشاميين، وغيرهما[1].

ويحدثنا ناصر كسرو، في أثناء رحلته إلى مصر، عن مشاهداته، قائلاً: «ورأيت هناك خاناً يسمّى دار الوزير، لا يباع فيه سوى القصب، وفي الدور الأسفل منه يجلس الخياطون، وفي الأعلى الرفاؤون، وسألت القيّم عن أجرة هذا الخان الكبير فقال: كانت كل سنة عشرين ألف دينار مغربي، ولكن جانباً منه قد تخرب، وهو يعمر الآن، فيحصل منه كل شهر ألف دينار، يعني اثني عشر ألف دينار في السنة، وقيل إن في هذه المدينة، مائتي خان أكبر منه أو مثله»[2].

وخصصت الدولة الفاطمية في القاهرة داراً لاستضافة القادمين إليها من الرجال الرسميين - رسل الملوك - وهي دار المظفر ابن أمير الجيوش بدر الجمالي بحارة برجوان، والتي أنشأها أمير الجيوش بدر الجمالي، وذلك منذ وفاة المظفر حتى زوال الدولة الفاطمية[3]. كما اتخذ الناس بمصر، المساجد أمكنة للنوم والأكل وخلافه، وقد اندهش ابن حوقل كثيراً عندما رأى الناس يأكلون في المسجد، وحينما رأى باعة الخبز والماء يبيعون ما بحوزتهم هناك[4]. وهذا ما قادنا إلى القول، باتخاذ المساجد، مأوى لمن لا يجد له مسكناً، وللمسافرين والمتعبدين فيخففون بعض أعباء الحياة ومصاعبها عن كواهلهم.

وأول من بنى الحمامات بالقاهرة، كان الخليفة العزيز بالله، ثاني خلفاء الفاطميين فيها[5]. ومن الحمامات التي اشتهرت في أيام الفاطميين: «حماما

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٥١.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٦.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٦١.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: ٣٤١.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٠.

السيدة العمة»، انتقلت ملكيتهما فيما بعد إلى الكامل بن شاور بن مجير السعدي، وهما واحد للرجال والآخر للسيدات. وحمام القصر الغربي الصغير، الذي كان مخصصاً للنساء أيضاً، وعرف بـ «حمام الساباط» أو «حمام الصنيعة»[1]. ولما قضت التدابير الحاكمية (الحاكم بأمر الله) فصل حمامات المسلمين عن حمامات اليهود والنصارى، ووضع الصليب أو قرمية الخشب فوق مداخل هذه الحمامات. أنشأ ابن أبي الدم اليهودي أحد كتاب الإنشاء في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله، حمام دار الذهب، كما أنشأ أبو سعيد بن قرقة الطبيب المشهور، ومتولي الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح في الدولة الفاطمية، حماماً عرف بـ «حمام ابن قرقة» والحمام الأوحد[2].

وكانت هناك حمامات أخرى، كـ «حمام دري» أو شهاب الدولة دري الصغير غلام المظفر ابن أمير الجيوش، و «حمام الرصاص» التي أنشأها الأمير سيف الدين ابن أبي الهيجاء حامل السيف، و «حمام الجيوشي» التابع لدار المظفر ابن أمير الجيوش بدر الجمالي. وحمام الخشيبة التابعة لدار الوزير ابن المأمون البطائحي، وحمام التابع لدار الوزير عباس، و «حمام لؤلؤ» من إنشاء حسام الدين لؤلؤ الحاجب (الأرمني الأصل)[3].

خامساً ـ الشوارع والطرقات والجسور:

لم يكن بالقاهرة المعزية شوارع واسعة سوى الشارع الرئيسي المعروف بقصبة القاهرة. أما ما بقي من طرقات وأزقة فهي وإن ضاقت أحياناً كثيرة، تبقى أنظف من شوارع مصر (الفسطاط) وأزقتها، وأقل وسخاً[4]. ومع هذا، فعلى العموم تبقى شوارع القاهرة ودروبها مظلمة وكثيرة التراب والزبالة، وهذا ما أوجب كنس الطرقات التي كان يسلكها الخليفة في

(١) المقريزي: إتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٨٠ ـ ٨١.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٣٦٥.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٣٧.

موكبه، ورشها بالماء قبل مسير الموكب. وقطعاً لدابر اللصوصية والفساد أكثر الحاكم بأمر الله من إعطاء الأوامر بإيقاد المصابيح في الشوارع والطرقات المظلمة وغير المظلمة، وتعليق القناديل على سائر الحوانيت، وأبواب الدور كلها، وفي جميع المحال، وبكنس الطرقات وحفر الموارد وتنظيفها[1].

ويتم الاتصال بين أهل مصر عند فيضان النيل في المراكب، لأن الجسور المقامة تغمرها المياه. لذلك أنشأ الفاطميون على الشاطىء من أول ولاية مصر (الفسطاط) جسراً من الطين ليسير عليه الناس، ومصاريف تعهده وتجديد عمارته تبلغ عشرة آلاف دينار مغربي، وقد صدرت عدة أوامر فاطمية لتنظيم السير في قصبة القاهرة، ومن أجل المحافظة على نظافة الشوارع، وتأمين السلامة العامة، وهي تقضي بمنع مرور الجمال والخيول والدواب التي تحمل التبن، أو الحطب عليها، وألا يمر بها سقاء إلا وراويته مغطاة. وفرض على أصحاب الحوانيت أن يحفظوا أمام حوانيتهم أزياراً مملوءة ماء لرش الطريق منعاً لتطاير الغبار وتحسباً لكل حريق قد يندلع، وأن يعلق هؤلاء فوق حانوت كل منهم قنديلاً يسرج طول الليل حتى الصباح، وعينت الدولة من جهتها عمالاً للتنظيفات يقومون بكنس الزبالة والأتربة، وما يكون قد تجمع من الأوساخ عند جوانب الطرقات ويرشونها بالماء كل يوم، كما أقاموا عدداً من الخفراء (الحراس) يطوفون طول الليل بالقصبة وغيرها من الطرقات لحراسة الحوانيت والحفاظ على السلامة العامّة من اللصوص وتعديات قطّاع الطرق[2].

وكان الحاكم بأمر الله قد أمر الناس بالوقيد في الشوارع، فبالغوا فيه وأكثروا منه في الشوارع والأزقة، وزينت القياسر والأسواق بمختلف أنواع

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٨٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

الزينة حتى تلألأت الأنوار من الشموع والقناديل، وازدحمت الطرقات بالمارة، وبقيت الحوانيت مفتوحة تستقبل الزبائن لابتياع ما يحتاجون إليه والأسواق في بيع وشراء وسط مظاهر البهجة والزينة، مما جعل بعضهم يستغلون ذلك، في تأمين المآكل والمشارب والاستماع إلى الأغاني، بعدما وجدوا المبذّرين ينفقون الأموال بدون حساب على الطعام والشراب والأغاني وأماكن اللهو والفرجة.

ولما اختلطت النساء بالرجال ليلاً في الشوارع وكثر خروجهن من البيوت، وارتكبت الأعمال المخلة بالآداب العامّة من سكر وفحش وبتقدير الحاكم بأمر الله، صدرت أوامره في سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠١م. بمنع خروج النساء بعد العشاء وكل من تخالف الأوامر وتشاهد بعد العشاء في الطرقات تخضع لأشدّ العقوبات، ثم منع الجميع من الخروج ليلاً ذكوراً وإناثاً وأبطل البيع والشراء كذلك في سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م[1].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/١٠٨.



الفصل الخامس

مظاهر الاضطرابات الاجتماعية

أولاً: نهر النيل وأثره في الحياة الاجتماعية المصرية

ثانياً: الفتن والاضطرابات

ثالثاً: الفقر والأعمال اللصوصية

رابعاً: الكوارث

أولاً ـ نهر النيل وأثره في الحياة الاجتماعية المصرية:

فطن الفاطميون منذ تأسيس دولتهم إلى أهمية نهر النيل وأثره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية المصرية. ومن هذا الباب جاء اعتراض المعز لدين الله على عبده وقائد جيشه جوهر الصقلي، لبناء القاهرة بعيداً عن شاطىء النيل آنذاك. وطبيعي أن يُعنى الفاطميون عناية كبيرة بصيانة الترع والمحافظة على الجسور وترميمها، وبخاصة تلك التي تقيمها الدولة، من أجل الانتفاع بماء النيل في موسم الفيضان، وبحفر الخلجان والبحار والترع الكثيرة، حتى بلغت في العصر الفاطمي، ثمانية خلجان وخمسة وعشرين بحراً، أما الترع فقد تزايدت حتى بلغت نحواً من مائة وسبع عشرة ترعةً في جميع أنحاء البلاد[١].

وتجدد حفر الترع والخلجان كلما دعت الضرورة، ففي ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م جدد حفر خليج القاهرة، وأقيم له وال مفرد بجامكية[٢]. وكذلك حفر بحر أبي المنجا اليهودي في سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م. في وزارة الافضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي[٣].

ويتطلب الاهتمام بإنشاء الترع وحفر الخلجان والبحار، وإقامة الجسور التي كان الفاطميون ينفقون عليها ثلث الخراج[٤]، وكذلك مراقبة التغيرات التي تطرأ على مياه النيل وجريانه لأن في ذلك أثراً كبيراً على الحياة البشرية وغير البشرية، فارتفاع منسوب المياه إلى درجة معينة دلالة على الخصب وزيادة في الخراج، أما إذا انخفض مستوى المياه أيضاً إلى درجة معيَّنة أصيبت البلاد بالجدب وقلّ الخراج، ولكن إذا ما ارتفعت مياه النهر لتبلغ ثمانية

---

(١) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص: ٢٠٥ ـ ٢١٦.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/٤٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/٣٠١ ـ ٣٠٢، المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/٤٨٧.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٦١ و١٠٠.

عشر ذراعاً، أو نقصت المياه واستمرت في الانخفاض إلى دون الأربعة عشر ذراعاً كان الضرر الشديد، وأصاب البلاد القحط وأعقبه الوباء[1].

وجرت العادة بمصر منذ القديم أن يطوف منادون (مفردها مناد) في المدينة منادين بأن الله تعالى، قد زاد النيل كذا اصبعاً عن المعدل، ويذكرون زيادته كل يوم، حتى إذا بلغت هذه الزيادة ذراعاً كاملاً، كانت تضرب البشائر، ويفرح الناس، إلى أن تبلغ ستة عشر ذراعاً، وهي الزيادة المعهودة، أما إذا قلت الزيادة عن ذلك، يعني أن النيل لم يف، فيتصدق الناس، وينذرون النذور، ويعلوهم الغم من حصول الأزمة الاقتصادية، وإذا زاد عن ستة عشر ذراعاً ولم يتجاوز الثمانية عشر ذراعاً، فرحوا وأظهروا الغبطة[2].

ولما كانت هذه الظاهرة تنعكس سلباً أو إيجاباً على الوضع الاجتماعي وبالتالي الاقتصادي في البلاد، كانخفاض الأسعار لتوافر المواد الغذائية، والسلع الأخرى في الأسواق، أو العكس، كارتفاع الأسعار لفقدان الغلال. فقد تنبه الخليفة المعز لدين الله إلى هذه الأخطار التي تنتج عن إذاعة الزيادات أو النقصان على الناس، فأمر عامل المقياس بكتمان أمر المقاييس عن الشعب وعدم إذاعتها، والاقتصار فقط على إبلاغ أرقامها للخليفة شخصياً أو إلى قائده جوهر الصقلي، لأن تسرب أخبار انخفاض المياه في النيل عن المعدل (ستة عشر ذراعاً) يجعل الناس يقدمون على شراء المواد الغذائية والغلات وتخزينها، كما يعمد التجار عند ذلك إلى إخفاء تلك المواد من الأسواق، أملاً في الحصول على أرباح خيالية عند بيعها في وسط

---

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي: رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، تحقيق علي المنتصر الكتاني، (مؤسسة الرسالة)، بيروت ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م. ١/ ٥٦.
القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩٣.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٨١ ـ ٨٢.

الأزمة وعند وقوع الجوع بين أبناء الشعب الفقير والغني على حد سواء. ويحصل العكس تماماً عند بلوغ الزيادة حدها المعهود، ومن هذا جاء «كتمان الزيادة عن العامّة فائدة تامة»[١].

ويحصل لأهل مصر، إذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً، كما ذكرنا، فرح عظيم، حتى أن الخليفة، يركب في خواص دولته وأكابر الأمراء في الحراريق[٢] إلى المقياس ويمد فيه سماطاً يأكل منه الخواص والعوام، ويخلع على عامل المقياس ويصله بصلة مقررة، ويزين العامّة أسواق البلد، فيطيّبون ويخلّقون وجوه الصبيان بالطيب[٣]، وتعني زيادة وفاء النيل ذراعاً، زيادة عائدات الخراج مائة ألف دينار، وإذا زاد بعد ذلك ذراعاً أخرى، نقصت عائدات الخراج مائة ألف دينار[٤].

ويستمر تزايد الماء في النيل أربعين يوماً من بدء الفيضان، إلى أن يبلغ ستة عشر ذراعاً، ويبقى على هذا أربعين يوماً لا يزيد ولا ينقص. ثم يبدأ بالنقصان تدريجياً مدة أربعين يوماً أخرى حتى يصل إلى الحد الذي كان عليه قبل بدء الفيضان[٥]. ويستفيد المزارعون من هذه المعادلة بتتبعهم جفاف كل بقعة من الأرض ليزرعوها بالزرع الذي يريدون. والماء في النيل إذا ابتدأ في زيادته، يكون مخضراً، ثم محمراً، ثم كدراً[٦].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/١٣٨،

: والمواعظ والاعتبار ١/٦١.

(٢) الحراريق: نوع من السفن. انظر تفصيل ذلك في الفصل الثالث من القسم الثاني من كتاب: أيوب، ابراهيم التاريخ الفاطمي السياسي.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٥٠.

(٤) الكندي: فضائل مصر، ص: ٦٠، تحقيق ابراهيم احمد العدوي، وعلي محمد عمر، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.

ابن مماتي: قوانين الدواوين، ٧٦،

القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٥) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٨٣.

(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٦١.

ولما كانت عملية مراقبة زيادة مياه النيل أو نقصانها شأناً من شؤون الدولة، لارتباطه ارتباطاً وثيقاً برخاء البلاد، لذا وجب أن نعلم شيئاً عن المقياس: تاريخ بنائه، أقسامه، ومن تولاه. قيل: «إن أول من قاس النيل يوسف عليه السلام»[1] وقد بنى المقياس بمنف، فكان أول مقياس وضع، ثم بنى عمرو بن العاص مقياساً بأسوان، وبنى عبد العزيز بن مروان ـ عامل الوليد بن عبد الملك على مصر ـ مقياساً بحلوان لكنه صغير الذراع. كما وضع أسامة بن زيد المقياس القديم بالجزيرة(جزيرة الروضة)، وأخيراً أمر المتوكل العباسي عامله على مصر، يزيد بن عبد الله التركي، ببناء مقياس الجزيرة سنة ٢٤٧هـ/ ٨٥٨م.، وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد، والذي استمر العمل به أيام الدولة الفاطمية، حيث أمر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م. بناء سور[2] حول المقياس بالجزيرة، بإشراف الشريف أبو طالب العجمي، متولي الصناعة، فأنفق على بنائه بالحجر الأبيض أموالاً كثيرة، لنقل الحجارة إليه من ناحية طرّا على الشاطىء[3].

والمقياس، عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهو (العمود) مقسّم إلى اثنين وعشرين ذراعاً، كل ذراع من الاثنتي عشر ذراعاً الأولى مقسم أيضاً إلى ثمان وعشرين قسماً متساوياً تعرف بالأصابع أيضاً[4].

---

(١) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص: ١٧٨.
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٥٧ ـ ٥٨.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٤٢.

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص: ٨٢ ـ ٨٣ و١٦٣.

(٤) ابن جبير: الرحلة . . .، ٢٩ ـ ٣٠،
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/١١٢ـ ١١٥،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٥٩،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٢/٣٠٨،

وجرت العادة أن يعين ولاة مصر، مشرفين من الأقباط لمراقبة هذه المقاييس لأنهم أعلم بها، إلا أن المتوكل العباسي طلب إلى عامله بمصر يزيد ابن عبد اللّه التركي أن يعزل الأقباط النصارى عن المقياس، وأن لا يتولى ذلك إلا مسلم يختاره. فاختار يزيد «أبا الرداد»، واسمه عبد اللّه بن عبد السلام بن عبد اللّه بن أبي الرداد المؤدب العجمي، للإشراف على مقياس النيل، وأجرى عليه، سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ، سبعة دنانير في كل شهر. واستمر أمر الإشراف على المقياس، لأبي الرداد وذريته فيما بعد(١).

ولكن ابن ابي الرداد قد أهمل بعض الأمور الرئيسة، من عمله، وهي تنظيف مجاري المياه، التي تخصص الدولة، كل سنة خمسين ديناراً تجعلها بتصرف ابن أبي الرداد ليقوم بهذه المهمة نيابة عنها، فاضطر، قاضي القضاة، أبو العباس أحمد بن أبي العوام إلى تعيين مشارفين عليه (عامل المقياس)، وهما: أبو الحسن سليمان بن رستم، والخليل بن أحمد بن خليل لينهيا إليه ما يظهر لهما من أمر المقياس، والتحقق من كيفية صرف المبلغ الموضوع بتصرف ابن أبي طالب العجمي متولي الصناعة، فوجد المشارفان مجاري الماء مسدودة، لعدم كنسها وتنظيفها من قبله، وأن المياه لم تبلغ أراض كثيرة، ولما قاما بفتح المجاري، جرت المياه إلى حد أكثر من الحد الذي كانت تقف عنده بفعل الأوساخ والأتربة المجتمعة(٢).

وأخيراً نثبت الجدول الآتي على الصفحة التالية، الذي يبيّن ارتفاع المياه وانخفاضها في النيل، في العصر الفاطمي، علّها تلقي ضوءاً على منسوب المياه في الشريان الرئيس للبلاد. فنتبيّن منه متى كانت تصاب البلاد

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ١١٢،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٨،
ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص: ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٤٥.

بالأزمات الاقتصادية التي تنعكس على الأوضاع الاجتماعية، وما ينجم عنها من جوع وفقر ولصوصية، وفتن وثورات داخلية، قد تغيّر معالم الحكم، أو تطيح برؤوس الحكام. وهذا ما حدث في السنوات الست السابقة لدخول الفاطميين إلى مصر. حيث لم تبلغ زيادة المياه في النيل أكثر من خمسة عشر ذراعاً وأربعة أصابع، فدبت الفوضى وبدأت الفتن، وعاث اللصوص في نهب الضياع والغلات، وهاج الناس في مصر (الفسطاط) لارتفاع الأسعار، ودخلوا إلى الجامع العتيق في يوم جمعة، وازدحموا عند المحراب، فمات من الزحام رجل وامرأة ولم تصلّ الجمعة يومئذٍ[1].

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٤٨.

جدول بياني بمقياس النيل على أيام الفاطميين(١)

السنة هـ.	اصبع	ذراع	السنة هـ.	اصبع	ذراع	السنة هـ.	اصبع	ذراع
٣٥١	٧	١٦	٣٧١	٢	١٥	٣٩١	٢٠	١٦
٣٥٢	١٦	١٥	٣٧٢	٤	١٧	٣٩٢	١٠	١٧
٣٥٣	٤	١٥	٣٧٣	٢	١٦	٣٩٣	١٥	١٦
٣٥٤	١٥	١٦	٣٧٤	٤	١٦	٣٩٤	١٥	١٧
٣٥٥	١٩	١٤	٣٧٥			٣٩٥	١٥	١٦
٣٥٦	١٧	١٢	٣٧٦	٢٠	١٧	٣٩٦	١٦	١٦
٣٥٧ (٢)	١٤	١٧	٣٧٧	١٠	١٧	٣٩٧	١٦	١٤
٣٥٨	٩	١٧	٣٧٨	١٢	١٧	٣٩٨	٩	١٤
٣٥٩	١٩	١٧	٣٧٩	١٩	١٥	٣٩٩	٢٣	١٦
٣٦٠	٢١	١٧	٣٨٠	٢٠	١٦	٤٠٠	٢٣	١٦
٣٦١	١٤	١٧	٣٨١	٢٣	١٦	٤٠١	١٨	١٦
٣٦٢	٢	١٧	٣٨٢	١٨	١٦	٤٠٢	١٠٠	١٦
٣٦٣	١٤	١٦	٣٨٣			٤٠٣	١٢	١٧
٣٦٤	٢٠	١٦	٣٨٤	٧	١٦	٤٠٤	.	١٧
٣٦٥	٢٣	١٦	٣٨٥	٧	١٦	٤٠٥	٢	١٦
٣٦٦	٤	١٦	٣٨٦	٢٣	١٥	٤٠٦	٢	١٦
٣٦٧	٤	١٦	٣٨٧	٧	١٦	٤٠٧	٤	١٧
٣٦٨	١	١٧	٣٨٨	٧	١٦	٤٠٨	١٦	١٦
٣٦٩	.	١٧	٣٨٩	٢٠	١٦	٤٠٩	٢٣	١٦
٣٧٠	٤	١٥	٣٩٠	٢	١٦	٤١٠	٨	١٩

(١) استخلصنا هذه القياسات لمنسوب المياه في نهر النيل من الإحصاءات التي أوردها:
ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٥.

(٢) أثبتنا على هذا الجدول مقياس النيل للسنوات السبع السابقة لحكم الفاطميين على مصر لربط العلاقة بين منسوب مياه النيل فيها والحالة الاجتماعية والاقتصادية.

السنة هـ.	اصبع	ذراع
٤١١	٣	١٦
٤١٢	٣	١٦
٤١٣	١٨	١٦
٤١٤	١٤	١٤
٤١٥	.	١٦
٤١٦	٤	١٦
٤١٧	٧	١٦
٤١٨	١٣	١٦
٤١٩	٤	١٧
٤٢٠	.	١٦
٤٢١	٦	١٦
٤٢٢	٦	١٧
٤٢٣	٤	١٦
٤٢٤	٢	١٦
٤٢٥	٢١	١٦
٤٢٦	١٥	١٦
٤٢٧	١٥	١٦
٤٢٨	٩	١٥
٤٢٩	٢٠	١٥
٤٣٠	٢٠	١٧
٤٣١	١٠	١٧
٤٣٢	٢٠	١٧
٤٣٣	١٧	١٧
٤٣٤	١٦	١٧
٤٣٥	٦	١٨
٤٣٦	٢٠	١٧
٤٣٧	٢٠	١٧
٤٣٨	١٩	١٧
٤٣٩	٧	١٦
٤٤٠	١٧	١٧
٤٤١	٩	١٧
٤٤٢	١٦	١٧
٤٤٣	١٢	١٧
٤٤٤	٥	١٧
٤٤٥	.	١٧
٤٤٦	٤	١٧
٤٤٧	٤	١٦
٤٤٨	١٣	١٧
٤٤٩	٣	١٧
٤٥٠	١٢	١٦
٤٥١	٢٣	١٥
٤٥٢	٩	١٦
٤٥٣	١٨	١٦
٤٥٤	.	١٧
٤٥٥	١٢	١٧
٤٥	٣	١٦
٤٥٧	١٠	١٦
٤٥٨	١٧	١٦
٤٥٩	١٧	١٦
٤٦٠	٦	١٥
٤٦١	١٨	١٧
٤٦٢	.	١٦
٤٦٣	٣	١٧
٤٦٤	١٠	١٦
٤٦٥	٧	١٦
٤٦٦	٣	١٦
٤٦٧	٧	١٧
٤٦٨	١٤	١٦
٤٦٩	١٣	١٧
٤٧٠	١٠	١٧
٤٧١	٢٠	١٧
٤٧٢	١٠	١٧
٤٧٣	١٥	١٦
٤٧٤	١٣	١٨
٤٧٥	١٠	١٥
٤٧٦	٩	١٧
٤٧٧	١٣	١٧
٤٧٨	٥	١٥
٤٧٩	١٥	١٧
٤٨٠	٧	١٧
٤٨١	٤	١٨
٤٨٢	٩	١٦
٤٨٣	.	١٨
٤٨٤	٢٢	١٦
٤٨٥	٢١	١٦
٤٨٦	٣	١٦
٤٨٧	٢١	١٦
٤٨٨	١٢	١٧
٤٨٩	١٧	١٣
٤٩٠	١٦	١٨
٤٩١	١٦	١٨
٤٩٢	١٤	١٦
٤٩٣	١٥	١٨
٤٩٤	٧	١٨

السنة هـ.	اصبع	ذراع	السنة هـ.	اصبع	ذراع	ابسنة هـ.	اصبع	ذراع
٤٩٥	١٣	١٧	٥١٩	١٤	١٨	٥٤٣	١٣	١٨
٤٩٦	١	١٧	٥٢٠	١	١٨	٥٤٤	١٨	١٧
٤٩٧	١٣	١٧	٥٢١ [١]	.	١٧	٥٤٥	١٣	١٧
٤٩٨	١٢	١٦	٥٢٢	١٣	١٨	٥٤٦	٤	١٨
٤٩٩	١٢	١٦	٥٢٣	٥	١٨	٥٤٧	٤	١٨
٥٠٠	١	١٩	٥٢٤	٤	١٧	٥٤٨	٦	١٧
٥٠١	١٨	١٧	٥٢٥	١٨	١٦	٥٤٩	٢٠	١٧
٥٠٢	١٦	١٧	٥٢٦	١٠	١٧	٥٥٠	١٧	١٦
٥٠٣	٥	١٧	٥٢٧	١٥	١٧	٥٥١	٨	١٧
٥٠٤	٤	١٧	٥٢٨	٢٣	١٧	٥٥٢	١١	١٨
٥٠٥	٤	١٧	٥٢٩	٣	١٨	٥٥٣	١٠	١٨
٥٠٦	٢	١٨	٥٣٠	٧	١٧	٥٥٤	١	١٥
٥٠٧	٢	١٨	٥٣١	١٦	١٧	٥٥٥	١٠	١٨
٥٠٨	١٠	١٧	٥٣٢	١٢	١٨	٥٥٦	١٧	١٨
٥٠٩	–	١٨	٥٣٣	٥	١٨	٥٥٧	٤	١٧
٥١٠	٦	١٧	٥٣٤	١٧	١٦	٥٥٨	٨	١٧
٥١١	١٩	١٧	٥٣٥	١٢	١٧	٥٥٩	١٠	١٨
٥١٢	٤	١٨	٥٣٦	١١	١٦	٥٦٠	١٨	١٧
٥١٣	٧	١٨	٥٣٧	.	١٨	٥٦١	٢٣	١٧
٥١٤	١	١٨	٥٣٨	٩	١٦	٥٦٢	٢٣	١٦
٥١٥	٥	١٧	٥٣٩	٤	١٨	٥٦٣	٢٣	١٧
٥١٦	٣	١٨	٥٤٠	.	١٨	٥٦٤	١٢	١٦
٥١٧	١٠	١٨	٥٤١	٢٠	١٦			
٥١٨	١٤	١٨	٥٤٢	١٣	١٨			

(١) يذكر أبو المحاسن: أن المقياس في هذه السنة، كان سبعة عشر ذراعاً وأصابع وأن هذه الأصابع لم تحرر.

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٢٣٣.

السنة هـ.	اصبع	ذراع	السنة هـ.	اصبع	ذراع	ابسنة هـ.	اصبع	ذراع
٥٦٥	١٤	١٦	٥٦٦	٢١	١٦	٥٦٧ [١]	٢٠	١٧

ثمة ملاحظة هي أن منسوب المياه في النيل على أيام الفاطميين تدنّى إلى (١٣ ذراعاً و ١٧ اصبعاً) في سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م. مرة واحدة لم تتكرر، وهي تعني إصابة البلاد بالقحط والجدب بسبب الجفاف الناتج عن عدم وصول المياه إلى أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية.

كما يستدل الجدول أعلاه إلى أن المياه في النيل لم تصل إلى المعدل الذي يمكنه من ورائه أن يرتفع الخراج وتتنفس البلاد اقتصادياً، وذلك في عهد الخليفة العزيز بالله وبالتحديد في السنوات: ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠م. و ٣٧١هـ/ ٩٨١م. و ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م. و ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م.

وتكرر مثل هذا الانخفاض في منسوب مياه النيل في عهد الحاكم بأمر الله في السنتين ٣٩٧هـ/١٠٠٧م. و ٣٩٨هـ/١٠٠٨م. وهو ما جعل الأسعار ترتفع بشكل جنوني، بعدما اختفت المواد الغذائية ولا سيما منها الطحين والحبوب من الأسواق، فخرج الخليفة من قصره معرجاً في طريقه على الأسواق مهدداً ومتوعداً التجار وكل من يتبين عنده غلال بالمصادرة والقتل إذا لم يتم عرضها على الناس قبل عودته من نزهته اليومية العادية[٢]. وارتفعت المياه في النهر في السنة ٤١٠هـ/١٠١٩م. إلى أكثر من المعدل

(١) انتهى حكم الفاطميين بموت العاضد لدين الله في ذكرى عاشوراء، العاشر من شهر محرم سنة ٥٦٧ هـ / ١٤ أيلول ١١٧١م.
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/٣٢٨،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/٣٥٧.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة ....، ص: ٥٢ ـ ٥٣.
ويستحسن مراجعة الفصل الثاني من هذا الكتاب، ولا سيما منه: أسعار المواد الغذائية.

العام بشكل أغرق الأراضي بالمياه وخرّب السدود والجسور وطمر أقنية الري بعدما وصلت المياه إلى تسع عشرة ذراعاً وثمانية أصابع[1] فزاد في مأساة الشعب الفقير.

وحدث مثل هذا الانخفاض في منسوب مياه النيل في السنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م. في عهد الظاهر لإعزاز دين الله إذ لم يصل معدل المياه في النهر إلى أكثر من أربع عشرة ذراعاً وأربع عشرة اصبعاً، فأصيبت البلاد بالجفاف وقلة الموارد الزراعية وبوار الأراضي حتى أن نتائج ذلك ظهرت معالمها على البشر والحيوانات، فمات من جراء القحط وغلاء الأسعار الألوف من الناس، ونفق العديد من الحيوان، مما اضطر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله إلى إصدار أوامره بمنع ذبح البقر الصالح للحراثة[2] محافظة على البقية الباقية من هذا الحيوان بعدما أتى على أكثره الجفاف وشح الكلأ فنفق الكثير منه، وزاد في افتقار البلاد إلى هذا الحيوان الإكثار من ذبحه سداداً لجوع الناس المتفاقم.

وبلغ أثر انخفاض مياه النيل أشده في عهد المستنصر بالله ولا سيما في السنوات ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م.، و ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م. و ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م. و ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م. و ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م. و ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. كما ساهم ارتفاع منسوب المياه في النيل أحياناً كثيرة في استمرار الأزمات الاقتصادية التي عانت منها البلاد المصرية فظهرت نتائجها في مصر - القاهرة حيث تجمع السكان، والتي تعتبر مؤشراً صالحاً تظهر عليه أقل دلائل البؤس أو العيش الرغيد. وكفى البلاد ما أصيبت به في الشدة العظمى ما بين السنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م. والسنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م.

وشحت المياه في نهر النيل في السنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م. أوائل عهد

---

(١) انظر ذلك في الجدول البياني السابق لمنسوب مياه نهر النيل.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٤٩.

المستعلي بالله فبلغت درجة قصوى في الانخفاض (١٧ اصبعاً ١٣ ذراعاً).
كما أصيبت البلاد بالفيضانات في معظم عهد الآمر بأحكام الله وغيره من الخلفاء الذين أتوا بعده كما يلاحظ ذلك من الجدول البياني السابق.

ثانياً - الفتن والاضطرابات:

عرف المجتمع المصري أوضاعاً سياسية متقلبة بتقلب الوزراء ومدى سيطرتهم على الأحكام في البلاد من مركز قوة أو مركز ضعف، ورافق هذه التقلبات السياسية اختلاط عناصر بشرية متعددة الأصول لا تربط بينها أية روابط يمكن أن تشدها إلى بعض فتتآلف، بل تتناحر وتتقاتل فيما بينها محدثة الفتن والاضطرابات الداخلية. يضاف إلى هذه وتلك الشدائد، من جفاف وفيضان وحرائق وأوبئة وجراد وزلازل، التي كانت تصيب البلاد من حين إلى آخر، فينتج عنها افقار الناس بسبب ما يتعرضون له في حياتهم اليومية، والحكم لاه عنهم لا يفكر بدرء الأخطار وتفاديها بمنع أسباب حدوثها، إذ كان همه الوحيد جمع الضرائب وإن مضاعفة، وبطرق تعسفية.

فأول شدة أصابت أهل مصر، كانت على يد أسامة بن زيد، صاحب الخراج لأمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، حيث كتب إليه الخليفة قائلاً: «أن احلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم»[1]، وتكررت هذه الشدائد على الشعب المصري، مع أن جيش جوهر الصقلي الفاطمي لم يلق مقاومة من قبل المصريين بل رحب به وفد من ممثلي الطبقات المختلفة، كما أسلفنا في المدخل. واقتصرت المعارضة على العناصر الأخشيدية الباقية، في حين انضم المصريون إلى الجيش الفاطمي لمقاومة غزوتي: أبي ركوة المغربي، والتركي السلجوقي أقسز أيام المستنصر بالله على الرغم من أزمة المجاعة

(١) الكندي: فضائل مصر، ص: ٥٥.

التي تكررت في عهده، وهو ما يؤكد التفاف الشعب المصري حول الحكم الفاطمي.

وعانى الشعب المصري كثيراً على أيام الخليفة الحاكم بأمر الله، لأنه كما يقول ابن سعيد[1] «وعم القتل بين وزير وكاتب، وقاض وطبيب، وشاعر ونحوي، ومغن ومصارع، وصاحب ستر وحامي، وصاحب وابن عم، وصاحب حرب وصاحب خير، ويهودي ونصراني، وقطع أيدي حتى الجواري في قصره. وكان في مدته القتل والغيلة حتى على الوزارة، وأعيان الدولة. فخرج عليهم من يقتلهم ويجرحهم بين مصر والقاهرة. وخطف العمائم جهاراً بالنهار، ولعبيد الشراء في مدته مصائب وخطوب في الناس، وكان المقتول ربما جرّ في الأسواق، فأوقع ذلك فتنة عظيمة».

وحدثت فتنة في ابتداء عهد الحاكم بأمر الله اصطنعها أحداث المغاربة، مع أحداث الأتراك، بعد أن كثر عبث المغاربة بامتداد أيديهم إلى خطف النساء من الطرقات وتعرية الرجال من ثيابهم، فكثرت الشكايات من أعمالهم، واشتبكوا مع الأتراك وانتصروا على المغاربة بعد أن هرب ابن عمار من القاهرة إلى الفسطاط تاركاً داره واصطبلاته عرضة لأعمال النهب[2].

ولكثرة ما أظهر الحاكم بأمر الله من سوء، كرهه المصريون، فعبّروا عن استيائهم من أفعاله، بسبه، وسب أسلافه على رقاع جهدوا في ايصالها إليه. ولما أعيتهم الحيلة، عملوا من القراطيس صورة امرأة وبيدها رقعة، فلما رآها، ظن أنها امرأة تشتكي، فأمر بأخذ الرقعة منها، وفيها: لعن وشتيمة قبيحة وذكر حرمه بما يكره، فأمر بطلب المرأة، فقيل له، إنها من قراطيس.

(١) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/٥٨ ـ ٥٩.

(٢) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/١٢ ـ ١٣.

فغضب أشد الغضب وأمر عبيده بإحراق مصر (الفسطاط) ونهبها[1].

وبينما كان القتال على أشده بين أهل مصر، ومن انضم إليهم من الأتراك والمغاربة بعدما علموا نوايا الخليفة الحاكم بأمر الله، ضد العبيد. أرسل أهل مصر (الفسطاط) إلى الخليفة يقولون:

«نحن عبيدك، ومماليكك، وهذا البلد بلدك، وفيه حرمنا وأموالنا وعقارنا، وما علمنا أن أهله جنوا جناية تقتضي سوء المقابلة، وتدعو إلى مثل هذه المعاملة، فإن كان هناك باطن لا نعرفه، فأخبرنا به، وانتظرنا حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه، وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفاً لرأيك، فأطلقنا في معاملتهم بما يعامل به المفسدون المخالفون»[2].

فأجابهم الخليفة الحاكم بأمر الله، بعدم معرفته بذلك، وأنه خارج عن إرادته لاعناً الفاعل له والآمر به، وقال: «أنتم على صواب في الذبّ عن المصريين وقد أذنت لكم في نصرتهم والإيقاع بمن تعرض لهم»[3].

لكن يبدو أنه لم يكن مخلصاً وصادقاً فيما قاله للجند الأتراك، والمغاربة، وإنما أرسل إلى العبيد سرّاً يقول: «كونوا على أمركم»[4].

ولما ترامت إلى مسامع الأتراك، أخبار رسالته، كتبوا له كتاباً آخر، قائلين:

«قد عرفنا غرضك، وهو إهلاك هذه البلدة وأهلها، وإهلاكنا معهم، وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لقتل الحريم وذهاب المهج، ولئن لم تكفهم لنحرقن القاهرة، ولنستنصرن العرب وغيرهم»[5].

فلما سمع الرسالة، ووقف على قوتهم، أومأ الى العبيد بالانصراف، واستدعى كتامة، والأتراك ووجوه المصريين، واعتذر إليهم، وحلف أنه

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٠٥.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨١ ـ ١٨٢.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨٢.
(٤) المصدر السابق: والصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

بريء مما فعله العبيد. وكتب لهم أماناً على المنابر، فهدأت الفتنة، فتتبع المصريون بعدها من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم، وابتاعوهن من العبيد بعد أن فُضِحْن كما قَتَلَ بعضهنّ أنفسهنّ خوفاً من العار[1].

وطالما أن مسببات الفتنة ما زالت ناراً تحت رماد، إذا حركتها الريح، تأججت من جديد، لذلك اشتعلت نار العداوة بين المغاربة والأتراك من جديد استظهر خلالها المغاربة على الأتراك، وقتلوا عدداً منهم، وأخرجوا من بقي عن مصر (الفسطاط)، وطبعاً تدخل الخليفة في النهاية، شأنه في كل معركة، ليصلح في الأمر[2]. وأي أمر، فقد قتل من قتل، وهرب من هرب، وكأنه يريد القضاء على فريق بفريق آخر. وهذا ما ذكرناه سابقاً، ويؤكد قولنا في أن الفاطميين سعوا إلى تكوين قوة ضاربة جديدة تقف في وجه كتامة كقوة عسكرية.

وأدى تعصب المسلمين، بسبب جور بعض أهل الذمة، ممن وصل إلى الحكم منهم، إلى اشتعال الحوادث الطائفية أكثر من مرة على عهد الحاكم بأمر الله والخليفة الآمر بأحكام الله، فذهب ضحيتها العديد من الناس، وهدمت الكنائس وقتل من كان السبب من النصارى كالرئيس ابن فهد، والراهب أبي نجاح وغيرهما[3].

كما أدى ضعف الخلفاء وعجزهم عن السيطرة على الحكم إلى استيلاء أحد غلمان الخليفة الآمر بأحكام الله على الأمور ثلاثة أيام قبل مجيء أبي علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي الذي استبد بالأمور وحجر على الحافظ لدين الله[4]. ثم استبد بعده الحسن بن الحافظ لدين الله بالأمور، هو

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٣٠٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨١ ـ ١٨٣.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٧٧.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٧١،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

الآخر، وقتل العديد من الأمراء المصريين، مما دفع الباقين إلى الاتفاق على قتل الحسن مهما كلفهم ذلك، وأرسلوا إلى أبيه الحافظ، وقالوا له: «إما أن تسلم ابنك إلينا لنقتله، أو نقتلكما جميعاً»[1]. فاستجاب لطلبهم وتخلص من ابنه بتدبير موته بالسم.

واستاء المسلمون من بهرام الأرمني وجماعته الذين تكاثروا في البلاد المصرية، وشيدوا الكنائس بكثرة، من تسلطهم على الدولة وجعلها نصرانية، فتتابعوا بالشكاية وبعثوا إلى أبي الفتح رضوان بن الولخشي، وهو والي الغربية يومئذ، يشكون إليه ما حل بالمسلمين، ويستحثونه على المسير وإنقاذهم مما نزل لهم. فما إن وصلته كتب الأمراء حتى راقت له فكرة الوزارة، فرقي المنبر خطيباً، وخطب محرضاً الناس على الجهاد في سبيل الله، والاجتماع لقتال بهرام وطائفته الارمنية[2]. وإزاء هذا الأمر، هرب بهرام وجماعته، تاركاً دار الوزارة للرعاع والأوباش، فنهبوها، ونهبوا دور الأرمن معها.

ولكن فرحة رضوان لم تطل مدتها لفساد الثقة بينه وبين الحافظ لدين الله، إذ تمكن من إثارة الناس ضد رضوان لينتهي به المطاف أخيراً إلى الهرب[3].

وهكذا تكررت الأحداث بسبب ضعف الخلفاء وسيطرة الوزراء في مرحلة لم يلِ الخلافة فيها خليفة بالغ. فقد ثار الجند وأهل مصر - القاهرة بعد مقتل الخليفة الظافر بأمر الله سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م. ضد الوزير القاتل عباس بن باديس الصنهاجي وولده نصر، وقد قاد هذه الثورة طلائع بن رزيك (صهر عباس) بعدما استغاثت به النساء، في القصر، مستصرخة نجدته، بكتب ضمت نتفاً من شعورهن للثأر للخليفة. فهرب، عباس وولده وبعض أصحابه إلى فلسطين، طالبين النجاة، بما حملوه من أموال،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٥٩ - ١٦٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٥٦ - ٣٥٧، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٧٠ - ١٧٤.

لكنهم وقعوا في كمين (شرك) نصبه لهم الفرنج في عسقلان (فلسطين)، فقاتل عباس ومن معه الفرنج حتى قتل، وأسر ابنه نصر حيث حمل إلى القاهرة، ليقتل ثم يصلب على باب زويلة[١].

وهكذا تفشت عادة الوقوف في وجه الظلم والطغيان من أي جهة جاءوا، فلما أمسك صلاح الدين بمقاليد الامور وآلت إليه السلطة، حاول مؤتمن الخلافة، وهو يومئذ من أكابر خدام القصر أن يستميل الفرنج لمساعدته على استرجاع السلطة من أيدي صلاح الدين وجماعته، وجمع أهالي القاهرة، وبعض الجند من العبيد والخدم وسار بهم لقتال الغز، فتقاتلوا في الشوارع لمدة يومين، خرج صلاح الدين ومن معه من الغز منتصرين، وأبيد معظم العبيد، وأحرقت حارة الأرمن بين القصرين بمن فيها من النساء والأطفال والشيوخ[٢].

ثالثاً ـ الفقر والأعمال اللصوصية:

كانت مصر ـ القاهرة طوال العهد الفاطمي تقريباً مسرحاً للأحداث العنصرية أو المذهبية، ومثاراً للاضطرابات التي وقعت بين المتسلطين على الوزارة ومن يناوئهم خاصة في المرحلة الثانية من العصر الفاطمي، فانعكست هذه الأحداث، وتلك الفتن على الحالة الاقتصادية في البلاد، وبالتالي على المجتمع لازدياد حال الفقراء فقراً، وساعد في كثرة الاضطرابات، كما مرّ معنا قبل قليل، إصابة البلاد بأزمات الجفاف والفيضان.

وكأن الشعب المصري، كتب عليه القهر والعذاب، ومعاناة الجوع والمرض، إذ أقدم الوزراء[٣] على بيع الوظائف، وابتزاز الأموال، كأن يقوّم

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/٢١٩ ـ ٢٢١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٢٥٨،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٣١٠ ـ ٣١٣.

(٣) أيوب، ابراهيم انظر الفصل الثاني من القسم الثاني: «الوضع الإداري»، من التاريخ الفاطمي السياسي.

الوزير، أو من يقوم مقامه، على أرباب الدواوين والقضاة أو غيرهم، مالا على وجه الأرض، فتقع الخسارة على الرعية، فيتضايق أهل الأسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق. وتضيق أبواب الرزق أمام الناس، وتصبح الحقوق فوضى، عندئذٍ يلجأ أصحاب الحيل إلى اختلاس المال سرّاً أو جهراً، ويكثر العيارون والشطار في المدن، وتزداد أعداد اللصوص في القرى. وقد يكون من بين هذه الجماعات من كانوا جنوداً يخدمون الدولة إلى أن صودرت أملاكهم، أو خسروا وظائفهم، لانتشار روح الطمع والجشع لدى الوزراء أو القوّاد. فخرج هؤلاء يتعرضون للمارّة، يسلبونهم أموالهم وأمتعتهم. وفي حال وقوع أحدهم في قبضة السلطة، وإخضاعه للمحاكمة، كان يحتج في أثناء المحاكمة، بسلبه أمواله أو مصادرتها، وتركه فريسة للجوع والمرض هو وعائلته، فاضطر مكرهاً إلى اللجوء لسلب الناس جهاراً كي يؤمن عيشه.

ويقول زيدان[1]: «كان قطّاع الطرق يسطون على قوافل التجّار ويأخذون أموالها، باعتبار أنها حق لهم، لأن أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها وتجردوا، فتركت عليهم، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة، واللصوص في حاجة إليها بسبب فقرهم، فإذا أخذوا تلك الاموال، كان ذلك مباحاً لهم، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء».

على أن الدولة الفاطمية منذ بدأت سيطرتها على البلاد المصرية، حملت على قطع دابر الفساد والقضاء على أعمال اللصوصية بعدما كان كثر الفساد في الطرقات، فأمر جوهر الصقلي بإلقاء القبض على تلك الجماعات سنة

---

(١) زيدان: التمدن الإسلامي، ٤/ ١٩١ ـ ١٩٢.

٣٥٩هـ/ ٩٧٠م. وضرب أعناقهم وصلبهم على الطرقات[١]. وعندما ادعت امرأة كافور الأخشيدي أن رجلاً من اليهود الصاغة أساء الأمانة، لأنها أودعته قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، أنكره عليها، فشكت أمرها إلى المعز لدين الله الخليفة الفاطمي، الذي طلب إحضاره لأخذ إفادته، لكنه أصر (أي الصائغ) على إنكاره، ساعتئذٍ أمر الخليفة أن تفتش داره ويستخرج منها ما فيها، فوجدوا القباء بعينه قد جعله في جرة وخبأها في بعض المواضع من داره، فسلمه الخليفة إليها[٢].

ولم تمض فترة طويلة على ذلك حتى أعطى المعز لدين الله أوامره المتشددة بإلقاء القبض على اللصوص والمفسدين، فألقي القبض في رمضان سنة ٣٦٣هـ/ حزيران ٩٧٤م. على جماعة من السعاة والعيارين الذين ألحقوا الأذى بالناس وسجنهم[٣].

ووقف الحاكم بأمر الله من اللصوص وقطّاع الطرق موقفاً متصلباً، فليس أدلّ على هذا من القصة التالية التي رواها ابن سعيد وملخصها[٤] أن رجلاً من تجار طرابلس كان قد استأجر عشارياً في طريقه إلى القاهرة، وأثناء الليل، نزل إليه رجال، فأخذوا جميع ما كان معه من حِلَل. ولما وصل الرجل الى القاهرة، عرض قصته على الخليفة الحاكم بأمر الله، وقال: إني سلبت في حرمك، وأخذ عبيدك مالي، والمولى مأخوذ بجناية عبيده... فسأله الخليفة: كم هو مالك؟ فأجاب: ثلاثة آلاف دينار. فأمر صاحب الشرطة (السيارة) بطلب من تلك الناحية، فماطل هذا، فعاد الرجل إلى الحاكم بأمر الله يشكوه مماطلة صاحب الشرطة، فطلب عندها الخليفة من

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٢٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٢٧٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٠٨.

(٤) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٧٤ ـ ٧٥.

صاحب بيت المال «ابن طاهر» أن يحضر مالاً، فأحضر، وأعطي للتاجر ثلاثة آلاف دينار بدلاً من ماله، وأربعة آلاف دينار تعويضاً له لمماطلة صاحب الشرطة (الخفارة أحياناً).

لم تكن هذه الرواية الوحيدة التي تدل على عدل هذا الخليفة وتدابيره لإرجاع الأمانات إلى أصحابها الحقيقيين وملاحقته لمنكري الأمانات، إذ إنّ رجلاً آخر من سجلماسة في أقصى المغرب، كان في طريقه إلى الحج، فأودع ماله عند رجل في السوق توسم فيه الخير وحفظ الأمانة. فلما عاد من الحج، طلب ماله من الرجل، ليعود به إلى بلده، فأنكره عليه، وقال: «طب عنه نفساً، فوالله لا رأيته أبداً». فثارت ثائرة المغربي، وشكا أمره إلى الحاكم بأمر الله. فقال له: «انتظرني في السوق أمام دكان مقابل لدكانه، فإذا مررت من هناك: سأعمل كأني أعرفك وأسألك عن حالك، وأكثر من الوقوف معك». فلما عمل ما أمره به، وانصرف الخليفة، جاء الرجل الذي كان قد أودع عنده بعض ماله، وأكب على يديه، وسأله الصفح عما سلف، وأحضر له جميع ماله. وعرف الخليفة بذلك فأصبح الرجل الذي أنكر الوديعة، وأساء الأمانة، مقتولاً ومعلقاً برجله على دكانه[1].

وقتل، الحاكم بأمر الله، القاضي حسين بن النعمان، لاختلاسه أموال اليتامى، إذ أمر بالقاضي، فحبس، ثم أخرج بعد ذلك محمولاً على حمار نهاراً والناس ينظرون إليه، ثم مضى به إلى المنظر فضربت عنقه، وأحرق[2].

---

(١) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٧٥.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٥١، ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٧١.

وانقلبت القسوة التي عامل بها الفاطميون منكري الأمانات، واللصوص وقطّاع الطرق، ومختلسي الحقوق، وسالبي اليتامى أموالهم، في عهد بعض الخلفاء كالحاكم بأمر الله مثلاً، إلى فلتان في الأمن أدى إلى انتشار الذعار في الطرقات، حتى تخوف الناس من السير عليها منفردين وجماعات أيضاً، بعدما كمن اللصوص لقافلة الحج، وسلبوا الحجاج أموالهم، وقتلوا منهم الكثير، كما امتدت أيدي الذعار إلى مهاجمة الحارات ونهب البيوت. وطمع العبيد بالحكم فسطوا على الحوانيت والقياسر[1]، وقصدوا ساحل مصر، فنهبوا الدور وأشعلوا فيها النار، بعدما أخذوا ما وجدوه فيها وفي الحوانيت من قمح وشعير وغير ذلك. وتطاولت أيديهم إلى منازل الجند، فنهبوا محتوياتها حتى ضج الناس، وأغلقوا دورهم، وحفروا حولها الخنادق لعرقلة وصول العبيد إليها، وهبّ الجميع إلى حمل السلاح لمقاتلتهم وردهم عن المدينة، حتى أن النسوة، شاركن في الدفاع عن الدور بضربهن العبيد من أعلى الدور بالحجارة والطوب والجرار[2].

ووقعت، لأول مرة، أعمال النهب، بمدينة القاهرة، ما بين باب الفتوح وباب زويلة، ونهبت القيسارية، التي كان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة، لأنها كانت مخزنهم، فجاء هذا الحادث بداية حكم الحافظ لدين الله واستيزاره لأبي علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، أول حادث حدث في القاهرة منذ إنشائها[3].

ولما هرب بهرام الأرمني سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م. من القاهرة إلى الصعيد

---

(١) مبارك: الخطط التوفيقية، ١/٥١.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٧٠.

(٣) المصدر السابق: ٣/١٣٩.

فراراً من وجه رضوان بن الولخشي، الزاحف إليها بعسكره، وقد تجمع الأمراء وقرروا الوقوف إلى جانب رضوان. استغل بعض رعاع الناس وأوباشهم هذه المناسبة، فاقتحموا دار الوزارة، ونهبوها، وهتكوا حرمتها، وعاثوا فيها تخريباً. فكان ذلك أول عملية سطو ونهب لدار الوزارة. ثم امتدت الأيدي بعد ذلك إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح، فنهبوها، ونهبوا كنيسة الزهري[١]، ونبشوا قبر البطريرك أخي بهرام الوزير[٢].

ولما استولى صلاح الدين على السلطة بعد موت العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين، شجع الجند الأتراك على مهاجمة دور الأمراء الفاطميين وقتلهم واتخاذ دورهم مسكناً لهم، فأعمل هؤلاء الأتراك السيف في رقاب المصريين المنتمين إلى الفاطميين، وشلحوهم ثيابهم، ونهبوا دورهم، حتى «صاروا أيدي سبأ» كما يقول ابن كثير[٣].

رابعاً ـ الكوارث:

وإن عرفت مصر ـ القاهرة بعض التحسن في النواحي المعيشية، فلا يصح ذلك على كامل أبناء المجتمع الفاطمي، لا سيما في المرحلة الثانية من تاريخ الدولة الفاطمية السياسي، لأن هذا التحسن، لم يدم طويلاً ولا كان مستمراً بغير انقطاع، إذ أصابتها أزمات مختلفة. فمنذ نهاية عهد الأخشيديين بدأت المجاعات التي امتدت حوالى تسع سنوات من ٣٥٣ هـ/ ٩٦٤م. ـ ٣٦١هـ/ ٩٧٢م.، فكانت عاملاً مشجعاً للفاطميين على فتح

---

(١) هدم كنيسة الزهري الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٠ هـ، عندما أنشأ البركة الناصرية إلى جوارها.

المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣/ ٥١٢ ـ ٥١٣.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

بلاد مصر، بعدما يئس بعض المصريين من حكم الأخشيديين. لكن هذه المجاعات تكررت في عصر الفاطميين على أيام الحاكم بأمر الله في السنوات ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م. و ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م. - ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م.، وعلى عهد ابنه وخليفته الظاهر لإعزاز دين الله، ثم في زمن خلافة المستنصر بالله سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م. و ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م. في أيام وزارة القاضي أبي محمد اليازوري إلى أن كانت الشدة العظمى التي ابتدأت في سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م. وانتهت في سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م.[١] فوصل سعر رغيف الخبز فيها إلى خمسة عشر ديناراً، وهو ما يوازي تسعة جنيهات، وبيع إردب القمح بثمانين ديناراً، وأُكِلَتْ الكلاب والقطط والدواب، وبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير.

ويصف المقريزي حالة الناس في مصر - القاهرة آنذاك بقوله: «وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً. وتحرَّزَ الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب، فإذا مرّ بهم أحد ألقوها عليه، ونشلوه في أسرع وقت، وشرحوا لحمه وأكلوه، ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره، وصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه، وذهب وقاره. وكانت نساء القصور يخرجن ناشرات شعورهن، تصحن: الجوع! الجوع! يردن المسير إلى العراق، فيسقطن عند المصلى ويمتن جوعاً»[٢].

حتى أن امرأة كانت تسكن في القاهرة، عرضت عقداً لها ثمنه ألف دينار على جماعة التجار ليعطوها به طحيناً، فاعتذروا، وأخيراً أشفق عليها بعضهم وباعها تليساً من الدقيق. وما إن دخلت من باب زويلة، عند

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٤٨ - ٦٢.

(٢) المصدر السابق: ص: ٦٠. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ١٦/٥ - ١٧.

عودتها من مصر، ومعها الدقيق حتى تكاثر عليها الناس وتخاطفوه منها، فلم تستطع الاحتفاظ بأكثر من ملء يديها، وهو ما بقي لها من تليس الطحين. فعجنته وشوته، ولما صار رغيفاً (قرصة) أخذته معها، وسارت إلى أحد أبواب القصر، ووقفت على مكان مرتفع، ورفعت الرغيف على يدها بحيث يراها الناس. ونادت بأعلى صوتها: «يا أهل القاهرة! ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقوّمت عليّ هذه القرصة، بألف دينار»[1].

ويقول ابن كثير: «حتى اللصوص قضى عليهم الجوع[2]. وأكل الناس بمصر في سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م. الجيف والميتات والكلاب[3]، ولم يتجاسر أحد أن يدفن ميته نهاراً، إنما يدفنه ليلاً، مخافة نبشه وأكله[4]. وظهر أن بعض الطباخين قد ذبح عدة نساء وبعض الصبيان، وأكل لحومهم، وباعها مطبوخة، وليس أدل على ذلك من الرواية التالية: كانت امرأة سمينة تجتاز زقاق القناديل بمصر، فعلقها أحد العبيد السود بالكلاليب، وسحبها إلى داره، وفيه بطحها أرضاً على وجهها، وأوثق رباطها بأيديها وأرجلها إلى أوتاد حديدية، ثم عرّاها من ثيابها وقطّع من عجزها شرائح وهي تستغيث وتصرخ ولا من يجيب. ثم جلس يأكل وقد توهم أنها لن تستطيع الإفلات من قيودها. لكن المسكينة بدأت تتململ وتشد إلى أن استطاعت أخيراً أن تفلت قيودها، وتخرج من داره زحفاً إلى أن وصلت إلى الخارج، فصرخت طالبة النجدة، فجاء

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص: ٦١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٦٨.

(٣) المصدر السابق: ١٢/٩٩،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/١٥ ـ ١٦.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٩٩،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/١٥ ـ ١٦.

الوالي وفتش الدار ليخرج منها ألوف القتلى ثم ضرب عنقه[(١)].

وكلما اشتدت الأزمات، وارتفعت الأسعار، وانتشرت الأمراض، وازداد الجوع، تزايد عدد الأموات بكثرة، حتى لم يجدوا من يدفنهم، فطرحت جثث كثيرة في النيل، وتفشت الأمراض عند ذلك لدرجة أن الوباء بمصر، قضى سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م. على أعداد كثيرة، فبلغ من دفن من الديوان سبعة آلاف وسبعمائة وستون شخصاً (٧٧٦٠ شخصاً)، سوى من لم يعلم بموته، أما من دفن بلا كفن فكثير[(٢)].

ولم تكن الحالة في أيام الظاهر لإعزاز دين الله بأفضل منها في أيام جده العزيز بالله إذ ضرب الجوع القاهرة، وأصبح الناس في مصر على أقبح حال من الأمراض والموت وشدة الغلاء وانعدام القوت، وكثرة الخوف من الذعار[(٣)]. أما في عهد المستنصر بالله فقد حلت الأمراض بمصر - القاهرة وعمها الوباء والقحط، الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، ممتداً ثماني سنوات من ٤٤٦هـ/١٠٥٤م. - ٤٥٤هـ/١٠٦٢م.[(٤)] فوصلت أعداد الموتى في اليوم إلى عشرة آلاف نفس[(٥)]، ثم تعود الأمراض وتتفشى بصورة أوسع في مصر عند حصول «الشدة العظمى» في الفترة الممتدة ما بين ٤٥٧هـ/١٠٦٥م. و٤٦٤هـ/١٠٧٢م. ليتنفس الناس الصعداء بمجيء أمير الجيوش بدر الجالي وتسلّمِه مقاليد الأمور.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٣٣٧،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/١٧.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/٢٤٦.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٣٥٤.
(٤) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ١٧١.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/٥٩.

ولم يكف المصريين، ارتفاع الأسعار، وانتشار المجاعة، وتفشي الأمراض، حتى تم حرق مصر على أيام الحاكم بأمر الله، بعدما طغى وبغى، ليس لسبب إلا لأن أهل مصر، عملوا له صورة امرأة من ورق، بخفيها وإزارها، وفي يدها قصة فيها من الشتم له ولأسلافه شيء كثير. فلما رآها ظنها امرأة، فمرّ من ناحيتها وأخذ القصة من يدها، وقرأ ما فيها، فغضب، وعندها أمر بإلقاء القبض عليها، لكنه ازداد غضباً لما أعلموه أنها من ورق. فأمر عبيده السودان أن يحرقوا مصر، وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، ففعلوا وقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيماً استمر ثلاثة أيام، والنار تلتهب ألسنتها مرتفعة في الجو، لتذهب محتويات الدور طعماً لها. فأتت على ثلثها، ونهب العبيد نصفها، وسبوا من الحريم الكثير، وفعلوا بهن الفواحش[1].

وتعرضت مدينة مصر (الفسطاط) سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م. إلى حريق آخر، افتعله شاور بن مجير السعدي، وزير العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين بمصر، بعدما طلب من أهلها الانتقال إلى القاهرة وإشعال الحرائق بها في وجه جيش الفرنج، فبقيت النار مشتعلة في المساكن أربعة وخمسين يوماً (٥٤ يوماً)، والعبيد ينهبون ما تركه الناس من أموالهم وأثقالهم، ويهدمون الحيطان ويحفرون الأرض طلباً للخباء. ثم جاء الفرنج بعد ذلك ليحاصروا القاهرة، فدافع عنها أهلها ببسالة طال معها الحصار، مما اضطرهم إلى قبول الصلح لقاء مبلغ أربعمائة ألف دينار تدفع إليه، ولم يتمكن شاور من جمع أكثر من مائتين وخمسة آلاف دينار (٢٠٥,٠٠٠ دينار)[2].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٩ - ١٠.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/١٨٠ - ١٨٢،
السيوطي: حسن المحاضرة، ١/٦٠٢ - ٦٠٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٢٥٥، =

في هذا الوقت كان العاضد لدين الله قد أرسل يستنجد بنور الدين زنكي صاحب دمشق قائلاً له: «أدركني، واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج»[1]. التزم له ثلث خراج مصر، على أن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عندهم، ولهم إقطاعات تزيد على الثلث. فلبى نور الدين الطلب، وسارت جيوشه بقيادة شيركوه إلى مصر، ولما بلغ الخبر إلى شاور بوصوله، ماطل في دفع المبالغ المقررة للفرنج معه. وهكذا نجت القاهرة من الفرنج، ومن نهبها وسبي أهلها، في الوقت الذي لم تنج من الحريق مدينة مصر.

وهبت على مدينة مصر في سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م. ريح سوداء مظلمة، وطلع سحاب أسود أظلمت منه الدنيا لدرجة لم يبصر أحد يده، وذرت رماداً ظن الناس أنها القيامة، فَيَئِسوا من الحياة، ثم خرجوا من الأسواق إلى الصحراء، إلى أن ركدت الريح، وأقلع السحاب، وانجلى السواد. فعاد الناس إلى منازلهم[2]. كما سقط فوق القاهرة سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م. برد بهيئة الألواح، وقد بالغ المقريزي عندما ذكر أن «بعضه كان بحجم البيضة ويزيد وزنه على الأوقيتين[3]، وسرعان ما كان يتكسر فور سقوطه على الارض»[4]. وأخيراً نذكر أن الجراد قد ظهر سنة ٤٠٣هـ/ ١١١٢م. بكثرة على الأراضي المصرية حتى بيع في أسواق مصر ـ القاهرة ليأكله الناس[5].

وهكذا كما رأينا فقد أصيبت مصر ـ القاهرة بالكوارث المختلفة، من جوع، وأمراض وحرائق، وَسطوٍ ونهب وخلافه. لكن أشدها فظاعة كان

=المقريزي: اتعاظ . . . . ، ٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٥٠ ـ ٣٥١،
السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ٤.

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ٢/ ٤.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٤٧.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ٦٧.
(٤) المصدر السابق: والصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٩٩.

الجوع والمرض مخلفاً الألوف من الأموات. وبقيت آثارهما تتفاعل في البلاد وفي نفوس العباد كلما أحسوا بضائقة اقتصادية أو مشاكل اجتماعية عانى منها المجتمع الفاطمي وهي كثيرة.

ونستخلص من الجدول البياني لمنسوب مياه نهر النيل، ومن الحوادث التي أصيبت بها مصر ـ القاهرة في عهد الفاطميين، أن نهر النيل كان له أكبر الأثر في سيرة الشعب المصري بشكل عام، لأن هذا النهر هو بمنزلة الشريان الرئيس والحيوي في البلاد، إذ لولاه لكانت البلاد أرضاً جدباء غير صالحة للزراعة وبالتالي للسكن. وكأن الله قد حباها به لتزدهر ويعمر اقتصادها وتزيد مواردها، بدليل النتائج السلبية وحتى الجيدة تظهر بسرعة على العباد والبلاد بمجرّد انخفاض ارتفاع منسوب مياه نهر النيل عن معدلاتها (١٦ ـ ١٣ ذراعاً) التي تبعث الخير وتزيد في نهضة الشعب وتقدمه.

وتتعدد النتائج والأخطار التي تصيبه، وتظهر مؤثراتها بشكل خاص في افتقاد البلاد إلى الثروة الزراعية، وتدني محاصيلها الزراعية أيضاً، فينعكس ذلك على الشعب إذ تعم الفوضى، وتنتشر البطالة، ويفلت حبل الأمن بسبب الجوع وانتشار قطّاع الطرق واللصوص في الوقت الذي يختزن فيه التجار البضائع والمواد الغذائية من حبوب وخلافها لبيعها بأغلى الأثمان في وقت الشح أو الفيضان وندور الأقوات، فتساقط الناس موتى جوعاً أو مرضاً بالأوبئة التي تتفشى من جراء ذلك. وتظهر هذه النتائج على الحيوانات التي قد تختفي من الأسواق والطيور الأليفة منها، لتعاون الإنسان والطبيعة في القضاء عليها.

وبعد هذا العرض، ألا يمكن القول بأن لنهر النيل الدور الأول والكبير في بعث السعادة والرفاهية للشعب المصري، واعتباره مظهراً رئيساً من مظاهر الفوضى والاضطراب والقلق النفسي لهذا الشعب؟.



الفصل السادس

الحياة اليومية

أولاً: العادات والتقاليد الحياتية

ثانياً: العادات والتقاليد الدينية

ثالثاً: العادات والتقاليد المدفنية

رابعاً: الاحتفالات والمواكب

خامساً: الهوايات والتسلية

سادساً: المسكرات والملذات

تتجلى الحياة اليومية في المجتمع المصري بأبهج صورها بالمظاهر الدالة على الإلفة والمحبة والعيش بسلام، ومشاركة الناس بعضهم بعضاً في الأفراح والأحزان، من خلال العادات والتقاليد والمعتقدات والأعياد والمناسبات والاحتفالات والمواكب الرسمية والهوايات والتسليات والملذات وما شابَهَها.

أولاً ـ العادات والتقاليد الحياتية:

عبّر الخلفاء الفاطميون عن مشاركتهم لأبناء مجتمعهم في أفراحهم وأحزانهم، وفي العادات التي درجوا عليها، أحسن تعبير، فلما ولد للوزير يعقوب بن كلس ولد ذكر أهداه العزيز بالله مهداً (سريراً) من خشب الصندل، مرصعاً بالذهب وثلاثمائة ثوب، وعشرة آلاف دينار (١٠,٠٠٠ دينار) عزيزية، وخمسة عشر فرساً بسروجها ولجمها، منها: اثنان من ذهب (السرج واللجام)، وعدد من قوارير الطيب حتى بلغت قيمة الهدية نحواً من مائة ألف دينار (١٠٠,٠٠٠ دينار)، وهي إن دلت على شيء إنما تدل على مشاركة الخليفة بفرحة الأب (يعقوب) بالمولود الجديد، وشعوراً بتقدير مركز الوالد[(١)]، ولما مرض ابن كلس زاره الخليفة العزيز بالله وقال له: «وددت أنك تباع فأبتاعك بمالي، أو تفدى فأفديك بولدي»[(٢)].

وكذلك ولد لأبي القاسم علي ابن القائد الفضل بن صالح ولد سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م. فبعث إليه العزيز بالله بثلاثين ثوباً فاخرة، وعشرة أردية، وعشر عمائم، وثوباً مثقلاً، ومنديلاً طوله مائة ذراع، ومنديلاً أقصر، وخمسمائة دينار، كما أهدت إليه بهذه المناسبة السيدة العزيزية مائة ثوب صحاحاً من كل فن، وثلاثمائة دينار ومهدين أحدهما أبنوس محلى بذهب، والآخر من الصندل محلى بفضة مخرقة (منزلة أو مدخلة) ولهما أغشية ومخاد وثياب وفرش مثقلة[(٣)].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٥٢.

(٢) ابن القلانسي: الذيل . . . ، ص: ٣٢، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٧.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٧١.

وولد للحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م. ولد، فجلس للهنا، منذ الصباح التالي، وأمر بإحراق الشونة التي كان قد أمر بصنعها تحت الجبل، وقد ملئت بالسنط (نوع من الخشب) والعفص والحلفاء. فأمر الحاكم بأمر الله بألف دينار للشريف أبي الحسن النرسي لذبحه العقيقة عنه بيده، وفرس ملجم وعدة ثياب لعثمان الحاجب من أجل حمله العقيقة والدم. ودفع مائتي دينار وفرس للمزين الذي سوى له شعره. وقد تجمع الأتراك والديلم والعرفاء وغيرهم أمام القصر ليعبروا عن فرحتهم بالمولود الجديد، مكثرين من الدعاء له، في الوقت الذي أقيمت الزينة وأضيئت الطرقات ليلاً في القاهرة مدة أربعة أيام[١].

ويذكر متز أن الفاطميين كانوا يقيمون حفلات عامة للختان (التطهير)، يختن فيها كل يوم من خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة. وتستمر أعمال الختان أحياناً عدة أيام متواصلة، تعد خلالها الولائم، ليأكل منها الخاصة والعامّة على حد سواء، ويوزع على الصبيان من مائة دينار لكل واحد إلى مائة درهم وأقل بحسب مراتبهم إلى أن تبلغ النفقة مائتي ألف دينار، عدا ما يقام في البيوت من الإنفاق واللهو بهذه المناسبة[٢].

ودرج المصريون في عاداتهم الشعبية على إقامة الأفراح بمناسبة الزواج عند الميسورين منهم في الدور الخاصة بالأفراح (كالقياسر). ولما كان بعض ملاك هذه الدور، قد راحوا يسترقون النظر إلى النساء ويشرفون عليهن وعلى العروس في وقت الجلوة (زفة العروس) وهو ما لا يسمح به، أمر الوزير والي مصر بأن يطلب من أصحاب دور الأفراح الذين يودون استمرار إقامة حفلات الزواج وغيره فيها، أن يمنعوا اختلاس النظر إلى من بداخلها، ببناء الأسوار العالية، وإلا منع من إقامة الأفراح بملكه وأمضى تعهداً بذلك[٣].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/٥٥.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية، ٢/٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/١٠٠ ـ ١٠١.

وجرت العادة، أن يقرع الطبل، ويضرب البوق بين أيدي الوزراء كلما خرجوا راكبين إلى مقابلة الخلفاء أو حضور الحفلات[1]، وهي قديمة. كما تبودلت الهدايا بين الخلفاء والوزراء والقواد والولاة، وبين الخلفاء وذويهم. ومن هذه الهدايا ما قدمه جوهر الصقلي إلى المعز لدين الله، بعد وصوله إلى القاهرة، قادماً من المغرب، وجلوسه على عرش من الذهب في الديوان الكبير، وكانت هدية جوهر مائة وخمسين فرساً مسرجة وملجمة، منها بالذهب، ومنها مرصع، ومنها بالعنبر، وإحدى وثلاثين قبة على بخاتي بالديباج والمناطق والفرش، وتسع نوق مزينة بمثقل، وثلاثاً وثلاثين بغلة، منها سبع بغال مسرجة ملجمة، وتسعين نجيباً وأربعة صناديق ملأى بأواني الذهب، والفضة ومائة سيف محلى بالذهب والفضة، ودرجين من الفضة مخرقة فيها جوهر، وشاشية مرصعة في غلاف، وتسعمائة ما بين سفط وتخت (وعاء لحفظ الثياب) فيها كل ما أعدّ له من ذخائر مصر[2]. وأهدت «ست الملك» شقيقها الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٧هـ/٩٩٨م ثلاثين فرساً مسرجة، أحدها مرصع وآخر بلور، وبقيتها ذهب، وعشرين بغلة مسرجة ملجمة، وخمسين خادماً، منهم عشرة صقالبة، ومائة تخت ثياب، وتاجاً مرصعاً، وشاشية مرصعة، وأسفاطاً كثيرة من طيب، وبستاناً من الفضة مزروعاً بأنواع الشجر[3].

وحمل فهد بن إبراهيم الكاتب، الملقب بالرئيس إلى الحاكم هدية، منها: ثلاثون بغلة بألوان من الأجلة (مفردها جلال)، وعشرون فرساً منها عشرة

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٥١.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٥١.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١٣٦.

المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣٨٥.

مسرجة ملجمة، وعشرة بجلال ملونة، وعشرون ألف دينار، وسفط فيه حلة دبيقية مذهبة لم ير مثلها، ودرج فيه جوهر، وأسفاط كثيرة فيها البز الرفيع، وخزانة مدهونة[1].

وما هذه إلا أمثلة قليلة، لأن الهدايا، ما انقطعت بين الخلفاء وأهل الحكم، وخاصة هدايا الخلفاء وجوائزهم وخلعهم على الأطباء والقواد والرجال الرسميين والشعراء والعلماء والفقهاء والقضاة، بمناسبة وبغير مناسبة، وكانت كثيرة لا مجال لذكرها، وإنما سقنا هذه الأمثلة لتكون شاهداً على أعمالهم وأنموذجاً على حياتهم العادية اليومية.

ثانياً ـ العادات والتقاليد الدينية:

وإن أخذ الفاطميون بهذه العادات، ودرجوا عليها بمحض إرادتهم، فقد رفضوا مبدئياً قبول ما طلب إليهم الحاكم بأمر الله العمل بموجبه، وهو غلق الأسواق نهاراً، والعمل ليلاً، وإن طبقوا أوامره مرغمين، فقد بقي منهم من خالفها، مما اضطر الخليفة أن يعود عن أوامره بتعويد الناس عادات غير مألوفة وغير مقبولة لأسباب عديدة[2]. وهو ما جرى عليه الحاكم بأمر الله في إصدار الأوامر ثم إلغائها لعدم جدوى فعاليتها.

وهدف الفاطميون فيما هدفوا إلى نشر المذهب الفاطمي بين الناس، وحَمَّسَ هؤلاء على اعتناق مذهبهم في كافة البلاد الخاضعة للحكم الفاطمي. فكانت الحياة الدينية اليومية عندهم سجلاً حافلاً بشواهد التعصب الديني إزاء مخالفيهم بالمذهب أو الدين، وقرارات تنم عن روح العداء للأديان الأخرى والمعتقدات المخالفة أحياناً كثيرة. وما توارى المعز لدين الله في السرداب لمدة سنة[3]، إلا من باب إضفاء هالة من القدسية على شخصيته،

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٥ و٢٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٩.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ملاحظة رقم ٢، ١٠٧،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٧١ و٧٤.

وإظهار الخلفاء الفاطميين أمام الناس بمظهر غير عادي لإيمانهم بالحلولية.

وتتوضع صورة التعصب المذهبي لدى الخلفاء الفاطميين، من قتلهم كل من يتظاهر بأنه سنّي، وكل من يثير الإشاعات بين الناس ويروّجها عن السنّة. ففي سنة ٣٩١هـ/١٠٠١م. ألقي القبض على رجل شامي لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل الإمام علي بن أبي طالب، فحبسه قاضي القضاة، وبعث إليه بأربعة فقهاء للتحقيق معه وحمله على الاعتراف بإمامة علي، ولما لم يقنع أخبر الحاكم بأمر الله به، فأمر بضرب عنقه وصلبه[(١)].

وقتل، الحاكم بأمر الله رجاء بن أبي الحسين، بعدما أمر بقراءة سجل قرىء بمصر والقاهرة، يأذن فيه الخليفة أن يتبع كل واحد طريقاً يختاره من المذاهب، فلما عمد رجاء هذا إلى إجانة كبيرة فملأها خلوقاً، وخلق بها مسجده، وصلّى فيه القيام (مما يدل على أنه سنّي)، فقتله. وقتل أيضاً رجلاً يعرف بابن الرقاق لأنه تقدم فصلّى بالناس في جامع عمرو بن العاص القيام. وبسبب هذا التشدّد في مظاهر التعصب، فقد كثر الوشاة بالناس والساعين إلى كسب الأموال لقاء ترويج الأخبار الكاذبة عن الناس، وعن أمور السلطان[(٢)].

ومن أعماله الدالة على التعصب الديني إعطاء الأوامر بوجوب نقش سب الصحابة على حيطان الجوامع والقياسر والشوارع والطرقات، وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر. وكتب السجلات (مراسيم) إلى سائر العمّال يدعوهم فيها إلى السب. وتوصلت أعمال بعض الغلاة من الفاطميين إلى إهانة قافلة من الحجاج كانت في طريقها إلى الحج، سباً وشتماً، بعدما رفض أفرادها سب السلف ولعنهم[(٣)].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٣٩.

(٢) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٧٢،
المقريزي: اتعاظ لحنفا، ٢/ ٧٧ و٨٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٣٩٧،
ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٥١،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٨٦،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٧٧.

وشأنه في قراراته الدينية كشأنه في سائر قراراته، سرعان ما يعود عنها. فبعدما شعر الحاكم بأمر الله، بقلق الرعية من السنيّين تجاه تلك القرارات، أمر بالعودة عن سب السلف، ولعن الصحابة، ثم أقدم على ضرب وتشهير كل من فعل ذلك في الشوارع، وعلى مرأى من الجمهور[1] ولم يمنع أحداً من أن يقول: «اللهم ارحمهم، واللهم ارحمه»[2]. وسلك مسلكاً أكثر قساوة مع اليهود والنصارى كما سنرى بعد قليل، وأصدر سجلاً بقطع مجالس الحكمة التي كانت تقرأ على الأولياء في يومي الخميس والجمعة.

وحدّد الحاكم بأمر الله مواقيت الصلاة على الشكل التالي: أن تقام صلاة الظهر في الساعة السابعة، والعصر في الساعة التاسعة باعتمادهم على المزولة[3]. وتعاقبت السجلات التي كانت يصدرها في سبيل تنظيم الحياة الدينية. فمنها قرىء سجل في الجامع العتيق، بإقبال الناس على شأنهم، وتركهم الخوض فيما لا يعنيهم وسجل آخر برد التثويب في الأذان، والإذن للناس في صلاة الضحى والقنوت ثم الدعوة إلى الاجتماع في سائر الجوامع، وقراءة سجل بأن يتركوا من الأذان: «حي على خير العمل» ويزاد في أذان الفجر: «الصلاة خير من النوم» وأن يكون ذلك من مؤذني القصر عند قولهم: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله»[4] ثم بعد أقل من خمسة أشهر كما يقول المقريزي[5]: «قرىء سجل في سائر الجوامع بالنهي عن معارضة الإمام (الخليفة) فيما يفعله، وترك الخوض فيما لا يعنيه، وأن

(1) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٣٠٥،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٥٤.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٨٧.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٤١.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٢.

(5) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٥١،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٦.

يؤذن بـ: حي على خير العمل، ويترك من أذان الصبح قول: الصلاة خير من النوم، والمنع من صلاة الضحى، وصلاة التراويح، وإعادة الدعوة والمجلس، كما كانت».

وبعد أن قتل الحاكم بأمر الله رجاء بن الحسين لصلاته صلاة التراويح، لم يصل أحد التراويح بعد ذلك، إلى أن أمر بإقامتها سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م.[١]. وكان قد قبض، في سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م. في مدينة القاهرة، على ثلاثة عشر رجلاً، لأنهم صلوا صلاة الضحى الممنوعة بحسب المنطق الحاكمي، وشهر بهم في الشوارع، وضربوا وحبسوا ثلاثة أيام[٢].

وشملت قرارات الحاكم بأمر الله التقويمية، إلى أصحاب الدواوين، بأن يؤرخوا مستهل رجب من سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م. الثلاثاء بدلاً من يوم الاربعاء أول هلاله[٣]. إلا أنه ترك الحرية، لجميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم، في اتباعهم عند الصيام والفطر، رؤية الهلال أو اعتماد الحساب، ولذلك أصدر سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م. السجل الآتي نصه:

«يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون، ويفطرون، وصلاة الخمس للذين بما جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها، ولا هم عنها يدفعون، ويخمس في التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التربيع عليها المربعون، ويؤذن: بحي على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذن من بها لا يؤذنون، لا يسب أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يصف، والحلف منهم بما حلف، لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاد»[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٣٠٥،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٦.
ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٥١،

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٨٦.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٧٨.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٩.

وتعزيزاً للمظاهر الدينية درجت الدولة الفاطمية على تسيير بعثة الحج برعايتها إلى المدينة النبوية، وإرسال الكسوة إلى الكعبة مرتين في السنة. ويصدر عن الخليفة سجل يحدد وقت مسير بعثة الحج، فيقرأ على الناس في المساجد منتصف شهر رجب من كل سنة. وقد حفظ لنا ناصر خسرو[1] نصاً لمرسوم كان قد أصدره الخليفة المستنصر بالله ونصه:

«يا معشر المسلمين، حلّ موسم الحج، وسيجهز ركب السلطان المعتاد، وسيكون معه الجنود والخيل والجمال والزاد».

ويبدأ الناس بالتجمع في مكان معين اعتباراً من أول ذي القعدة لتسير القافلة في منتصف هذا الشهر، ويذكر ناصر خسرو قيمة المصارفات التي تدفعها الدولة الفاطمية على البعثة، بقوله[2]: «ويبلغ خرج الجيش الذي يرافق السلطان (الخليفة) ألف دينار مغربي في اليوم، هذا عدا عشرين ديناراً مرتبة لكل رجل فيه». وعن المدة لتي تستغرقها البعثة، «ويبلغون مكة في خمسة وعشرين يوماً. ونفقاتهم في الشهرين ستون ألف دينار مغربي، عدا التعهدات والصلات والمشاهرات وثمن الجمال التي تنفق في الطريق».

بينما يعطينا المقريزي[3] قائمة بالنفقات تعادل ضعف المبالغ التي ذكرها ناصر خسرو، فذكر أن مجموع النفقات في موسم الحج في كل سنة تسافر فيها البعثة كان مائة وعشرين ألف دينار، فثمن الطيب والحلوى والشمع يبلغ في كل سنة عشرة آلاف دينار، ونفقة الوفود الواصلين إلى الحضرة، أربعين ألف دينار، وكلفة الحمايات والصدقات، وأجرة الجمال، ومعونة من يسير من العسكرية، وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار، وغير ذلك ستين ألف دينار، ولعل المقريزي بتقديمه هذه اللائحة المفصلة كان أدق من ناصر خسرو في إعطائه قيمة النفقات، وقد اتفقا على المبلغ المنفق على

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص: ١٠٩ ص: ١١٠.

(٢) المصدر السابق: ص: ١١٠.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٩٢.

حرس البعثة وحمايتها وهو ستين ألف دينار، ولم يذكر ناصر خسرو النفقات الأخرى رغم كونه شاهد عيان، وقد شارك فعلاً في بعثة من بعثات الحج عند مغادرته الأراضي المصرية. والجدير بالذكر أن تلك النفقات قد ارتفعت في أيام وزارة اليازوري (وزير المستنصر بالله) إلى مائتي ألف دينار (٢٠٠ ألف دينار).

وكانت العادة قبل سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م. أن يسير الحجاج في منتصف ذي العقدة، فأصدر الحاكم بأمر الله في هذه السنة سجلاً، قدم بموجبه سير البعثة إلى مستهل ذي القعدة، ولكن لمدة سنتين فقط، ففي سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٦م.، سافرت البعثة في منتصف شهر ذي القعدة، وسرعان ما عمل على تسيير قوافل الحجاج بعد سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م. في منتصف شهر شوال[١]. أنه جرى تقديم الموعد شهراً واحداً.

ويتأثر مسير بعثات الحج إلى مكة المكرمة بمؤثرات سياسية وطبيعية، فيصدر الخليفة لذلك مرسوماً يوضح فيه أسباب تأخير البعثة أو إلغائها. وليس أدل على ذلك سوى المرسوم الذي أصدره المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م. ناصحاً رعاياه بالامتناع عن الحج. وهذا نص المرسوم أو السجل، طبعاً بعد البسملة:

«يقول أمير المؤمنين، إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام، فإن به قحطاً وضيقاً، وقد هلك به خلق كثيرون، وإني أقول هذا شفقة بالمسلمين»[٢]. ولذلك لم يسافر الحجاج تلك السنة.

كانت هذه بعض جوانب الحياة الدينية عند المسلمين. وحتى تكتمل حلقات المجتمع المصري الحياتية، نوضح بعض جوانب هذه الحياة عند أهل الذمة من اليهود والنصارى الذين عاشوا في مصر ـ القاهرة في العصر

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/٨٦.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ١١٠.

الفاطمي. فالحياة الدينية عند الذميين اختلفت باختلاف الخلفاء، وتبعاً للرياح السياسية، وبحسب ضغوطات المسلمين، بين الحرية الدينية وممارسة الشعائر الطقسية، وبين الحرمان من ممارسة تلك الشعائر والقسوة بفرض قيود مختلفة عليهم وإخضاعهم إلى بروتوكولات تحدد فيها المواصفات الواجب عليهم اتباعها والحدود المسموح لهم تخطيها أو الوقوف عندها.

وفي ذلك يقول حسن ابراهيم حسن[1]: «إن سياسة الحاكم بأمر الله مع غير المسلمين وبخاصة النصارى، كانت تخضع لرأي جمهور الأمة، الذي يعود استياؤه ليس بسبب التعصب للإسلام فقط، بل لأن أهل الذمة كانوا يشتغلون بجمع الضرائب من الشعب». وهو ما دعاه إلى احتقارهم والقسوة عليهم، فجعلت لهم علامات فارقة في ألبستهم يمتازون بها عن المسلمين، لتسهل معرفتهم على الجميع. فمن العلامات الدالة على النصارى الزنار المشدود على أوساطهم، وعلى اليهود العلامة الصفراء في عمائمهم[2].

وكان الحاكم بأمر الله أمر بتخريب كنيسة القيامة بالقدس سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م.، وأباح للعامّة ما فيها من الأموال والأمتعة وغير ذلك، وهدم عدة كنائس بمصر، ثم نودي في النصارى، من أحب الدخول في الإسلام دخل، ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمناً. ومن أقام منهم على دينه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط، التي زادها الحاكم بأمر الله على الشروط العمرية[3].

---

(١) حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/٢٨.

(٣) الشروط العمرية أو عهد عمر هي:
- ألا يُحدِث النصارى معبداً،
- ان ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام،
- ألا يؤووا في كنائسهم جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين،
- ألا يقلدوا المسلمين بشيء من اللباس أو الركوب، أو تعلم القرآن، أو نقش أسهم بالعربية على أختامهم. زيدان: التمدن الإسلامي، ٤/١١٢.

ولما وقعت الهدنة بين امبراطور الروم وبين الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م. سمح لمن يرغب من النصارى الذين أسلموا في أيام الحاكم بأمر الله بالارتداد عن الإسلام، فارتد كثير ممن أسلم[١]، ويضيف ابن كثير على لسان الخليفة: «ننزه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له، ولا يعرف باطنه»[٢]، ولكن هذا لم يمنع تطبيق سياسة القسوة مع المرتدين عن الإسلام، بقتل كل من أسلم ويحاول الارتداد عن الإسلام إلى النصرانية، ودليلنا على ذلك، قتل أبو زكريا، الذي كان نصرانياً وأسلم، فكتب الحديث وقرأ القرآن، وحجّ، ثم ارتد إلى النصرانية، فقتل أغلب الظن لقوله: ما عمل فيّ سحر نبيكم، فضربت عنقه بعدما ثبت عليه هذا[٣].

من هنا نستطيع القول بأن النصارى ومصائرهم كانت تتأثر بالعلاقات مع الامبراطورية البيزنطية، بمعنى أنه كلما ساءت العلاقات بين الفاطميين وبين البيزنطيين، كانت حياة النصارى وأرواحهم بخطر، وكلما تحسنت هذه العلاقات وتوطدت، كلما انفرجت المضايقات التي يعتمدها الخليفة وتحسنت أوضاعهم.

ثالثاً ـ العادات والتقاليد المدفنية:

لقد أحضر المعز لدين الله الفاطمي أجساد آبائه في توابيت من بلاد المغرب، كما مرّ معنا، وهم عبيد الله المهدي، وابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، وابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر إسماعيل، فدفنهم في التربة المعزية، فاستمرت هذه بعد ذلك مدفناً للخلفاء، والوزراء وأولادهم،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٣٣٩،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٧٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٢٣٩.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣٥٥.
: واتعاظ الحنفا، ٢/ ١٣٦.

وكانت تعرف بتربة الزعفران. وكان لهذه التربة عوائد ورسوم كثيرة، ومنها: أن الخليفة كلما ركب بمظلة وعاد إلى القصر، لا بدّ ان يدخل إلى زيارة مدافن آبائه في هذه التربة. وكذلك لا بدّ من أن يزورها في كل جمعة، وفي عيدي الفطر والأضحى مع صدقات ورسوم[1].

ونهى الفاطميون عن النواح والعويل على الميت، ولم يمانعوا في سير النساء خلف جنازة أقربائهم، شرط عدم كشف وجوههن في الطريق العام، وأن لا يصرخن[2]. ولما اعتل الأمير عبد الله بن المعز لدين الله، ومات في سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م.، جلس والده للعزاء، ودخل عليه الناس بغير عمائم، وبعضهم شوّه وجهه وغيّر هيئته، وأظهر الجزع الشديد، فكان الخليفة يسكّتهم ويهدىء من جزعهم ويقول:

«اتقوا الله، وارجعوا إلى الله»

وعبرت الرعية عن حزنها، بغلق الحوانيت في الأسواق، وجلسوا بزيهم، كما وقف البعض، في الوقت الذي أمر فيه القاضي محمد بن النعمان بغسله، والمعز يتحدث، ويسأل عن آي من القرآن وعن معانيها، لأن القرّاء كانوا يقرؤون، ثم يتبادل الحديث مع المعزين حول أخلاقية الفقيد وأثر ذلك على مفتقديه[3].

وعلى الرغم من أن الآراء الاسماعيلية الاجتماعية كانت تقضي بمنع الصراخ والعويل خلف الميت، لأن النياحة على الموتى من افعال الجاهلية باعتقادهم، فقد نهى المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل ابنه المعز لدين الله:

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٠٧.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢٨٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/٥٢،

Lane Poole, A.: History of Egypt in the M.A, P.126.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/٢١٧.

«أن ينوح عليه عند موته»[1]، وعلى الرغم من كل ذلك، فقد خرج تابوت (النعش) عبد اللّه بن المعز لدين اللّه، وحوله أهل الدولة بالصراخ والبكاء، فصلّى عليه والده الخليفة، ودخل مع النعش إلى التربة المعزية، حتى واراه الثرى[2].

وكانت التقاليد المدفَنيَّة تقضي، بالمبالغة في تكفين الميت، إظهاراً للثروة التي حصلوا عليها، ودلالة على العظمة والأبهة، ومن ذلك أنه لما توفيت زوجة العزيز باللّه «بمنا جعفر» حملت إلى القصر، وصلى عليها الخليفة بعد أن كفنها بما قيمته عشرة آلاف دينار (١٠ آلاف دينار)، وأخذت الغاسِلة ما كان تحتها من الفرش، وما كان عليها من الثياب، فقدر ما أصابها من ذلك، بستة آلاف دينار (٦ آلاف دينار)، ودُفع إلى الفقراء ألفا دينار، وللقرّاء الذين قرؤوا على قبرها ثلاثة آلاف دينار. ورثاها جماعة من الشعراء، فأجيزوا، وبلغت جائزة البعض منهم خمسمائة دينار. وبعدما ووريت الثرى، رجع زوجها العزيز باللّه الى قصره، بينما بقيت ابنتها عند قبرها تقيم العزاء لمدة شهر، والعزيز باللّه يأتيها في كل يوم، وموائد الأطعمة والحلوى ممدودة كل ليلة، يأكل الناس منها ما شاؤوا[3]. ثم توفيت والدته فصلّى عليها أيضاً وأمر بالصدقة عن روحها[4].

وكانت مصائب الموت عند الخلفاء والأغنياء فوائد عند الفقراء، لأنها مظهر من مظاهر المبارزة في قول المراثي والنياحات عند النساء في سبيل الحصول على جائزة كبرى. ومن ذلك، فقد أطَلَّ الخليفة الظافر بأمر اللّه، من باب الذهب، ليرى رأس العادل بن السلار، وقد نصبت ليراها الناس. وعلى الرغم من عدم معارضة أحد على قتله، إلا أن نائحة ماهرة في صناعة

---

(١) مشرفة: نظم الحكم . . .، ص: ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢١٧

(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٢٨٩.

النياحة على الأموات، وقد أنشدت في نواحها العجائب والروائع، قالت فيه ترثيه سطرين أعجب بهما أدباء العصر من مرثية طويلة، وهما:

ما تقبل الغفلة يا شهيد الدار
يا شبه ذي النورين صاحب المختار[1]

ولما توفي بهرام الأرمني وزير الحافظ لدين الله سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤١م.، حزن عليه الخليفة حزناً كبيراً، فأعطيت الأوامر بإغلاق الدواوين مدة ثلاثة أيام، لما له من أثر طيب في قلب الخليفة، وطلب من البطريرك الملكاني ترؤس المراسم الجنائزية. فعندما أخرج تابوته من القصر وسط النهار محمولاً على الأكف كان النعش مجللاً بثوب من الديباج الأحمر، يحف به رجال الدين النصارى وهم يحملون المباخر يبخرون باللبان والصبار وسن العود، وسار خلف النعش، الأشراف والأمراء وعامة الشعب مشاة، بينما سار الخليفة الحافظ لدين الله، راكباً على بغلة شهباء، معمّماً بعمامة خضراء وثوب أخضر بغير طيلسان، وقد اختلطت أصوات تراتيل رجال الدين بصراخ الناس وبكاء بعضهم أثناء الطريق إلى دير الخندق في ضواحي القاهرة. ونزل الخليفة عن بغلته ووقف على حافة القبر مودعاً وزيره قبل أن يلحد إلى درجة لم يتمالك معها نفسه، فأجهش بالبكاء الشديد[2].

رابعاً ـ الاحتفالات والمواكب:

١) المناسبات الإسلامية:

أكثر الفاطميون من الاحتفالات العامّة والمواكب والأسمطة في الأعياد والمناسبات الإسلامية التي لم يكن لها نظير في مصر لا قبلهم ولا بعدهم،

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ٢٠٥.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٨٤،
ابن القلانسي: الذيل، ص: ٢٨٣ ـ ٢٧٤ و٢٩٦.
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٣/ ١٧٥.

وهذه الاحتفالات العامّة كانت في غاية من الفخامة والضخامة لتتناسب والعظمة الفاطمية، وقد أقروا الأعياد الإسلامية التي كانت قبلهم وزادوا عليها الأعياد الشيعية وهي: عيد رأس السنة الهجرية، والمولد النبوي، وعيد الفطر، وعيد الأضحى (النحر)، والموالد الأربعة (مولد الإمام علي بن أبي طالب - ومولد الحسن بن علي - ومولد الحسين - ومولد فاطمة)، ومولد الخليفة الحاضر، وغدير خم، وأخيراً عيد النصر[١].

أ - رأس السنة الهجرية:

جاء اهتمام الفاطميين بليلة أول «المحرم» من كل عام، لكونها أول ليالي السنة، ومن تقاليدهم التي درجوا عليها في ليلة رأس السنة أن تحضر الخراف المشوية، وجفان اللبن، وزبادي الطعام، وجامات الحلوى والخبز، وقطع منقوعة من سكر وأرز بلبن وسكر، فتفرق على أرباب الرتب العالية وأصحاب الدواوين وأرباب السيوف والأقلام، فيعم ذلك سائر الناس من خواص الخليفة وجهاته والاستاذين المحنكين وأرباب الضوء (المشاعلية) في مصر - القاهرة[٢].

ب - مولد النبي:

وكانوا يحتفلون بذكرى المولد النبوي الشريف في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، بتفريق صوانٍ من النحاس وعليها أنواع مختلفة من

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٧٤ - ٧٥.
النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، طبعة دار الكتب المصرية. ٢/ ٢١٧.
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٩٠.
حسن: الدولة الفاطمية، ص: ٦٤٧ - ٦٤٨،
أمين: ظهر الإسلام، ١/ ٢٠٨ - ٢٠٩.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٩٠.

الحلوى الجافة، والمصنوعة بدار الفطرة، وذلك على أصحاب الرسوم من أرباب الرتب. وأول أصحاب هذه الرسوم، قاضي القضاة ثم داعي الدعاة، والقراء بالحضرة، والخطباء والمتصدرون بالجوامع في القاهرة، وقومة المشاهد. ويركب القاضي بعد صلاة الظهر والشهود بأجمعهم، إلى الجامع الأزهر، ومعهم أرباب تفرقة الصواني، فيجلسون قليلاً قبل استدعاء قاضي القضاة ومن معه، إذا كانت الدعوة مضافة إليه (أي قاضي القضاة وداعي الدعاة في آن واحد)، وإلا حضر الداعي معه بنقباء الرسائل، فيركب الجميع، ويسيرون إلى جوار ما بين القصرين حيث يقف الجميع هناك، إلى أن يظهر صاحب الباب من الركن المخلق، في الوقت الذي يكون فيه والي القاهرة، في ذهاب وإياب، يشرف على تنظيم الحركة لمنع الازدحام بعد أن تكون الطريق من الركن المخلق، ومن سويقة أمير الجيوش قد كنست ورشت رشة خفيفة بالماء وفرشت تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر. وعند وصولهم إلى قبيل المنظرة فوق باب الذهب، يترجلون تحتها ينتظرون بسكون وتشوف إطلالة الخليفة عليهم من إحدى طاقات المنظرة، وأحد الاستاذين من طاقة أخرى، وقد أخرج منها رأسه، ويده اليمنى في كمه، ويشير إلى الجموع في اللحظة التي يكون قد أطل فيها أمير المؤمنين الخليفة الفاطمي قائلاً: أمير المؤمنين، يرد عليكم السلام، فيسلم على قاضي القضاة أولاً ثم صاحب الباب، فالجماعة الباقية جملة جملة من غير تعيين أحد، والقرّاء يقرأون وهم قيام، وجوههم إلى الحاضرين وظهورهم إلى حائط المنظرة. ثم يبدأ خطيب الجامع الحاكمي (الجامع الأنور)، فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل إلى ذكر النبي فيقول: إن هذا ليوم مولده... إلى ما منّ الله به على ملة الإسلام من رسالته، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة. ثم يفسح في المجال فيتأخر ليتقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يليه هكذا بالتناوب خطيب الجامع الأقمر، والقرّاء بين الخطبة والخطبة يقرأون بعضاً من آي القرآن. وبعد انتهاء الخطباء

يخرج الأستاذ رأسه من طاقته ويرد على الجماعة السلام، ثم تغلق الطاقتان ويعود المحتفلون من حيث أتوا[1].

ج ـ الموالد الأربعة، ومولد الخليفة الحاضر:

وتأتي احتفالاتهم، بهذه الموالد، مشابهة لما يقومون به في المولد النبوي الشريف، فنكتفي بما ورد أعلاه.

د ـ عيد الفطر، وعيد الأضحى:

كان الخلفاء الفاطميون في نهاية شهر رمضان، وانقضاء الصوم، أو عند حلول عيد الأضحى (النحر) يعبرون عن فرحتهم بهاتين المناسبتين، بإقامة الصلوات وإعداد أسمطة الطعام، وتوزيع الهبات من الدنانير، وسنفصل ذلك عند الكلام على الولائم والمواكب.

هـ ـ عيد الغدير، غدير خم:

كان أول من احتفل بعيد الغدير من الخلفاء الفاطميين المعز لدين الله، وذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣م.، إذ اجتمع خلق كبير من أهل مصر الشيعة والمغاربة ومن والاهم، لإقامة الصلوات والدعاء، وذلك بجامع القاهرة. فكان هذا أول ما أقيم بمصر. وحذا حذوه كل من جاء بعده من الخلفاء، بإقامة الصلوات والدعاء للإمام علي ابن أبي طالب وأهل بيته، وإلقاء الخطب، ثم استعراض طوائف العسكر طائفة طائفة، والوزيرية، والأمراء المطوقين، وصاحب الباب ونواب الباب وسائر الحجاب، واسفهسلار العسكر، وأصحابه وأجناده ووالي مصر والقاهرة. وبعد ذلك، يقبل الإسماعيليون على تهنئة بعضهم بعضاً، كما يجلس الوزير في مجلسه يتقبل التهاني بالعيد والخلع التي يخلعها الخليفة عليه،

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٣٣.

والرسوم المقدمة إليه برسم منديل الكم ألف دينار، ورسم الإخوة والأقارب ألف دينار أيضاً[1].

وينحر الفاطميون بمناسبة عيد الغدير أكثر مما ينحرون في عيد الأضحى، وتزيد فرحتهم بهذه المناسبة عند توزيع الكسوة وتفرقة الهبات لكبراء رجال الدولة ورؤسائها وشيوخها وأمرائها وضيوفها، والاستاذين المحنكين والمميزين، كما توزع النحائر على أرباب الرسوم، وتعتق رقاب بعضهم، ويتم زواج الإماء في هذه المناسبة[2].

يعود احتفال الفاطميين بعيد الغدير إلى قصة مفادها أن النبي محمداً في أثناء عودته من حجة الوداع (الأخيرة) من مكة، وصل إلى مكان كثير الغَيْضة، وفيه غدير ماء، في واد ما بين مكة المكرمة والمدينة، يعرف بوادي خم، فصلى النبي بمن معه هناك صلاة جامعة عند الظهر في ظل شجرتين كانتا هناك، وأثناء الصلاة، أخذ النبي بيد علي بن أبي طالب ثم قال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله[3].

و ـ عيد النصر:

هذا العيد احتفل به لأول مرة في ١٦ محرم من سنة ٥٢٦ هـ/ ٩ كانون الأول ١١٣١م. يوم أطلق سراح الحافظ لدين الله من حبسه، وكان قد عزله عن الناس أبو علي أحمد بن الأفضل ابن أمير الجيوش

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣٨٨ ـ ٣٩٠ و٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٢٣٠ ـ ٢٣١،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣٨٨.

بدر الجمالي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م.[١]. وكان قد أقيم على أيام الحافظ فقط.

واحتفل الفاطميون في مناسبات أخرى: كذكرى عاشوراء، وموسم شهر رمضان، وليالي الوقود الأربعة (ليلة أول رجب ونصفه، وليلة أول شعبان ونصفه) وكسوة الشتاء وكسوة الصيف.

ز ـ ذكرى عاشوراء:

اتخذ الفاطميون العاشر من محرم سنة ٦١هـ/ ٦٨٣ م. يوم مقتل الحسين ابن علي ومن معه في كربلاء[٢] ذكرى، تحتفل بها الدولة والشعب بالمناثح والمباكي والمراثي التي يرثي بها الشعراء الحسين بن علي وسائر أهل البيت، والحزن باد على الجميع، من تغيير أزيائهم ولبس قماش الحزن، وتعطيل الأسواق، وخروج المنشدين والناحة إلى الطرقات، وإقامة الصلاة الجامعة في الجامع الازهر، فيجلس الوزير في صدره، وعن جانبيه قاضي القضاة وداعي الدعاة ثم الشهود والأمراء والأعيان وقرّاء الحضرة والمتصدّرون في الجوامع، وأخيراً بقية المحتفلين، فيتلو القرّاء ما تيسر من سور القرآن بالتناوب. ثم ينشد بعض الشعراء (من غير شعراء الخليفة) أشعاراً يرثون بها الحسن والحسين وأهل البيت، وقد يصاحب الشعراء في مراثيهم ارتفاع الصراخ والضجيج بالبكاء والعويل. والشيء اللافت هو أنه إذا كان الوزير شيعياً، غالى الشعراء في مراثيهم، وتعالى الصراخ واستطال وإن كان سنياً اقتصروا على القليل واختصروا في النواح. وغالباً ما لا تنتهي هذه الذكرى المحزنة قبل مرور ثلاث ساعات.

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) أبو حنيفة الدنيوري: أحمد بن داود: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة جمال الدين الشيّال، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٠، ص: ٢٥١ ـ ٢٦١،
المسعودي: مروج الذهب، ٣/ ٦١.

وقبل الانتهاء من عمل هذه الذكرى يحضر رسل الخليفة (نقباء الرسائل) يستدعونهم إلى القصر، فيركب الوزير ملثماً بمنديل صغير إلى داره، بينما يدخل قاضي القضاة والداعي ومن معهما إلى باب الذهب (أحد أبواب القصر)، فيجدون الدهليز وقد فرشت مساطبه بالحصر والبسط، وكذلك أقيمت الدكك في الأماكن الخالية، فيجلس القاضي والداعي إلى جانب صاحب الباب، ثم سائر الناس على اختلاف طبقاتهم، فيقرأ القرّاء وينشد المنشدون أيضاً[1].

ثم يفرش في الدهليز على المساطب والدكك «سماط الحزن» وقد وضعت فوقه ألف زبدية من العدس والمخلّلات (ما نسميه المكابيس: خيار، لفت، باذنجان... الخ.) والأجبان والألبان، وعسل النحل والفطير والخبز الأسود (المصنوع من الشعير خصوصاً لهذه المناسبة). حتى إذا حان وقت الغداء، وقف صاحب الباب وصاحب المائدة وبدآ في إدخال الناس للمشاركة بتناول شيء مما على السماط. فيدخل القاضي والداعي ليجلسا إلى جانبي صاحب الباب، عوضاً عن الوزير، ثم يدخل الأشراف وهم ملثمون حفاة، ويليهم سائر الناس. وقد لا يأكل البعض، فلا يجبر أحد عليه، ويخرجون أخيراً على الرسوم التي حضروا بموجبها[2]. وكان من عادة الفاطميين النحر في يوم عاشوراء كما ذكرنا، فتنحر الإبل والبقر والغنم عند مشهد الحسين بن علي، وتوزع لحومها على الفقراء والمساكين[3].

وأول ماأقيمت الاحتفالات بذكرى عاشوراء في العصر الفاطمي كان سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م. على عهد الخليفة المعز لدين الله أول خلفائهم بمصر[4]. وبقيت هذه الذكرى قائمة حتى نهاية الدولة الفاطمية.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٣١،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٣١

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٣١.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٤٣٠،

ومن ردود الفعل بهذه الذكرى، أنه ألقي القبض، سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م. على رجل من الذين تظاهروا بسب السلف، فشهر بالنداء عليه: هذا جزاء من سبّ عائشة وزوجها. وضربت عنقه بعدها. ثم صدرت الأوامر إلى أصحاب الشرطة ألا يتعرض أحد لسب السلف[1]، ومن فعل ذلك أُلقي القبض عليه، فانكفّ الرعاع عن السب، والتعرض للحجاج، وخافوا سوء العاقبة.

والجدير بالذكر هنا أن الحاكم بأمر الله قد أعطى أوامره في صفر سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م. بالكتابة، على سائر المساجد، وعلى الجامع العتيق من الخارج والداخل، وعلى جميع جوانبه، وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر والصحراء بسب السلف ولعنهم، ونقش ذلك ولوّن بالأصباغ والذهب وأكره الناس على هذا العمل[2]. أويلام هذا الرجل أو غيره إذا سبوا السلف وفي مثل هذه الذكرى في وقت يطغى فيه الشعور بالحزن وثورة الغضب لمقتل الحسين بن علي فتتفاعل في نفوسهم روح البغضاء الطائفية، ويصدر عن ألسنتهم ما يصدر.

وأصدر الحاكم بأمر الله، بهذه المناسبة سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م.، أمراً بغلق الدواوين وجميع الأماكن التي تباع فيها الغلة والفواكه وغيرها لمدة ثلاثة أيام، بدءاً من السابع من محرم، وفي العاشر منه (يوم عاشوراء) تغلق سائر حوانيت مصر ـ القاهرة باستثناء حوانيت الخبازين. وينزل الذين عادتهم النزول في يوم عاشوراء يتكسبون بالنياحة والبكاء إلى القاهرة، أفراداً غير مجتمعين ولا متكلمين على غير عادتهم[3].

= بينما يقول أبو المحاسن: ان أول احتفال بهذه المناسبة، كان في سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦ م. النجوم الزاهرة، ٤/ ١٢٦.

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٦٧.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٥٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٠٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ١٥٤.

ولم تقفل الأسواق قبل ذلك، مما يجعلهما عرضة لردات الفعل السلبية من قبل المحتفين بذكرى عاشوراء. وهذا ما حصل فعلاً على أيام المعز لدين الله، إذ خرجت جماعة من الفاطميين ومن معهم من فرسان المغاربة ومشاتهم من مشهدي: أم كلثوم[1]، ونفيسة[2]، بالبكاء والنياحة على الحسين بن علي، وساروا في الشوارع والطرقات وفي الأسواق، ملزمين الناس على مشاطرتهم حزنهم، فكسروا أواني السقائين، ومزقوا الروايا، شاتمين كل من يتظاهر بغير مظهر الحزن والأسى فأقفلت الأسواق وتعطلت الأعمال، الأمر الذي أغضب جماعة السنّة، وثارت الفتنة بين الفريقين، فتدخل أبو محمد الحسن بن عمّار، ومنع الاقتتال، بوقوفه بينهما وإصلاح الأمر، فاستحسن المعز لدين الله بادرته هذه[3].

ح ـ موسم شهر رمضان:

اختلف الفاطميون الشيعة عن أهل السنّة بمصر حول مفهوم تحديد بداءة الصوم ونهايته في شهر رمضان. ففي الوقت الذي يأخذ السنّيون في صيامهم بقول الرسول: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غمّ عليكم، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً». فيبدأون الصيام بمجرد ظهور هلال رمضان بصرف النظر عما إذا كان شعبان تسعة وعشرين يوماً أم ثلاثين، وينتهي عند رؤية هلال شوّال، وشرط الرسول في قوله: «فإن غمّ عليكم، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً» أي إن بدء الصوم في مثل هذه الحالة يسير

---

(1) أم كلثوم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق.

(2) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد وصلت مع زوجها اسحاق بن جعفر من المدينة إلى مصر فأقامت بها إلى أن ماتت سنة ٢٠٨ هـ ،
ودفنت في الفسطاط.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٢/ ١٨٥.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١،
: واتعاظ الحنفا، ١/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

وفق القاعدة الحسابية، لأنه في أحيان كثيرة لا يمكن التماس رؤية هلال رمضان في التاسع والعشرين من شعبان كل سنة بسبب كثافة الغيوم في السماء.

وقد آمن الفاطميون بالتفسير الظاهر والباطن، وقالوا: الهلال كالظاهر لأنه مشاهد والحساب كالباطن لأنه معقول، فراعوا في صيام رمضان طلوع الهلال مستعملين الحساب منذ أول السنة، فإن وافق الحساب الرؤية، قالوا: باتفاق الظاهر والباطن وزال الإشكال، وإن وفى الحساب، ولم يطلع الهلال علم أنه قد غمّ أو وسع في رؤية خلل.

لكن جوهر الصقلي قائد الجيوش الفاطمية بمصر، كان له رأي مغاير عن رأي السنّة، بحسب الشيعي، فاضطر بنهاية اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩ م.، إلى إعلان نهاية الصوم، وصلى صلاة العيد قبل رؤية هلال شوال. ولم يصل أهل مصر (الفسطاط) معترضين على ما فعل، متمسكين بأصول المذهب السني، وصاموا اليوم الثلاثين، مفطرين بعد ذلك اليوم، متبعين قاضيهم السني، الشيخ أبو الطاهر، الذي التمس رؤية هلال شوال جرياً على عادته من على سطح الجامع العتيق (جامع عمرو ابن العاص)، وأعلن انتهاء شهر الصوم. فلما علم جوهر الصقلي بذلك أنكر على القاضي هذا الأمر وتهدده[١].

وكان من عادة الفاطميين في أول يوم من أيام رمضان، أن يرسل إلى جميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم، بما في ذلك الأولاد والنساء، لكل واحد طبقاً فيه حلوى، وبوسطه صرّة من ذهب، فيشمل ذلك سائر أهل الدولة، ويقال لها: غرة رمضان[٢]. كما يقام اعتباراً من اليوم الرابع وحتى السادس والعشرين من شهر رمضان، في كل ليلة

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ١١٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٩١.

سماط، يدعى سماط رمضان، وذلك في قاعة الذهب، تصفّ عليه مختلف أنواع المأكولات الطيبة والمغذية، والفراشون على استعداد لتلبية أي مطلب من المدعويين إلى السماط، وحواشي الاستاذين يحملون الماء النقي في كيزان الخزف ليشرب الحاضرون.

ويُستدعى الأمراء إلى سماط رمضان لتناول الطعام كل ليلة جماعة منهم بالتناوب، وفق لائحة أُعِدت سلفاً تبلغ إلى صاحب الباب والاسفهسلار، فيطلعوا عليها فتتعرف كل جماعة منهم إلى الليلة المدعوة فيها إلى السماط، فلا تتأخر، كما يُستدعى قاضي القضاة ليالي الجمع احتراماً له.

ويتصدر الوزير عادة سماط رمضان، فإن تأخر لأمر ما، كان ولده أو أخوه، وإن لم يحضر أحد من قبله، حلّ عوضه، صاحب الباب[1].

ودرجت العادة في أيام الفاطميين كما ذكرنا سابقاً أن يتفقد القضاة قبل انتهاء شهر رمضان بثلاثة أيام، المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر (الفسطاط) بدءاً بجامع المقس، ثم بجوامع القاهرة فالمشاهد، فالقرافة، فالجامع العتيق، فمشهد الرأس (رأس الحسين بن علي) لإصلاح ما يمكن إصلاحه، وإزالة شعثه أو استبداله، من الحصر والقناديل والعمارة. فكان يستغل هذه المناسبة من يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون، فيترقبون ذلك اليوم للطواف مع القاضي ليتسنى لهم حضور السماط في نهاية اليوم[2].

ط ـ ليالي الوقود:

يطلق هذا التعريف على ليلة مستهل رجب وليلة نصفه، وليلة مستهل شعبان وليلة النصف منه أيضاً. وكانت هذه من أبهج الليالي وأحسنها في أيام الفاطميين لما ينال فيها الناس من أنواع البر، وما يصيب أهل الجوامع

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣٨٧.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٩١.

والمشاهد من إكرام وتقدير. فهم يحتفلون بها كاحتفالاتهم بموسم رمضان، بكامل مظاهر الأبهة والعظمة، فتضاء المساجد والمشاهد فيها بعد غروب الشمس بالتنانير والقناديل والشموع وتحمل الأطعمة والحلوى إليها، ويطوف المبخرون في مجامر الذهب والفضة في الوقت الذي يتلو فيه القرّاء القرآن، وينشد المنشدون حتى منتصف الليل، ثم ينصرفون[1].

وكانت المواكب تسير في هذه الليالي الأربع يتقدم فيها قاضي القضاة، ممثلاً الخليفة (أحياناً)، ممتطياً جواداً، ويحيط به ثلاثة من ممثلي الخليفة، وعشرة من الحجاب والقرّاء ومؤذّنو المساجد المختلفة يسبحون بحمد الله، ويدعون للخليفة، وكان الشهود يمتطون الجياد وبأيديهم الشموع المضاءة، ويسيرون خلف قاضي القضاة، كحرس له، كل في موضعه بحسب مراتبهم في الأقدمية، فيشقون من أول شارع فيه دار القاضي إلى «بين القصرين» فينضم إليهم خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان الذين يحشرون بأنفسهم حشراً بين المحتفلين، يضيع معه معرفة الرئيس من المرؤوس، إلى أن يصلوا إلى باب الزمرد، فيقف القاضي والشهود عنده، إلى أن يحضر صاحب الباب ووالي القاهرة والقرّاء والخطباء حيث يترجّلون تحت المنظرة التي يطل، من طاقة فيها، الخليفة، وقد بدا شخصه للجموع، ممن بين الشموع التي تتلألأ أنوارها، فيخطب الخطباء الثلاثة، بذكر هذه المناسبة والدعاء للخليفة. ثم تفتح الطاقة الثانية، ليطل منها أستاذ معلناً الاشارة بالانصراف، فينصرفون برفقة القاضي إلى دار الوزير ليجلس لهم ويستمع إلى خطبهم كذلك وهم يدعون له[2].

وتوزّع الشموع في هذه الليالي على أرباب الرسوم، فيخص القاضي بستين شمعة، في كل ليلة من هذه الليالي، ووزن كل شمعة ستة عشر

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٥٠١،

المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٦٧.

رطلاً (١/٦ قنطار تقريباً). عدا الشموع التي تقدم للشهود الذين يختص كل منهم بشمعة أو شمعتين أو ثلاثة، وذلك بحسب رتبة كل منهم، كما يخصص الجامع العتيق في كل ليلة بأحد عشر قنطاراً من الزيت لإضاءته. فبلغت نفقات الشموع ليلة مستهل رجب من سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م. خمسين دينار، هذا عدا نفقات الحلويات والهبات[١].

وأبطلت عادة الاحتفال بليالي الوقود في أيام الحاكم بأمر الله، إلا أن ابنه وخليفته، الظاهر لإعزاز دين الله، أمر بإعادتها على ما كانت عليه أيام جده العزيز بالله، فحضر ومعه السيدات وخدم الخاصة وسائر العامّة والرعايا، فجلس في المنظرة يستمع إلى خطباء جوامع الأزهر، والحاكم، والأقمر[٢].

ي ـ كسوة الشتاء وكسوة الصيف:

شملت عطاءات الفاطميين من الكسوة، معظم أهل الحكم على اختلاف طبقاتهم، فاقتضى ذلك إنشاء دار للكسوة، عرفت باسم «خزانة الكسوات». ويفصل فيها جميع أنواع الثياب والبز التي توزع عليهم، رجالاً ونساءً وأولاداً، كسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف. وقد كانت هذه العطاءات حقوقاً مكتسبة يتوارثها أصحابها في الأعقاب، فكتبت بها الكتب من أجل ذلك. وتكون الكسوة عادة من العمامة إلى السراويل وما دونه من الملابس والمنديل، وهي من أجمل الثياب وأنفسها، بالإضافة إلى ما ينالهم من أشهى الأطعمة وألذ المشروبات[٣].

والجدير بالذكر والملاحظة أن مخصصات الخليفة من الكسوات المختلفة وصلت إلى اثنتي عشرة كسوة، تصلح كل منها لاحتفال خاص، كالاحتفال بليلة الختم، وإقامة صلاة العيد، والجلوس على السماط في أول أيام عيد

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٦٦.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣٦٥ و٤٩٤.

الفطر أو الأضحى مثلاً. وتمتاز هذه الكسوات بأنها موشاة بخيوط الذهب والفضة، فيزيد ثمن بعضها على الخمسمائة دينار، كما يصل ثمن المنديل الواحد منها خمسة دنانير.

٢) المناسبات المسيحية:

كانت أعياد النصارى الأقباط في مصر كثيرة، وهي تكاد تكون على مدار السنة بكاملها، في كل يوم عندهم عيد. ولكننا نقتصر في كلامنا هنا على الأعياد التي احتفل بها الأقباط وشاركهم في إحيائها، الفاطميون، سواء معنوياً أو مادياً، بتوزيع الخلع والهبات، أو مانعوا في إقامتها أحياناً لما كان يجري فيها من مهاترات.

أ ـ الميلاد:

يعيد فيه النصارى ذكرى ولادة السيد المسيح في المذود، ببيت لحم بفلسطين وذلك في التاسع والعشرين من شهر كيهك القبطي/ كانون الاول[١]. فتقام الصلوات، وتقرع الأجراس، وترتفع أصوات المصلين عند منتصف الليل احتفاءً بولادة الطفل يسوع، فتضاء الشموع المختلفة الأحجام، والأشكال في الطرقات، وفوق الحوانيت في الأسواق، وعلى البيوت، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم إلا ويشتري من هذه الشموع (وتسمى الفوانيس) لأولاده.

---

(١) تتألف السنة القبطية من اثني عشر شهراً وكل شهر فيها ثلاثون يوماً يضاف اليها خمسة أيام لواحق، تدعى «العمياء» فتصبح السنة عندهم ٣٦٥ يوماً. والأشهر القبطية، تبدأ بـ : (توت) وهو أيلول. و(بابه) وهو تشرين الأول. و(هاتور) وهو تشرين الثاني. و(كيهك) وهو كانون الأول. و(طوبه) وهو كانون الثاني. و(أمشير) وهو شباط. و(برمهات) وهو آذار. و(برموده) وهو نيسان. و(بشنس) وهو أيار. و(بؤونة) وهو حزيران. و(أبيب) وهو تموز. و(عسرى) وهو آب.

المسعودي: مروج الذهب، ٢/ ١٧٨.

وجرى الفاطميون بهذه المناسبة على توزيع جامات من الحلاوة، والجلاب، والزلابية وبعض السمك البوري على أرباب الرسوم من الاستاذين المحنكين والأمراء المطوقين، وسائر الموالي من الكتاب[1].

ب ـ الغطاس:

ويحتفلون بذكرى الغطاس، التي هي في الأصل عمادة السيد المسيح، من قبل يوحنا المعمدان (القديس) بتغطيسه في نهر الأردن. وتعمل هذه الذكرى بمصر في اليوم الحادي عشر من شهر «طوبه/كانون الثاني»، فتضاء الشموع، وتشعل المشاعل في الأسواق، وفوق الحوانيت، وفي الدور أيضاً، وتضرب الخيام عند شاطىء النيل، فيجتمع عنده في تلك الليلة الألوف من الناس، مسلمين ونصارى على حد سواء. فيلعبون ويفرحون، وعند منتصف الليل يغطسون في مياه النيل كما غطس السيد المسيح في نهر الأردن[2].

وصدرت أوامر العزيز بالله، سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م. بمنع النصارى من إظهار ما كانوا يسيرون عليه في تقاليدهم الدينية وعاداتهم الشعبية، في يوم الغطاس. وإن جزاء من يخالف الأوامر النفي من البلاد[3]. لكن على أيام بقية الخلفاء سمح بإقامة تلك الشعائر وما درجوا عليه من تقاليد. فقد شارك الرئيس فهد بن إبراهيم الكاتب والواسطة (الوزارة) على أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٨ هـ/٩٩٨م. في ذكرى الغطاس، فنصبت له الأسرة على شاطىء النيل وأوقدت الشموع والمشاعل، وحضر المغنون والممثلون، فشارك كل في فنه. وجلس الرئيس فهد مع أهله يشرب الخمرة إلى أن حان وقت الغطاس، فغطس وانصرف[4]. بينما يستمر الناس في لعبهم ولهوهم حتى الصباح، ذكوراً وأناثاً، صغاراً وكباراً.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣٦٥ و٤٩٤.

(٢) المصدر السابق: والصفحات نفسها.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٤٢.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٢٦٦.

ج ـ خميس العهد (الأسرار):

ويغسل فيه الكهنة أرجل بعض النصارى، كما غسل السيد المسيح فيه أرجل تلامذته. فيكون ذلك درساً في التواضع يتعلمه الجميع. وأطلق عليه فيما بعد «خميس العدس» لأن النصارى من المصريين يطبخون في هذا اليوم العدس المصفى. ومن اسمائه أيضاً «خميس البيض» لكثرة ما يوجد بأسواق مصر من البيض المصبوغ بألوان عدة، يتفاقس بها الناس، وقد يتخذها بعض الغوغائيين نوعاً من المقامرة، كما يتهادى الناس بهذه المناسبة، فيهدي الأقباط المسلمين أنواعاً من السمك مع العدس المصفى والبيض[1].

وجرت العادة على أيام الفاطميين، وبمناسبة خميس العهد، أن تضرب خراريب الذهب. فتحول خمسمائة دينار إلى عشرة آلاف خروبة (١٠ آلاف خروبة). فيحمل إلى الخليفة منها ما قيمته مائتا دينار، وما تبقى يحمل إلى الوزارة، فيوزع على أرباب الرسوم.

د ـ عيد الصليب:

تصادف ذكرى عيد الصليب في الرابع عشر من أيلول والسابع عشر من شهر «توت» فيحتفل الأقباط فيها برفعهم علامات الصليب فوق كنائسهم، وإضاءة الشموع والقناديل وإقامة الصلوات فرحاً بهذه الذكرى التي استعيد عود الصليب فيها وتم تغليف خشباته الثلاثة بالذهب من قبل امبراطور بيزنطية قسطنطين ووالدته هيلانة، وليس من مجال هنا لتفصيل ذلك.

اعتبر الفاطميون هذه الشعائر الدينية وممارستها من قبل الأقباط مناهضة للإسلام وتحدياً لهم أو استفزازاً لشعورهم الديني، فقد عمل العزيز بالله على استصدار أوامره سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م. ، بضغط من الجمهور المسلم المتعصب ضد كل مظهر ديني مغاير للمذهب الفاطمي الشيعي، ومنع

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٥٠ و٤٩٥.

النصارى من إقامة الشعائر الدينية والتقاليد التي درجوا عليها في ذلك اليوم، فضبطت الطرقات والدروب وسدت منافذها دونهم إلا أنه في السنة التالية رجع الخليفة عن أوامره تلك أو تساهل في تطبيقها، مما سمح للأقباط بممارسة شعائرهم الدينية وخرج الناس من كافة الطوائف الدينية إلى أماكن لهوهم في ظاهر مصر (الفسطاط) - في بني وائل - فمارسوا هواياتهم وجروا على ما كانوا يجرون عليه في الاجتماع واللهو[1].

وكما ذكرنا فقد كانت الاحتفالات الدينية النصرانية تخضع لمزاجية الخليفة الفاطمي وللضغوط الشعبية الإسلامية، وللعوامل السياسية في المنطقة أحياناً. لذلك أصدر الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م. أمراً يمنع بموجبه النصارى من الاحتفال بعيد الصليب والاجتماع والظهور بأزيائهم وعاداتهم وزينتهم، وألا يقتربوا من كنائسهم. وقد قرىء أمره هذا (السجل) في الجامع العتيق وفي الطرقات العامّة. وكان هذا السجل بالمنع قد أوحت إليه العلاقات السيئة بين الفاطميين والبيزنطيين[2].

ويحتفل الأقباط بأعياد كثيرة أخرى منها الفصح المجيد الذي يلي خميس العهد (العدس) بثلاثة أيام، صبيحة قيامة السيد المسيح من بين الأموات بحسب الإيمان المسيحي. فتقام فيه الزينات والصلوات. وبهذه المناسبة أيضاً كان الخلفاء الفاطميون يعبرون عن مشاركتهم لرعاياهم النصارى بخلع الخلع المتنوعة وإسباغ النعم وخاصة على وزرائهم وكتابهم، فمن ذلك ما قدمه الحاكم بأمر الله بمناسبة الفصح للرئيس فهد بن ابراهيم من الخلع التي حملت إليه على بغلتين بمركبيهما وألف دينار[3]. ويحتفلون قبل الفصح بأسبوع بأحد الشعانين، وسبت النور الذي يلي خميس العهد بيومين، وغيرها

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٧٢ - ٢٧٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

: واتعاظ الحنفا، ٢/ ٨٩.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٨.

من الأعياد الكثيرة، كالأحد الجديد، وخميس العنصرة وعيد التجلّي. . . الخ.

هـ ـ عيد النوروز:

ترجع عادة احتفال الفاطميين بالنيروز[١] إلى الأقباط، حيث أطلق عليه قديماً «النيروز القبطي»، وهو أو السنة القبطية بمصر، وأول يوم من شهر توت/ أيلول. يتم في هذا العيد، إشعال النيران ورش الناس الماء بعضهم على بعض، ويتبادلون الهدايا، وتقفل الأسواق فيه، وتوزع الكسوة لرجال الدولة، وأولادهم ونسائهم على ما جرت العادة عليه.

ووقف الفاطميون موقفاً متشدّداً من الاحتفال بيوم النوروز، فبعد أن شاهد المعز لدين الله المظاهر التي ترافق الاحتفال بالنوروز، أصدر أوامره بمنع أهل مصر (الفسطاط) من إيقاد النيران ليلة النوروز في الطرقات، ورش الماء، والدخول إلى القاهرة في مثل هذه الحالة، ومنع نصب الخيام على شاطىء النيل عند المقياس لما يحصل فيها من أعمال مخلّة بالآداب العامّة والسلوك في أثناء اللعب وتعاطي شرب الخمر ورش الماء ليلاً ونهاراً. ولما لم يمتثل الجمع إلى أوامر الخليفة، فقد ألقي القبض على بعض المخالفين وحبسوا، وعلى قوم غيرهم، فطيف بهم على الجمال. ثم نودي: «إنه كل من يفعل ذلك يصلب»[٢].

وتكررت عملية منع الأقباط من الاحتفال بالنوروز، فأصدر الحاكم بأمر

---

(١) ساد اعتقاد بأن الفرس هم أول من احتفل بعيد النوروز، وآخر بأن سليمان بن داود كان أول من اتخذه عيداً. واعتقاداً يعزو ذلك إلى وعد موسى لفرعون مصر.

المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٢٦٨.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٤٦،

المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٢٦٨،

ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٤٦.

الله أمراً منع بموجبه النصارى من الاحتفال بعيد النوروز، وضرب الخيام على ضفاف النيل، والقيام بالألعاب التي كانت تقام بهذه المناسبة[1]، وذلك على الرغم من أنه كان قد تقبل بعض الهدايا، بمناسبة النوروز سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م. ، وذلك من قادة جند الأتراك وجماعة الأولياء، كما سبق أن استؤنفت الاحتفالات بالنوروز على أيام والدة العزيز بالله[2].

نستطيع القول، بعد كل ذلك، أن الخلفاء الفاطميين، قد ساروا مزاجياً في تحريم النصارى الأقباط الاحتفال بالنوروز، كما سمح بعضهم استنسابياً، إحياء عادات وتقاليد درج عليها الخلف عن السلف من المصريين.

والجدير بالذكر أن هذه العادات والتقاليد التي كان يحييها المصريون الأقباط لم تقتصر على طائفة معينة من الناس، ولم تكن لتفرّق، بل لتجمع كافة أبناء الشعب شيباً وشباباً، أطفالاً ونساء، في يوم أو أكثر من السنة، ينسون فيه أتعابهم ومشاكلهم، فيمرحون ويهيصون بعيداً عن الكلفة والتصنع والتقيد بالبروتوكولات والفواصل الطبقية (بين الغني والفقير) فيتنازل بعضهم عن حقوقه، ليعيشوا معاً ساعات ولا أحلى، وكأنهم أطفال في عمر الورود، يلعبون ببراءة ويسخرون من القدر الذي يفرّق. ودليلنا على ما ذهبنا إليه في حكمنا أن الخليفة الآمر بأحكام الله أحيا هذا العيد، وأضفى عليه صفة رسمية سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م. بما أنعم فيه على أهل الحكم من الرجال والنساء والأولاد من الكسوات والأطعمة والأشربة، وما رافق الاحتفال بالنوروز من ألعاب، ورش ماء وايقاد نيران وغيره[3].

---

(١) يحيى بن سعيد: تاريخ الذيل، ١/ ١٩٦.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٨.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

٣) المواكب والاحتفالات الوطنية:

فاقت المواكب والاحتفالات الفاطمية مواكب العباسيين واحتفالاتهم من حيث الضخامة لاستعمالهم المظلة. وقد نقل الفاطميون عادة استعمالهم المظلة في مواكبهم من المغرب حيث كانت جارية هناك قبل الإسلام، إذ كان الناس يظللون حكامهم بريش الطاووس. فاتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر، وحولها الاعلام، تختلف ألوانها باختلاف الأحوال[1].

وقد خرج الخلفاء الفاطميون في مواكب مختلفة في الفخامة والشكل، باختلاف المقصود منها. فكان لهم ركوبات إلى الفسح والنزهات عرفت بـ«أيام الركوب ومواكب احتفالية بمناسبات دينية، وأخرى بمناسبات وطنية إعمارية أو حربية.

أ ـ أيام الركوب:

لم ينقطع الخلفاء الفاطميون عن ركوبهم من أول العام إلا متى شاؤوا. وقد درجوا على الركوب يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع إلى جامع أحمد بن طولون وإلى المشاهد ثم إلى الجامع العتيق (عمرو بن العاص) بمصر. فإذا أراد الخليفة الركوب، سار بين يديه صبيان الركاب وقد تقلدوا أسلحتهم من خزائن السلاح، ومشى الوزير خلفه في عدد أقل من العدد الذي يواكب الخليفة. وعندما يصل إلى باب الجامع العتيق يجد ببابه الخطيب واقفاً على مصطبة فيها محراب مفروش بحصير معلق عليه سجادة وفي يده مصحف، يقال «إنه بخط الإمام علي بن أبي طالب، فيناول الشريف المصحف للخليفة، فيأخذه الخليفة ويقبله ويتبارك به. بينما يكون في هذا الوقت قد أخرج صاحب الخريطة (محفظة جلدية) المقرر للصلاة ثلاثين ديناراً، فيعطيها الشريف إلى مشارف

---

(١) زيدان: التمدن الإسلامي، ٥/١٦٦.

الجامع، فيأخذ منها أربعة عشر ديناراً ويفرق الباقي على القيمين (جمع قيّم) والمؤذنين خاصة[١].

وكان الخليفة يركب في كل يوم ثلاثاء وسبت إلى متنزهاته بالبساتين، والتاج وقبة الهواء، والخمس وجوه، وبستان البعل، ودار الملك، ومنازل العز، والروضة، فيعم الناس في هذه الأيام من الصدقات أشياء كثيرة ما بين ذهب ومآكل وأشربة وحلاوات[٢].

ويرافق الخليفة في أيام ركوبه تلك، الوزير. وكلما مرّ موكبه في طريقه إلى أحد المتنزهات بمسجد أعطي قيّمه ديناراً إلى أن يصل إلى المنظرة، فيقضي بقية يومه حيث يتناول طعامه هناك بعد أن تكون قد حملت إليه، من القصر، المائدة على رؤوس الفراشين (الخدم)، والتي أعدت بإشراف صاحب المائدة[٣] وهي مغطاة بطرحات من الحرير، ويفوح منها رائحة الأطعمة المتنوعة والشهية، والتي قد تزيد عن حاجة الخليفة، فيوزع جزءاً منها على الوزير، ويعطي الأمراء ومن حضر من أهل الحكم شيئاً كذلك. كما يصيب أحياناً كثيرة أهل مصر من المتبقي بعد تناول الخليفة الغداء!!.

ويعود موكب الخليفة بعد صلاة العصر، وقد اصطفت الناس على الطرقات لرؤيته، وهو يرتدي ثيابه البيضاء المذهبة والملونة، وعليه العمامة والمنديل مشدود، بشدة تختلف عن شدات مناديل الرعية، والذؤابة تميل نحو اليسار، وهو يتقلد السيف العربي المجوهر، بغير حنك، ولا مظلة ولا يتيمة (جوهرة). وفي الإياب كما في الذهاب، فلا يمر بجامع إلا ويعطي قيّمه ديناراً[٤].

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٢٩١.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٩٥.

(٣) صاحب المائدة: استاذ جليل ولكن بغير حنك.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٨٤، أبو المحاسن: النجوم والزاهرة، ٤/ ٣٩٢.

وأكثر الحاكم بأمر الله من الركوب في رمضان سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م. والركابية حوله، فركب في يوم واحد ست مرات، تارة على فرس، وطوراً على حمار، وتارة أخرى في محفة محمولة على الرؤوس، ومرة في عشارى (نوع من المراكب) في النيل بشاشية لا عمامة عليها[١]، إلا أنه كثيراً ما انفرد بركوب حماره (القمر) وصوفيته يرقصون أمامه مقابل حظوة ينالونها منه[٢].

وكان شأن الوزراء شأن الخلفاء، وكذلك الأمراء والقوّاد، الذين درجوا على الخروج، فازداد الطلب على الركابية لمرافقة وجوه الدولة في الوقت الذي أقدم فيه الحاكم بأمر الله على قتل أكثر من خمسين رجلاً من الركابية في يوم واحد، مما اضطرهم إلى البقاء في بيوتهم، فخرج سائر وجوه الدولة يجر دوابهم الخدم، بدلاً من أن يسير بين أيديهم ركابي أو أكثر[٣].

ب ـ المواكب الدينية:

تسبق المواكب الدينية في أول السنة، استعراضات الخيل الخاصة، وذلك في أواخر ذي الحجة من كل سنة، وتعرف هذه الاستعراضات بـ «يوم عرض الخيل» فيجلس الخليفة في الشباك بعد أن يحضر الوزير بين يديه، وقد انتصب المستخدمون بآلاتهم، ليحيط صبيان الركاب بالخليفة، وقد حملوا أسلحتهم من الصمّام المصقولة والمذهبة، مكان السيوف، والدبابيس واللتوت برؤوسها المستطيلة، والمستوفيات كما توزع على أرباب السلاح الصغير من العبيد السودان (٣٠٠ عبد) ستمائة حربة بأسنّة مصقولة تحتها جلب فضة ولكل منها أيضاً درقة[٤] ويخرج الوزير راكباً من داره بعد أن

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١١٠.

(٢) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٥٩.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٦١.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٤٦.

يستدعيه صاحب الرسالة، وبين يديه الأمراء وأصحابه وغلمانه، وبوصوله إلى باب القصر، يترجل الأمراء ويبقى هو راكباً حتى أول باب من الدهاليز الطوال، فينزل هناك ويمشي فيها وحواليه حاشيته وغلمانه وأصحابه ومن يكون من أولاده وأقاربه إلى أن يصل إلى الشباك، فيجد تحته كرسياً كبيراً يجلس عليه، ورجلاه تطآن الأرض، عندئذ يرفع كل استاذ من جانبه الستر، فيرى الخليفة جالساً في المرتبة الهائلة، فيقف الوزير ويسلم ويخدم بيده إلى الأرض ثلاث مرات، يؤمر بعدها بالجلوس على كرسيه، ليستفتح بعدها القرّاء بقراءة الآيات التي تتناسب وهذه الحالة لمدة نصف ساعة، ثم يسلم الأمراء على الخليفة.

ويبدأ بعد ذلك العرض الخاص للخيل والبغال، دابة دابة، وهي هادئة بأيدي شداديها إلى أن يكمل عرضها، فيقرأ القرّاء لختم ذلك الجلوس، ويرخي الاستاذان الستر، ثم يتقدم الوزير لوداع الخليفة، فيقبل يديه ورجليه، وينصرف بالرسوم نفسها التي جاء عليها، وهكذا ينتهي «يوم عرض الخيل»[1].

وما إن ينتهي «يوم عرض الخيل» حتى يبدأ الخليفة في استعراض ألبسته بخزانة الكسوة الخاصة، لينتقي ما يلبسه في ليلة أول العام الجديد. فيكون لباسه عادة البياض ويسلم المنديل المختار إلى شاد التاج الشريف[2]، ثم يحضر إليه اليتيمة[3]، فتنتظم هي وحواليهما من دونها من الجواهر، فتوضع

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) شاد التاج الشريف، يكون من الاستاذين المحنكين، يمتاز بشد المنديل شدة غريبة لا يعرفها غيره وبشكل اهليلجي.

(٣) اليتيمة، جوهرة لا يعرف ثمنها، وزنها سبعة دراهم، وزنة الحافر الموضوعة فيه احد عشر مثقالاً وبدائرها قصبة زمرد ثمينة جداً.
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٨٨.

في حافر له شكل هلال من ياقوت أحمر، على خرقة حرير يخيطها شاد التاج خياطة خفيفة بأعلى جبهة الخليفة[1].

أمّا المظلة التي تعلو رأس الخليفة في الموكب، فهي عبارة عن قبة من حرير، يناسب لونها لون البدلة التي يلبسها الخليفة، مزركش بالذهب، أعلاها له شكل طائر من فضة وأحياناً يطلى بالذهب. وهي (المظلة) تتكون من اثنتي عشرة شوزكاً. عرض أسفل كل شوزك شبر، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ذراع. وآخر الشوزك من أعلى دقيق جداً، فيجتمع ما بين الشوازك في رأس عهودها دائرة، والعمود مصنوع من الخشب الخفيف، وفيها خطاطيف لطاف، وحلق يمسك بعضها بعضاً تنتظم وتنفتح، ورأسها كالرمانة، ويعلوه رمانة أصغر منها كلها ذهب مرصع بجوهر[2].

ويحمل أميران لواءين من حرير أبيض، مرقومين بالذهب، ملفوفين على رماحهما، ويحمل واحد وعشرون رجلاً من فرسان الخاص راياتٍ من الحرير المرقوم، ملونة بكتابة تخالف لونها نص الكتابة، وقياس الراية ذراعان طولاً في ذراع ونصف عرضاً. وقد كتب عليها «نصر من الله وفتح قريب». ويحمل فارسان رمحين في رأسيهما أهلة من ذهب، في كل واحد سبع من ديباج أحمر وأصفر، وفي فمه طارة مستديرة يدخل فيها الريح فينتفخان، ويظهر شكلهما. ويسير هذان الفارسان أمام حملة الرايات.

ويواكب صاحب المظلة «حامل السيف الخاص» وحلته من ذهب مرصعة بالجوهر، والسيف موضوع في خريطة مرقومة بالذهب، لا يظهر سوى رأسه، ويسير خلف صاحب المظلة والسيف الخاص، صاحب الرمح الذي يحمل الرمح الخاص في غلاف منظوم، من لؤلؤ. ويلي صاحب الرمح

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٤٨،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٨٤.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٤٨،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٨٤.

الخاص أمير مميز يحمل درقة بكوامخ ذهب، تنسب إلى حمزة بن عبد المطلب. وهي في غشاء من حرير[1].

ويسير الموكب، وفي مقدمته بعض الجنود، ثم الأماثل، ثم أرباب المناصب، ثم أرباب الأطواق (أمراء) ثم الاستاذون المحنكون، ثم حاملا لواءي الحمد من الجانبين، ثم حامل الدواة، ثم صاحب السيف في الجانب الأيسر على موازاة صاحب المظلة. وكل من هؤلاء يرافقه أصحابه الذين تتراوح أعدادهم ما بين العشرة والعشرين على الأكثر. ويسير أهل الوزير من الجانب الأيمن للموكب بعد الاستاذين المحنكين، ثم الخليفة وحوله صبيان الركاب، وهم أكثر من ألف رجل، وعليهم المناديل الطبقيات، ويتقلدون السيوف وأوساطهم مشدودة بمناديل، ويقبضون بأيديهم على أسلحتهم متأهبين لكل طارىء. ويسيرون عن جانبي الخليفة كالجناحين، وبينهما فرجة (فسحة) صغيرة لوجه الدابة ـ من خيل أو حمير ـ وبقرب رأس الدابة صقلبيان يحملان مذبّتين لذبّ كل ما يسقط من حشرات أو غيره.

ثم يلي الخليفة الوزير وفي ركابه من أصحابه قوم يقال لهم صبيان الزرد من أقوياء الأجناد يختارهم لنفسه، وعددهم خمسمائة رجل، يسيرون عن جانبيه، ويسير خلف الوزير حملة الطبول والصنوج الذين يقرعون أو يضربون عليها بحيث تدوي منهم الدنيا، وترتجف القلوب. ثم يأتي حامل الدرقة وحامل الرمح وخلفهما طوائف العسكر من الراجلة: كالركابية والجيوشية والمصامدة والفرنجية والوزيرية، وهم على ترتيب حسن، زمرة تأتي خلف زمرة فيزيد عددهم على أربعة آلاف نفر (٤٠٠٠ نفر). ثم أصحاب الرايات، ثم طوائف العساكر الآمرية والحافظية والحجرية الكبار

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٤٨،

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٨٥ ـ ٨٦.

والحجرية الصغار والصقلبية، ثم الأتراك المصطنعون، ثم الديلم، فالأكراد، فالغز المصطنعة وهم جميعاً (العساكر) من الفرسان الذين يتقدمهم أكثر من خمسمائة نفر من الراجلة يعرفون بأرباب قسيّ اليد، وقسيّ الرجل[1].

يسير الموكب من بين القصرين، حتى إذا وصل موكب الخليفة إلى موضوع الجامع الأقمر، وقف وقفة وانفرج ليمر الموكب بالخليفة، فيسكع الوزير أثناءها للخليفة إجلالاً واحتراماً، دلالة على الطاعة، فيشير إليه الخليفة إشارة خفيفة بالسلام، وهذه الإشارة الخفيفة تعتبر أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة، وتختص بالوزير صاحب السيف!! ثم يسرع الوزير إلى دخول باب القصر راكباً، والأمراء خلفه مشاة، فلا يصل الخليفة إلا ويكون الوزير قد ترجل، فيقف أمام الدابة لينزل الخليفة عن ظهرها. ويخرج الوزير بعدها إلى داره بالمراسم نفسها التي جاء معها.

ويحمل إلى الوزير بنهاية موكب أول العام الغرة، المضروبة بأمر من الخليفة، كذكرى لركوبه بأول العام، ومقدارها ثلاثمائة وستون ديناراً، ومثلها رباعيات ومثلها أيضاً قراريط. وإلى أولاد الوزير وإخوته خمسون من كل نوع. أما أرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام فينالهم من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريط، إلى دينار واحد ورباعية واحدة وقيراط واحد. ويصل قيمة ما يضرب في غرة العام إلى ثلاثة آلاف دينار[2].

ويسير موكب الخليفة في يومي: الفطر السعيد والأضحى المبارك للصلاة وفق الترتيبات التالية: يركب الخليفة بمناسبة عيد الفطر للصلاة، بالمظلة واليتيمة، ولباسه في هذا اليوم الثياب البيضاء الموشحة، ويكون لون المظلة

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٥٠،
وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٥٠،
أبو المحاسن: النجوم والزاهرة، ٤/ ٩٠ ـ ٩١.

بلون ثيابه نفسها. فيسلك من باب العيد إلى المصلى، وسط حراسة عساكره من الفرسان والرجالة، ويكون قد سبق موكب الخليفة، صاحب بيت المال لفرش المصلى، فيفرش الطراحات في المحراب، ويعلق سترين واحد عن اليمين وآخر عن الشمال، ثم يركز على جانبي المصلى لواءين مشدودين على رمحين قد لبست أنابيبهما من الفضة.

وعندما يصل موكب الخليفة، يدخل من شرقي المصلى إلى مكان يستريح فيه قليلاً، ثم يخرج للجمعة فيصلي بالتكبيرات، والمصلين من ورائه على حسب ترتيبهم في صلاة الجمعة، فيقرأ في الأولى بعد الفاتحة «سبح اسم ربك الأعلى» وفي الأخرى «الغاشية»، ويصعد بعدها إلى أعلى المنبر المغطى بطراحة من حرير السامان أو الدبيقي، ودرجه مستور بالأبيض، فيقف الوزير أسفل المنبر، ومعه قاضي القضاة وصاحب الباب واسفهسلار العساكر، وصاحب السيف، وصاحب الرسالة، وزمام القصر، وصاحب دفتر المجلس، وصاحب المظلة، وإمام الأشراف الأقارب، وصاحب المال، وحامل الرمح الأشراف الطالبيين[1].

ويشير الخليفة إلى الوزير، فيصعد ويقبل رجله بحيث يراه الناس، ثم يقف على يمينه، فيشير بعده إلى القاضي، الذي يصعد إلى سابع درجة، وعندما يعطيه الخليفة الإشارة فيخرج من كمه درجاً (ملف من ورق مكتوب) يكون قد أحضر إليه أمس من ديوان الإنشاء، وقد عرض على الخليفة والوزير، فيقرأ: وأول ما فيه «البسملة»، ويليها، ثبت بمن شرف بصعوده المنبر الشريف في يوم كذا... من سنة كذا... من عبيد أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، من عبيد أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، بعد صعود السيد الأجل... ويذكر الوزير وألقابه ونعوته، ثم

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٥٥،

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٩٤ ـ ٩٦.

يلي ذلك ذكر القاضي، فلا يسعه وهو القارىء أن يقول نعوت نفسه، بل يقول: «المملوك فلان بن فلان». وفور الانتهاء من تلك التلاوة يستدعي من ذكرناهم فيصعدون ليقفوا يمنة أو يسرة بحسب المقام، فيسترون الخليفة ويستترون.

ثم يخطب الخليفة من منشور كان قد أعد بنوع خاص من ديوان الإنشاء، خطبة بليغة، ما إن تنتهي حتى يكشفوا ما بأيديهم من الألوية وينزلون القهقرى أولاً بأول. ثم ينزل الخليفة ويركب إلى القصر عائداً على نفس الترتيبات، فيدخل إليه من باب العيد، ويجلس في الشباك في مواجهة سماط الفطر[1]، الذي يأكلون منه ما لذّ وطاب[2].

ويفرق، بعد انتهاء خطبة الخليفة في المسجد، للنائب في الخطابة، ثلاثة دنانير، وللنائب، في صلوات الخمس، ثلاثة دنانير، وللمؤذنين أربعة دنانير، ولمشارف خزانة الفرش وفراشها ومتوليها لكل منهم ثلاثة دنانير، ولصبيان بيت المال دينارين، ولمعبيء الفاكهة دينارين، أمّا القرّاء فلهم رسم غير ذلك. ومن حين يركب الخليفة إلى الجامع، وبالعكس منه إلى القصر، يفرق من الصدقات التي تعم نعمها جميع الناس[3].

ج ـ المواكب الوطنية (الإعمارية):

يعتبر يوم فتح الخليج من الأعياد الوطنية الكبيرة، والمهرجانات الشعبية، لما له من أثر في حياة المزارعين، وفي الحياة الاقتصادية العامّة في البلاد، فيصحبه الأمل والسعادة، أو اليأس والقنوط. ولكن متى يفتح الخليج؟ وما هي الاستعدادات التي تقام بتلك المناسبة؟ ومن هم المدعوون لحضور حفلة

---

(١) انظر وصف هذا السماط في مظاهر الثروة والعظمة : الفصل الثالث من هذا الكتاب

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/٤٥٥ ـ ٤٥٦.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/٩٦ ـ ٩٧.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/١٠٣ ـ ١٠٤.

افتتاح الخليج في كل عام؟ وأخيراً ما هي خطة سير موكب الخليفة؟

يتم كسر السد الواقع عند فم الخليج، يوم وفاء النيل في كل عام، أي عندما يبلغ ارتفاع الماء ستة عشر ذراعاً، وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة في البلاد كلها، فيحضر الخليفة لفتح أو كسر الخليج، ثم تفتح بعده الخلجان والترع الأخرى في كافة أرجاء البلاد. ويبدأ فم الخليج من مصر (الفسطاط) مروراً بالقاهرة، الذي شيّد عنده قصران، واحد عند أوله، ويسمى «قصر اللؤلؤة» وآخر «قصر الجوهرة»[١].

ويطلق على يوم فتح الخليج «عيد ركوب فتح الخليج». ومن هنا كانت أهمية اعتباره من أعظم الأعياد في مصر، وحتى نعرف ما له من عظمة وأهمية، سنوضح الترتيبات والاستعدادات، التي تسبق يوم الافتتاح. فحين يقترب النيل من الوفاء، يقام للخليفة، عند رأس الخليج سرادق كبير من الديباج الرومي، موشى كله بالذهب، ومكلل بالجواهر، يتسع ظله لمائة فارس. وتنصب أمام هذا السرادق خيمة من البوقلمون. ويأخذ حاملو الطبول والأبواق والكؤوس في البدء بتمرينات قرع الطبل ونفخ البوق وضرب الكوسى في اسطبل القصر قبل الاحتفال بثلاثة أيام لتألف الخيل أصوات هذه الموسيقى[٢].

ويصطف، يوم فتح الخليج، عشرة آلاف فارس (١٠,٠٠٠ فارس) وهم فوق ظهور خيولهم المغطاة بسروج مذهبة، وأطواق وألجمة مرصعة، وجميع لبد السروج من الديباج الرومي، والبوقلمون، نسجت لهذه المناسبة، وطرزت حواشيها باسم خليفة مصر، وعلى كل حصان درع أو جوشن، وعلى قمة السرج خوذة، وجميع أنواع الأسلحة الأخرى. ويسير في الموكب، جمال كثيرة عليها هوادج مزينة وبغال

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٩٣.

(٢) المصدر السابق: والصفحة نفسها.

عمارياتها (هوادجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر وموشاة باللؤلؤ[1].

ويشارك المدعوين، إلى حفل فتح الخليج، جماعات كثيرة من أبناء البلاد ومن البلاد المجاورة وحتى البعيدة، وعلى أرفع المستويات الطبقية. ففي عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي كان من بين المشاركين: فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاؤوا إلى مصر من مختلف الأصقاع في العالم، كالمغرب، واليمن، والروم، وبلاد الصقالبة، النوبة، والحبشة وهم جميعاً من المدنيين. ويذكر ناصر خسرو، أنه أثناء وجوده بمصر، حضر يوم فتح الخليج أولاد خسرو الدهلوي، وقد أتت أمهم معهم، وأولاد ملوك الكرج (جمهورية جورجيا اليوم)، وأباء ملوك الديلم، وأبناء خاقان تركستان[2]. وشارك غير هؤلاء أيضاً، الأدباء والشعراء والفقهاء الذين يتعيشون من أرزاق معينة تصرف لهم، ولا يقل رزق الواحد منهم عن خمسمائة دينار، وقد تصل أحياناً إلى ألفي دينار ويشارك هؤلاء باستقبال الوزير والسلام عليه فيعودون من حيث أتوا بعد ركوبه وذهاب الموكب.

ويبدأ الموكب بالتحرك على موسيقى البوق والطبل والمزمار في البداءة، وخلف الفرقة الموسيقية يمشي فوج من الجيش، ثم فرق العساكر الفرسان، وكل فرقة من مئة فارس. وتمشي خلف هؤلاء الخيول، والجمال عليها المهود والمراقد، ومن بعدها البغال وعليها العماريات. ويسير إلى جانب الخليفة، أحد كبار الأمراء حاملاً المظلمة، وهو راكب على حصان، وعلى رأسه عمامة مذهبة، مرصعة، وعليه حلة قيمتها عشرة آلاف دينار (١٠,٠٠٠ دينار)[3]. وقد سار أمامه الديالمة، وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم يحملون المجامر ويحرقون البخور (العنبر والعود) ويلي الخليفة مباشرة الوزير وقاضي القضاة، وعدد كبير من أهل العلم وأركان الدولة، وذلك إلى الصناعة.

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٩٤.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٩٥.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/٤٦٩.

فيركب الخليفة من الصناعة في العشارى، ويجلس في البيت المذهب، ومعه من شاء من الأساتذة المحنكين بحيث لا يزيد عددهم على أربعة أنفار، ويطلع بعد ذلك، إلى العشارى خواص الخليفة، وخواص الوزير، وهم اثنان أو ثلاثة، والجميع قيام ما عدا الوزير، فإنه يجلس. فتسير العشارى (المراكب) إلى المقياس بالموكب المذكور لينزل هناك بالسرادق الكبير عند رأس الخليج. فيقف الخليفة تحت السرادق مدة ساعة كاملة وهو ممتط جواده (أحياناً البغل)(١) فيتلى في أثنائها القرآن (آي منه تناسب الوضع). وعند الاستماع إلى هذه الآي القرآنية يعطى الخليفة مزرافاً فيضرب به السد، ويسرع بعد ذلك عمال بساتين الخلافة بهدمه بالمعاول والفؤوس والمجارف، لتنساب المياه متدفقة، فتجري دفعة واحدة في الخليج لتجلب معها الخير والعمران للبلاد.

وهكذا تنتهي عملية فتح الخليج، وسط ابتهاج الجمهور المحتشد والمنتظر بكل لهفة هذه العملية، لتعم الفرحة الجميع، وينتقل بعدها الخليفة والوفد المرافق إلى تناول الطعام وقضاء فترة استراحة قصيرة يعود بعدها إلى القصر بالمراسم نفسها التي جاء عليها.

خامساً ـ الهوايات والتسلية:

أكثر الخلفاء الفاطميون من الخروج إلى النزهات، وقضاء قسم من أوقاتهم في الاستراحة واللهو، وقد جعلوا الوصول إلى بعضها كالبستان الكافوري، ومنظرة اللؤلؤة، عبر سراديب مبنية تحت الأرض، ينزلون إليها من القصر الكبير الشرقي، ويسيرون فيها وهم فوق الدواب، بحيث لا تراهم الأعين(٢). وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة في القاهرة ومصر

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٩٦ ـ ٩٧،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٧٠ ـ ٤٧٤،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٥٧.

(الفسطاط) والقرافة والروضة، وهي: منظرة الأزهر، اللؤلؤة، الدكة، المقس، باب الفتح، البعل، التاج، الخمس وجوه، الصناعة، دار الملك، منازل العز، الهودج، بركة الحبش، الاندلس، قبة الهواء، والسكرة[1].

وكانت المنظرة تعد أحياناً ليشرف الخليفة منها على مشاهدة ليالي الوقود[2] أو لعرض العساكر والأسطول إذا سار براً أو بحراً لوداعه[3]. كما كانت المناظر للترويح عن النفس، وتسريح الأبصار. فبنى الآمر بأحكام الله الهودج لمحبوبته البدوية[4].

واتخذ الخلفاء الفاطميون عدة بساتين يتنزهون فيها منها البساتين الجيوشية، التي هي عبارة عن بستانين كبيرين، يمتد أحدهما من باب الفتوح إلى المطرية، والآخر من باب القنطرة إلى الخندق. ومن شدة ولع الأفضل بالبستان المجاور لمنظرة البعل، فقد أدار حوله سوراً يشبه سور القاهرة، وحفر في وسطه بركة كبيرة، وأنشأ في وسط هذه البركة منظرة مرتفعة فوق أربعة أعمدة من الرخام، ثم زرع حولها (أي حول البركة) أشجار النارنج، وكانت المياه تصب فيها من أربع سواق. كما جعل في هذا البستان من الطيور الأعداد الكثيرة والمتنوعة الأجناس والأشكال والأصوات، مستخدماً لهذه الطيور مطيّرين (كشاش) وبانياً لها أبراجاً للحمام ولغيره من الطيور، ولا سيما التي تمتاز بزهاوة ريشها كالطاووس...[5]

ولم تقتصر هواية الفاطميين على بناء المناظر وإنشاء البساتين، بل تعدتها إلى تربية الحيوانات المتنوعة كالخيول والحمير والبقر والجاموس والإبل

---

(١) انظر بالتفصيل عن هذه المناظر في الفصل الأول من كتاب: التاريخ الفاطمي السياسي.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٦٥.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٤٨٥.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ٤٨٧.

وغيرها، حتى انه أفردت لها الاصطبلات الكبيرة والمتعددة، ولا سيما منها الخيول، التي اعتنوا بها كثيراً، وخصّصوا لها يوماً لعرضها قبل سيرها في موكب أول العام، إذ يجلس الخليفة في شباك السّدلي[1] لاستعراضها. وقد اشتهر العزيز بالله الذي قيل إنه كان خبيراً بالخيول[2].

وشاعت عند الفاطميين عادة اقتناء الطيور، فاقتنوها للاستماع إلى تغريدها العذب، ولزهاوة ريشها ومظهرها الدال على العظمة والأبهة (كالطاووس)، وبعضها لمحاكاته الأصوات، والبعض الأخير للسباق. ومن ذلك ما كان لدى الوزير يعقوب بن كلس من طيور مختارة تسبق كل طائر يسابقها. وكان لدى العزيز بالله، أيضاً طيور للسبق. وليس أدل على ذلك من الرواية التالية: سابق الخليفة العزيز بالله يوماً بطيوره، طيور وزيره يعقوب بن كلس، فسبق طائر الوزير ابن كلس، فعزّ ذلك على العزيز بالله. ووجد أعداء الوزير أن هذه الفرصة سانحة لهم للطعن فيه. فقالوا للخليفة: إنه اختار من كل صنف أجوده وأعلاه، ولم يبق منه إلا أدناه، حتى الحمام، وقصدوا من وراء ذلك الإغراء به حسداً منه. فعلم ابن كلس بما يدبّر له الأعداء، فكتب إلى الخليفة:

قل لأمير المؤمنين الذي ... له العلا والنسب الثاقب
طائرك السابق لكنه ... جاء وفي خدمته حاجب

فأعجبه هذا القول، وذهب عنه ما كان وجده (أخذه) عليه[3].

وأقبل الظاهر لإعزاز دين الله في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م. على شراء

---

(١) السّدلي: بناء مغلق من جهاته الثلاث، ومفتوح من الجهة الرابعة ولها حاجز من حديد أو خشب (متكأ).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٣٧٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ٣١،
ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٢١٠.

الطيور ولا سيما الببغاء منها، فحمل إليه منها الكثير، فابتاع ما يرغب به[1].

وأقبل الفاطميون على الصيد، فكانت لهم فيه رغبة كبيرة. فخرج من الخلفاء للصيد، العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله وحفيده الظاهر لإعزاز دين الله[2]. كما ولع بالصيد الوزراء، لا سيما بدر الجمالي منهم[3]. فهذا الأمير تميم بن المعز لدين الله يصف لنا رحلة صيد بقصيدة نقتطف منها:

قد أغتدي قبل الصباح المسفر والليل في ديجوجه المعسكر
بأكلب مخرنطمات ضمر مهروقة أشداقها للحنجر[4].

وانتشرت على أيام الفاطميين كل فنون الرياضة العقلية والبدنية، التي مارسها حتى الخلفاء والوزراء أو شجعوا على إقامتها وانتشارها وممارستها من الجميع وكان العزيز بالله أول من ضرب بالصوالجة، ولعب الرمح[5]. وأن الحاكم بأمر الله كان نصيراً للرياضة والرياضيين في مختلف الميادين المعروفة. حتى أنه ذهب إلى تشجيع جماعة من الأحداث (الأولاد) على أن يتقافزوا من مكان عال في القصر إلى بركة فيها ماء لقاء جائزة مالية معينة. فسقط ثلاثون شخصاً خارج البركة وقتلوا[6].

وذهب الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي ضحية الرياضة، إذ ركب يوماً إلى «رأس الطابية» ليعرّق (يمرّن) فرساً في

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٤٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/٣٧٢،
المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/٢٧٧ و٢/١٦٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢/٤٤٩ ـ ٤٥٠،
ابن كثير: البداية والنهاية، ٨/١٧٢.

(٤) تميم ابن المعز الفاطمي: الديوان، ص: ٢٤٠.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/٢٩٤.

(٦) المصدر السابق: ٢/٥٥.

الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة، واللعب بالكرة[1] على عادته فجاء، وهو هناك، عشرة من صبيان الخاص تحالفوا على قتله، فتمكنوا منه وطعنوه حتى قتل[2].

وكان للعبة الشطرنج نصيب. فقد عرفها المسلمون منذ أيام هارون الرشيد[3] ولعبة النرد (طاولة الزهر)، إلا أن الحاكم بأمر الله منع سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م.، لعبة الشطرنج وقبض على جماعة بسبب اللعب بها فضربوا وحبسوا[4].

ومن وسائل اللهو والرياضة الفكرية أيضاً مراقبة النجوم ورصدها. وقد انتشرت في أيام الفاطميين حتى كثر اتباعها، وعملت الزيجات. فكان أول الخلفاء بمصر مغرماً بالنجوم، يعمل بأقوال المنجمين. وليس أدل على ذلك من بناء القاهرة بحسب الطالع، وأن المعز لدين الله اختفى في سرداب تحت الأرض بناء لنصيحة من منجمه، وكذلك الحاكم بأمر الله الذي كتبت له الزيجات ثم ذهب إلى الجب (جب عميرة) ليرصدها بنفسه فقتل[5].

وكان الفقراء من أبناء الشعب يلهون في مصر ـ القاهرة على هواهم، فلا يعترضون في ما ذهبوا إليه من المناظر في ظواهرها أو في داخلها، ومن ممارسة الرقص في وسط السوق أو اللجوء إلى السكر وتناول المخدرات (الحشيشة)، وأحياناً الاستماع إلى الغناء[6].

---

(١) يعتبر لعب الكرة من ألعاب الفروسية، وهي الآن معروفة بلعبة البولو وكان يقام لها احتفال خاص يخرج فيه الخليفة او الأمير في موكب رسمي. ومن أدواتها الصولجان او المحجان، أو الكوجان وهو المحجن الذي تضرب به الكرة وهو عبارة عن عصا مدهونة برأسها خشبة معقوفة.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٤٣.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ٢/٥٢١ ـ ٥٢٢.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/٩٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/٣٧٢، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ١/٢٣١.

(٦) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/٢٩ ـ ٣٠.

سادساً ـ السكر والملذات:

كانت المسكرات في الإسلام تصنع من أنواع الفاكهة، ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش والذرة، وتختلف باختلاف طرق عملها، عصراً أو نقعاً، كما ينقع الزبيب، وقد يضيفون إليها العسل أو الدبس، أو يصنعونها من أحدهما مع الحب على النار. وإذا أقبلوا على شربها تناولوها بالأقداح الكبيرة[1].

واشتهر عن بعض الخلفاء الفاطميين إقامتهم مجالس شراب وتهتّك، ولا سيما منهم الظاهر لإعزاز دين الله والمستنصر بالله والآمر بأحكام الله. ومن الوزراء برجوان الذي أكثر من حضور مجالس الشرب والملذات التي كانت تطول حتى صباح اليوم التالي[2].

وكما شجع بعض الخلفاء شرب الخمرة، بطريقة غير مباشرة، بشربها والتغاضي عن شاربيها. فقد حرّم شربها ولاحق أصحابها بعضهم الآخر من الخلفاء، ومن هؤلاء الحاكم بأمر الله الذي أصدر سجلاً (قراراً) منع بموجبه تعاطي المسكرات، وإقفال الحانات وإراقة ما فيها[3]. ولم يكتف بهذا الأمر، إنما أقدم على إعطاء أوامره بقطع اشجار الكرمة حتى لا يتخذ الناس منها الخمرة، وكسر جرار العسل وصب ما فيها في النيل، ولم يقو أحدهم على تجفيف العنب في بيته، أو حتى ابتياع أكثر من رطلين منه مخافة استخراج شراب الخمرة منه، وأتلف الزبيب، ومنع الاتجار به، فلم يجرؤ أحد على شرب الخمرة، ولا حتى الفقاع[4] لاعتقادهم بأنه مسكر[5].

---

(١) زيدان: التمدن الإسلامي، ٥/ ١٤٤ ـ ١٤٧.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٤٤.

(٤) الفقاع: شراب أو عصير يشبه البيرة، يصنع من الشعير المنقوع، وكان معروفاً منذ بداية الإسلام.

(٥) ناصر خسرو: سفرنامه، ص: ٩٠،
ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٩.

ولما أشار أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس الطبيب على الحاكم بأمر الله أن يشرب النبيذ، وذكر له فوائده وعمل الخليفة بمشورته ليتداوى به، غض النظر عما كان قد أمر به من منع الخمر، لا بل استدعى المغنين وأصحاب الملاهي إلى مجلسه. فشرب النبيذ على مغناهم، وخلع العذار معهم، وأحسن إليهم، فرجع الناس في أمر النبيذ إلى ما كانوا عليه من قبل، ولكن ما إن مات ابن نسطاس الطبيب حتى عاد الحاكم بأمر الله إلى سابق عهده، والنهي عن الخمر، وحذر منه أشد تحذير حتى منع من بيع الزبيب والعسل، وأحرق منهما وغرّق في النيل شيئاً كثيراً للتجار يقدر بمال عظيم، ومزق الظروف[1] التي يدعس فيها النبيذ ومنع من عملها[2].

وفي عهد ابنه الظاهر لإعزاز دين الله، خرج المصريون بمناسبة عيد الفصح عند النصارى إلى قنطرة المقس حيث أمضوا نهارهم في اللهو وشرب الخمر رجالاً ونساءً وهم يعاقرون الخمر حتى حملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر[3].

وكان المستنصر بالله يركب على النجب في كل سنة ومعه النساء والحشم إلى جب عميرة[4] وهو متزيّ بزي من يريد الحج، ومعه الخمر محمول في الروايا بدلاً من الماء، يدور به سقاته عليه وعلى من معه في مجلسه هناك حتى شبهه المقريزي بقوله: «كأنه ماء زمزم»[5].

(١) الظروف: مفردها ظرف، وهو الوعاء شبه الكيس يصنع من جلد الماعز يحفظ فيه السوائل.

(٢) يحيى بن سعيد: الذيل، ص: ١١٨،
متز: الحضارة الإسلامية، ص: ١١٨.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/١٣٧.

(٤) في الجهة البحرية (الشمالية) من القاهرة يقع جب عميرة، ويسمى أيضاً بركة الحجاج إذ كان الحجاج يجتمعون بهذا الموقع قبل سفرهم إلى الحج وعند عودتهم. وعميرة هو ابن تميم التجيبي.
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/١٦٣.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/٢٦٥،
ويشبه الخمر بماء زمزم التي يشربها الحجاج عند العطش.

وكان للأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي مجلس للشرب زينه بثمانية تماثيل لثماني جوارٍ متقابلات، كانت منهن أربع بيض من الكافور، وأربع سود من العنبر، وكن مرتديات أفخر الثياب، ومتزينات بأثمن الحلي، ويمسكن بأيديهنّ الأحجار الكريمة(١). فراجت على أيامه الخمرة وكثر من يشربها، ولكن ما إن قتل الأفضل حتى كتب خليفته في الوزارة أبو عبد الله محمد بن فاتك المأمون بن البطائحي إلى جميع ولاة الأعمال بغلق جميع قاعات الخمارين في سائر الاعمال، وأن ينادى بأنه من تعرض لبيع شيء من المسكرات، أو لشرائها سراً أو جهراً في آخر جمادى الآخرة من كل سنة، فقد عرّض نفسه لتلافها وبَرِءَت الذمة من هلاكها. نستنتج من ذلك أن المنع والتشديد فيه كان بصورة استنسابية يراعى فيها مزاج الخليفة أو الوزير، لأن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي كان يقتصر في غلق الحانات ومنع بيع المسكرات في آخر جمادى الآخرة في مصر ـ القاهرة فقط(٢).

وقد ولع الفاطميون بالغناء والمغنيات، فبذلوا الأموال كما ذكرنا سابقاً من أجل شراء المغنيات وإقامة مجالس الغناء والطرب. وليس أدل على ذلك ممّا حدث للأمير تميم بن المعز الفاطمي عندما كلّف بعضهم في شراء جارية مغنية بمبلغ كبير. ولما حضرت إليه أضاف أصحابه، ثم أمرها فغنت له ولجلسائه، فأطربته ولم يزل غناؤها يزيده طرباً، حتى قال لها: لا بدّ أن تسأليني حاجة، فقالت: عافيتك. فقال: ومع العافية. فقالت: تردّني إلى بغداد كي أغني ما غنيت لك. فوجم! ثم لم يجد بداً من الوفاء لها بما سألت، فأرسلها مع بعض أصحابه إلى بغداد، ولما قاربتها احتالت عليهم، فأفلتت ممن أرسلت معهم. وعندما علم تميم بن المعز لدين الله بذلك، ندم ندماً شديداً، ولات ساعة مندم(٣).

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ٢/ ٥٨.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٤٩١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤،
متز: الحضارة الإسلامية، ٢/ ٢٥١.

ومع كثرة الغناء والمغنين والمغنيات انتشرت الملاهي والحانات على الخليج ما بين مصر (الفسطاط) والقاهرة، حتى أصبحت تلك المنطقة بؤرة للفساد والرذيلة بما يرتكب فيها من مخالفات على أثر شرب المسكرات وتعاطي المخدرات (الحشيشة)، والإفراط في الاستماع إلى المغنيات، وحضور حفلات المجون والخلاعة التي كانت تحيا هناك وسط الأنوار المتلألئة ليلاً، من على جانبي الشارع الضيق، حتى أصبح مقصداً لأهل الستر للتفرج[1].

ولم يقتصر الغناء على أماكن الفرج والمتنزهات والملاهي والحانات، بل عَرَفَ الغناء طريقه إلى الدور والقصور من خلال الجواري والجاريات المغنين. فلما ورد الخبر من بغداد بإقامة الخطبة فيها باسم المستنصر بالله من قبل أبي الحارث البساسيري، زينت مصر ـ القاهرة وسرّ الخليفة سروراً كبيراً، فغنت «نسب» الطبّالة بالطبل تحت القصر على مسمع الخليفة قائلة:

يا بني العباس ردوا ملك الأمر معدّ

ملككم كان معاراً والعواري تسترد

وهذا ما أطرب المستنصر بالله، فوهبها أرضاً بمصر عند المقس، عرفت باسمها (أرض الطبّالة)[2].

وتفشّى في المجتمع المصري في العهد الفاطمي وجوه عدَّة من الخلاعة والمجون اتصفت بصفات عدَّة، واتسمت بأسماء مختلفة، لكن أوسعها

---

(١) ابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ٢/ ٣١ و٦٢ ـ ٦٣،
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٨٧.

(٢) الطبّالة: هي نسب طبّالة المستنصر بالله، كانت تقف تحت القصر في المواسم والأعياد والمناسبات الأخرى، وتسير أمام المواكب وحولها جوقتها (الكورال) وهي تضرب بالطبل وتغني.
المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ١٢٥،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ١٢. وعنده «صُدوا».

انتشاراً كان التهتك، لما فيها من الدلالة على تهتك الخلفاء والوزراء والأمراء من ضروب. وكذلك التسري والبغاء الذي ازداد وانتشر حتى فرضت الدولة الفاطمية على بيوت الفواحش ضريبة[1] كسائر المهن والسلع التجارية[2]. ولم يكن السبب في تفشي هذه الأمراض في المجتمع المصري آنذاك إلا من قبيل توافر الثروة بيد أهل الحكم، وازدحام الناس من الفقراء الذين صوّر لهم بعض القوادين طيب العيش بتعاطي الغناء واحتساء المسكر والانخراط في الفحش والرذيلة، فصار لكل من هذه الرذائل سماسرة يتاجرون بحناجر وأجساد الفقيرات اللواتي سقطن من حيث لا يدرين في الإثم، وصار للبغاء سماسرة[3] (رؤساء) تفننوا في ترويج البضاعة التي يعرضون بتصوير النساء على جدران الملاهي، والقصور والمناظر والحمامات. وحسبنا من ذلك ما فعله أحمد بن طولون من تصويره لحظاياه على جدران قصره، قبل الفاطميين، وهو ما تكرر عمله في عصرهم[4] عندما سار الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي في مجلسه (أي مجلس الشرب) وقد مرّ وصفه سابقاً.

وبلغت الجرأة في المجون بامرأة عشقت رجلاً فحلاً، إلى اختلاق كذبة كانت أدهى ما عرف من ضروب الحيل في المجون، وبعد التحقيق مع المرأة ومعشوقها أحرقت المرأة، وضرب الرجل حتى مات[5].

وأقبح من هذا المجون وذلك التهتك ما عرف عن الخلفاء الفاطميين من

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٨٩.

(٢) المصدر السابق: والصفحة نفسها.

(٣) التنوخي، أبو علي المحسن بن علي بن ابي الفهم: الفرج بعد الشدّة، طبعة مصر ١٩٠٣ م.، ٢/ ١٤٣.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ٣٥٢.

عادة اقتناء الجواري بكثرة حتى أنها أصبحت عادة ألفتها السيدات فاقتنين الجواري[1].

وكان اقتناء الجواري من قبل الخلفاء والوزراء والأمراء من باب التمتع بهن أو استيلادهن. وقد بذل الحاكم بأمر الله على حظيته الجارية «جمعة» فأصدقها بسخاء حتى أصدقها أربعة عشر ألف دينار، وولدت منه ابنة سماها «ست القصور» وقد بلغها يوماً أنه وهب لغلامين من غلمانه ثمانين ألف دينار، فلما جاءها عشية ذلك اليوم، أغلقت الباب في وجهه، وحالت دون دخوله، قائلة له: «ما تدخل إليّ، أو تهب لي ما وهبت لكل منهما» (تقصد الغلامين). فقال: «الساعة» وأحضر الفراشين، وحملهم مبلغ مائتي ألف دينار. ولما تسلّمت المال فتحت له الباب ودخل[2]. فتأمل أين تذهب الثروة، وفي أي وجوه؟!.

وبعد أن أتينا في الكلام على جميع معالم الحياة اليومية للشعب المصري في ظل الدولة الفاطمية بمصر ـ القاهرة من جميع الوجوه الاجتماعية في إبراز العادات والتقاليد التي درجوا عليها في حياتهم اليومية ومظاهر عاداتهم وتقاليدهم الدينية والمدفنية، انتقالاً إلى إبراز وجوه التعايش والألفة في ما بين أبناء هذا الشعب المتعدد الأجناس والمذاهب الدينية، والتركيز على وجوه الاختلاف والتباين إذا وجدت، وتوصلاً إلى ذكر المناسبات والأعياد الدينية التي كان يحييها أبناء هذا الشعب، منفردين مذهبياً، أو مجتمعين كشعب واحد تتجلى في وحدة العادات والتقاليد بعيداً عن الأمور الدينية ولم تسر بعض هذه المناسبات الدينية بخاصة منها، مسارها الطبيعي لقيام بعض المعارضين دينياً أو مذهبياً إلى خلق بعض العراقيل التي تمنع المحتفلين بذكرى المناسبة الدينية الاحتفاء بها، وهو ما كان يحصل أحياناً في الاحتفال بذكرى

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤/ ١٨٥،
زيدان: التمدن الإسلامي، ٥/ ١٣٦.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤.

عاشوراء في بداية عهد الفاطميين بحكم بلاد مصر، أو ما بلغ أشده في المنع باحتفال الأقباط (نصارى) ببعض أعيادهم الدينية، كعيد الغطاس، وعيد الصليب خاصة الذي تكرّر المنع في احتفال الأقباط بهذين العيدين كما رأينا سابقاً في متن هذا الفصل. وعلى الرغم من مشاركة بعض المصريين من غير الاقباط في الاحتفالات والابتهاج بذكرى الغطاس وما كان يتخللها من ألعاب درجوا على القيام بها منذ القديم، وتوضحت الصورة في احتفالات الفاطميين ومواكبهم الدينية وغير الدينية منها وما كان يتخلل تلك الاحتفالات والمواكب من عادة توزيع الملابس وإقامة الولائم وإطعام الفقراء منها. وما هذه الاحتفالات إلا مظهر من مظاهر حياة البذخ والترف التي كان يحياها الخلفاء الفاطميون فجاءت تقليداً لما عرفه الخلفاء العباسيون من قبل، وأبرزنا دقائق الأمور الحياتية اليومية، وصوّرنا هوايات الخلفاء والوزراء والقوّاد والأمراء، من رياضة فكرية، وبدنية، وتعاطي المسكرات والتسابق إلى إشباع نهم البعض منهم إلى الملذات الجنسية وما يستتبع ذلك من احتساء الخمرة واقتناء الجواري والخدم والاستماع إلى المغنيات، والإقبال على التهتك والتسري بعدما تفشى ذلك في المجتمع الفاطمي آنذاك.

ألا نعتقد بعد إبراز هذه المعالم الحياتية للمجتمع المصري في ظل الحكم الفاطمي، أنه قد توضحت الصورة بشكل كبير؟ كيف لا وقد عملت جهداً لتعريف القارىء الكريم على مختلف ميادين الحياة اليومية المصرية، داخلاً بالقارىء إلى زوايا القصور وخباياها وما ندر من أخبار حول الخلفاء والوزراء لتتوضح بشكل أفضل وأوضح الحقائق التي سادت حياة هؤلاء اليومية. وإن لم تنعكس الصورة عن الحياة اليومية لمعظم أبناء الشعب من الطبقة الفقيرة لغموض ذلك في المصادر التاريخية التي رجعنا إليها.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان والمدن

جدول بياني بوحدات الموازين والمكاييل والمساحة أيام الفاطميين[1]

أولا ـ مقاييس الوزن:

أ ـ الوحدات المستعملة في وزن العقاقير والمعادن الثمينة:

الوحدة	الوزن بالغرام	حبة	قيراط	درهم	مثقال	الأوقية
حبة[2]	٠,٠٤٨٧٥غ					
قيراط[3]	٠,١٩٥غ	٤				
درهم[4]	٣,١٢غ	٦٤	١٦			
مثقال	٤,٦٨غ	٩٦	٢٤	٣/٢		
الأوقية	٣٧,٥٠غ	٧٦٨	١٩٢	١٢	٨	
الرطل	٤٣٧,٥٠غ	٩٢١٦	٢٣٠٤	١٤٤	٩٦	١٢

---

(١) استعملت حبوب: القمح، الشعير، الخروب، الخردل، الأرز على ان الجهة في الأساس هي وزن عملة لا وزن بضاعة. لذلك يتأرجح استعمال الحبة تبعاً لأوزان المثقال المحلية. وتساوى الحبة عادة ١٠٠/١ من المثال.

(٢) القيراط هو وزن خروبة من الذهب.

(٣) يتألف الدرهم نظرياً من كميات مختلفة من الحبوب، فهو تارة يتألف من ٤٨ حبة وأخرى من ٦٠ حبة.

(٤) كان في مصر أكثر من ثلاثة أنواع من الرطل ومنها:

- الرطل الكبير ويزن ٥٠٠ غراماً أو ١٦٠ درهما.
- الرطل الليثي ويزن ٦٢٠ غراماً أو ٢٠٠ درهما.
- الرطل الجروي ويزن ٩٦٧ غراماً أو ٣١٢ درهما.

ب ـ الوحدات المستعملة في الأوزان الأخرى:

الوحدة	الوزن بالغرام	الأوقية	الرطل	الاقة	القنطار
الأوقية	٣٧,٥٠غ				
الرطل[1]	٤٣٧,٥٠غ	١٢			
الاقة	١٢٤٨غ		٢/١ ٢ رطل كبير		
			٣/١ ٣ رطل عادي		
القنطار	٤٣٧٥٠غ		١٠٠	٣٦	

ثانيا ـ مقاييس الحجم:

الوحدات المستعملة للسوائل والحبوب:

النوع	الوزن بالغرام	السعة	قدح	كيلة	ويبة	اردب
قدح[2] صغير	٧١٦,٨٣غ	٠,٨٨ل				
قدح[3] كبير		٠,٩٤ل				
كيلة	٦,٩٣٨٥ كلغ	٧,٥ل	٨			
ويبة	١٢,١٨٧٥كلغ	١٥ل	١٦ صغير	٢		
				٨ كبير		
اردب	٥٦ كلغ	٩٠ل	٩٦ صغير	١٢	٦	
	٧٣,١٢٥	٧٥ل	٤٨ كبير			
حمل	٣٥ كلغ	٣٠٠ رطلا				
تليس	١٥٠ رطلا				٨	
	أو ١٢٧ ليترا					

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة (دار الشعب ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر)، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٧٦٧.
فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية.

(٢) هناك نوع من المكاييل يسمى الربع أو الربعة ويساوي ٤/١ قدح. وكذلك الخروبة وتساوي ١/١٦ من القدح.

ثالثا ـ مقاييس الطول:

الوحدات المستعملة في قياس الطول والمساحة:

وحدات قياس الطول		وحدات قياس المساحة			
الوحدة	الطول	الوحدة	المساحة	سهم	قيراط
الاصبح	٢,٢٥٢ سم أو ٢,٠٧٨ سم	سهم	٧,٢٩٣م	٢	
الذراع[٤]	٥٤,٠٤٨ سم ٤٩,٨٧٥ سم	قيراط[٥]	١٧٥,٣٥م٢	٢٤	
القصبة	٤ ١١/١٥ ذراع معماري ٦ذراع بلدي ٣,٩٩ م	فدان	٦٣٦٨م٢	٥٧٦	٤ قيراط أو ٤٠٠ قصبة م٢

(١) كان يوجد عدة انواع من الذراع ـ انظر فالترهتس: المكاييل والأوزان الإسلامية تحت عنوان «ذراع».

(٢) استعمل احياناً الدانق في المساحات وهو يساوي ١/٦ القيراط.

جدول المصطلحات

الابكار	:	مفردها بكر، وهي الفتاة العذراء.
أترجة	:	طابة تعلق في طرف المظلة أو الشمسة بحجم البرتقالة.
أجانة	:	جمعها أجاجين، وعاء يعجن فيه العجين او يغسل فيه.
الأحداث	:	الفتيان، زمرة من الفتيات عملواعلى اثارة الفتنة في البلاد.
اردب	:	مكيال للحبوب.
الاسفهسلار	:	فارسية الأصل ومعناها قائد عسكري.
الآمة	:	العبدة، الجارية.
البدنة	:	ثوب يلبسه الخليفة.
بردعة	:	نوع من الثياب يشبه الصدرية. وفي الأصل، ما يوضع على ظهر الدواب ليركب عليها.
بغلطاق	:	عقد من الجوهر.
تخت	:	خزانة الثياب.
جامات	:	مفردها جامة، آنية من الفضة كالكأس تتخذ للطعام.
جامكية	:	مرتب موظفي الدولة.
جرايات	:	نظام يحدد ما يستهلكه المرء من بعض البضائع.
جوسقا	:	بهوا.
الحمر	:	الدواب.
خراريب	:	مفردها خروبة، وهي عملة ذهبية كانت توزع في مناسبة خميس الأسرار، (العدس.)
الدراعة	:	نوع من الثياب (الجلباب).
درق	:	مفردها درقة، وهي ترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب.
الزير	:	جمعها أزيار، وهي نوع من الجرار الكبيرة (الخابية).

شيرج	:	دهن السمسم (أو زيته).
الطيلسان	:	ثوب مشقوق الصدر.
العقيقة	:	جمعها عقائق، وهي شعر كل مولود من الناس والبهائم ينبت وهو في بطن أمه.
قباء	:	جمعها أقبية، وهو ثوب يلبس فوق القميص.
قبالين	:	حذاء بأذنين.
قرب	:	جمع قربة، وهي وعاء ينقل فيه الماء.
القسي	:	السيء أو الردى.
قمطر	:	ما يحفظ فيه الكتب ويوضع حول وسط الرجل.
الكوس	:	جمعها كوسات وهي الطبل.
المدورة	:	فسطاط أو خيمة.
المزر	:	شراب مصنوع من القمح أو الذرة وأحيانا الشعير ويشبه البيرة.
المزولة	:	ساعة شمسية (الظل).
مكفتة	:	انزال معدن في صنع بعض الآنية للزينة (الحفر).
ملأة	:	ثوب مشقوق الصدر (الجلابية).

جدول بأسماء الخلفاء الفاطميين

١) عبيد الله المهدى (٢٩٨هـ/ ٩١١م - ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م.)

↓

٢) القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م - ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م.)

↓

٣) المنصور بنصر الله أبو الظاهر اسماعيل (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م - ٣٤١ هـ/ ٩٥٢م.)

↓

٤) المعز الدين الله أبو تميمي معد (٣٤١ هـ/ ٩٥٢م - ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م.)

↓

٥) العزيز بالله أبو منصور نزار (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م - ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦م.)

↓

٦) الحاكم بأمر الله أبو علي منصور (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م - ٤١١هـ/ ١٠٢٠م)

↓

٧) الظاهر لأعزاز دين الله أبو الحسن علي (٤١١ هـ/ ١٠٢٠م - ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥م)

↓

٨) المستنصر بالله أبو تميم معد (٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥م - ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).

↓ ↓

٩) المستعلي بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م - ٤٩٥هـ/ ١١٠١م)

↓ ↓

أبو القاسم محمد

١٠) الآمر بأحكام الله أبو علي منصور (٤٩٥هـ/١١٠١م - ٥٢٤هـ/١١٣٠م)

↓

١١) الحافظ الدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأميرابي القاسم محمد.

ابن المستنصر بالله(*) (٥٢٤هـ/١١٣٠م - ٥٤٤ هـ/١١٤٩م)

↓

١٢) الظافر بامر الله أبو منصور اسماعيل (٥٤٤ هـ/١١٤٩م - ٥٤٩هـ/١١٥٤م)

↓ ↓

١٣) الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى (٥٤٩هـ/١١٥٤م - ٥٥٥هـ/١١٦٠م)

يوسف

↓

١٤) العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله(*)بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله (٥٥٥هـ/١١٦٠م - ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م)

*) من بين الخلفاء الفاطميين جميعا لم يلي الخلافة من لم يكن أبوه خليفة غير الخليفتين الحافظ عبد المجيد والعاضد عبد الله.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

- ابن الأثير، علي بن أحمد بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني.

١ ـ «الكامل في التاريخ»: منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧/ ١٩٦٧م. الطبعة الثانية، ٩ أجزاء.

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي.

٢ ـ «عيون الأنباء في أخبار الأطباء». القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ هـ. جزءان.

- ابن أياس، أبو البركان محمد بن أحمد.

٣ ـ «بدائع الزهور في وقائع الدهور» المعروف بتاريخ مصر، طبعة بولاق سنة ١٣١١ ـ ١٣١٢هـ، ٣ أجزاء.

- ابن بطولة، محمد بن عبد الله اللواتي.

٤ ـ «تحفة النظار في غرائب الأقطار وعجائب الأسفار» المعروفة برحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتظر الكتاني، منشورات مؤسسة الرسالة، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م بيروت، جزءان.

- ابن الجوزي.

٥ ـ «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»

- ابن الحداد، أبو المنصور ظافر بن القاسم.

٦ ـ «ديوان ظافر الحداد» تحقيق حسين نصار. منشورات مكتبة ودار مصر للطباعة، ١٩٦٩م.

- ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي.

٧ ـ «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك». بيروت ١٩٥٧ م.

- ابن خلدون، عبد الرحن بن محمد.

٨ ـ «المقدمة. . منشورات دار الكتاب العربي، الطبعة الخامسة، بيروت.
٩ ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر. . . إلخ» منشورات مؤسسة الأعلمي، ١٩٧١ م، بيروت ٧ أجزاء.
- ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي.
١٠ ـ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» تحقيق احسان عباس، منشورات دار الثقافة، ١٩٨٣، بيروت ٨ أجزاء.
- ابن دقماق، ابراهيم بن محمد المعري.
١١ ـ «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩٣م القاهرة، لم يظهر منه إلا الجزءان الرابع والخامس.
- ابن سعيد، علي بن موسى المغربي.
١٢ ـ «النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة» القسم اثاني من الجزء الخاص بمصر، من كتاب «المغرب في حلى المغرب. . .» تحقيق حسين نصّاره القاهرة ١٩٧٠م
١٣ ـ ابن ظهيرة
١٣ ـ «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، منشورات دار الكتب القاهرة ١٩٦٩م
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي.
١٤ ـ «شذرات الذهب في أخبار من ذهب». منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ٤ مجلدات
- ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب.
١٥ ـ «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ
- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة.
١٦ ـ «ذيل تايخ دمشق» أو تاريخ ابن القلانسي، تحقيق أمد روز. مطبعة الأباء اليسوعيين. بيروت. ١٩٠٨م.
- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي.

١٧ ـ «البداية والنهاية. . . منشوران مكتبة المعارف ببيروت، ومكتبة النصر بالرياض، الطبعة الأولى ١٩٦٦م ١٤ جزءاً.
ـ ابن مماتي، شرف الدين أبو المكارم بن أبو الأسعد.
١٨ ـ «قوانين الدواوين» مطبعة الوطن، مصر ١٢٩٩ هـ. ونشر عزيز سوريال، القاهرة. ١٩٤٣ م.
ـ ابن منجب الصيرفي، علي أبو القاسم.
١٩ ـ «الاشارة الى مَنْ نال الوزارة» منشورات المعهد العلمي الفرنسي القاهرة ١٩٢٤ م.
ـ ابن ميسّر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب.
٢٠ ـ «تاريخ أخبار مصر». نشره هيزي ماسيه. المعهد العلمي الفرنسي. القاهرة ١٩١٩م ٣ أجزاء.
ـ ابن هانيء، أبو القاسم المكنى بأبي الحسن محمد.
٢١ ـ «ديوان ابن هانيء» طبعة بيروت. ١٣٢٦هـ.
ـ أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود.
٢٢ ـ «الأخبار الطوال» تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيّال، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٠ م.
ـ أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين.
٢٣ ـ «الروضتين في اخبار الدولتين» تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، سلة ١٩٥٦ م جزءان.
ـ أبو الفداء، اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه.
٤ف ـ «المختصر في أخبار البشر. . . مطبعة الحسينية بمصر، الطبعة الأولى، ٤ أجزاء.
ـ أبو المحاسن، جمال الدين بن يوسف تغري بردى.

٢٥ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. . . طبعة دار الكتب. القاهرة ١٩٢٩م، ١٦ جزءاً.
ـ الإنطاكي، يحي بن سعيد.
٢٦ ـ «صلة كتاب أوتيخا المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» والمعروف بالذيل. بيورت ١٩٠٩م، جزءان.
ـ التنوخي، أبو علي الحسن بن علي بن أبي الفهم.
٢٧ ـ «الفرج بعد الشدة. . . طبعة مصر سنة ١٩٠٣ م ٣ أجزاء.
ـ الثعالبي، أبو منصور عبد الله.
٢٨ ـ يتيمة الدهر». طبعة دمشق. ١٣٠٢هـ. ٥ أجزاء
ـ خسرو، ناصر
٢٩ ـ «سفر نامه» نقلها الى العربية يحيى الخشاب، منشورات دار الكتاب العربي الجديد، بيروت ١٩٧٠ م.
ـ السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن.
٣٠ ـ «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. . . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٧ هـ/١٩٤٧م ـ ١٩٤٨م. الطبعة الأولى. جزءان.
ـ الفاطمي، تميم بن المعز لدين الله.
٣١ ـ «ديوان تميم». طبعة دار الكتب المصرية. ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٣م
ـ القرطبي، عريب بن سعد
٣٢ ـ «صلة تاريخ الطري». نسخة مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية بمصر. منشورات مكتبة خياط بيروت. (لا. تا).
ـ القلقشندي، ابو العباس أحمد.
٣٣ ـ «صبح الأعشى في صناعة الانشا». منشورات دار الكتب المصرية القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧م ١٤٠ جزءاً.
ـ الكسندي، . . .

٣٤ ـ «فضائل مصر.» تحقيق ابراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر. ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م، الطبعة الأولى.

ـ المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي، المقدسي.

٣٥ ـ «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم... طبعة ليدن ١٩٠٦م.

ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي.

٣٦ ـ «المواعظ الاعتبار في ذكر الخطط والآثار. نسخة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٧٠ هـ. منشورات دار صادر ـ ودار بيروت. (لا.تا) جزءان.

٣٧ ـ «اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا.» ٣ أجزاء.

الجزء الأول. تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٧م. والجزءان: الثاني والثالث. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٣٩٠ ـ ١٣٩٣هـ/ ١٩٧١ ـ ١٩٧٣م.

٣٨ ـ «إغاثة الأمة في كشف الغمة». نشر مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ١٩٨٠ م.

ـ المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين.

٣٩ ـ «مروج الذهب ومعادن الجوهر». تحقيق يوسف أسعد داغر. منشورات دار الأندلس: بيروت ١٩٧٣م. الطبعة الثانية. ٤ أجزاء.

ـ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.

٤٠ ـ «نهاية الأرب في فنون الأدب». طبعة دار الكتب المصرية.

ـ اليمني عمارة، نجم الدين.

٤١ ـ «النكت العصرية» طبعة باريس ١٨٩٧ م

ثانياً: المراجع العربية

ـ امين، أحمد

٤٢ ـ «ظهر الاسلام». القاهرة ١٩٤٥. م.

ـ ايوب، ابراهيم رزق الله.

٤٣ ـ «التاريخ الفاطمي السياسي». الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت ١٩٩٦ م.

ـ البراوي، راشد.

٤٤ ـ «حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين». القاهرة ١٩٤٨ م.

ـ حسن، زكي محمد

٤٥ ـ «كنوز الفاطميين. . . القاهرة. ١٩٣٧ م.

ـ حسن، حسن ابراهيم.

٤٥ ـ «تاريخ الدولة الفاطمية، في المغرب ومصر وسورية وبلاد الغرب «منشورات مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثالثة، ١٩٦٤ م.

ـ زيدان، جرجي.

٤٦ ـ «تاريخ التمدن الاسلامي» ٥ أجزاء في مجلدين (لا. تا).

ـ قبيت، غاستون.

٤٧ ـ «القاهرة مدينة الفن والتجارة». ترجمة مصطفى العبادي نشر بالاتفاق مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

(بيروت ـ نويورك)، مكتبة لبنان ١٩٦٨م.

ـ كونل، أرنست.

٤٨ ـ «الفن الاسلامي»، ترجمة أحمد موسى. منشورات دار صادر، بيروت، ١٩٦٦ م.

ـ ماجد، عبد المنعم.

٤٩ ـ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر»، منشورات دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٨ م.

ـ مبارك، علي باشا.

٥٠ ـ «الخطط التوفيقية الجديدة، لمصر ـ القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٩ م. ٢٠ جزءاً،.

ـ متز، آدم.

٥١ ـ «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري»، نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو ريد. جزءان، بيروت ١٩٦٧ م.

ـ مشرفة، عطية مصطفى

٥٢ ـ «نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين». منشورات دار الفكر العربي بمصر، الطبعة الثانية. (لا. تا).

ـ هنتس، فالتر

٥٣ ـ «المكاييل والأوزان الاسلامية... نقله الى العربية.

كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧٠ م.

ثالثاً: كتب دينية.

٥٤ ـ «القرآن الكريم...

رابعاً: المعاجم والدوريات

ـ طوبيا، مجيد.

٥٥ ـ «معاشر القرعان لكم الملامان» مقال منشور. مجلة العربي ـ الكويت، العدد ٢٦٧، فبراير ١٩٨١م.

ـ الفيروز آبادي، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب

٥٦ ـ «القاموس المحيط... دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م ٤ مجلدات.

٥٧ ـ «المساجد». مجلة عالم المعرفة ـ الكويت، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والآداب ـ الكويت ـ العدد ٣٧ يناير ١٩٨١ م.

ـ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

٥٨ ـ «معجم البلدان» منشورات: دار صادر ـ دار بيروت. ٥ مجلدات، (لا. تا).